المسيرة الإسلامية للتاريخ

منير محمد غضبان

دار الفرقان للنشر والتوزيع
عمان - جبل الحسين - شارع خالد بن الوليد
ص ب ٩٢١٥٢٦ - هاتف ٦٦٠٩٣٧


بسم الله الرحمن الرحيم

المسيرة الإسلامية للتاريخ

الطبعة الثانية

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

الرقم المتسلسل (٣٢)



للنشر والتوزيع

عمان / الأردن / جبل الحسين شارع خالد بن الوليد

ص. ب ٩٢١٥٢٦ ت: ٦٦٠٩٣٧

بين يدي البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

في خضم الدراسات التاريخية الحديثة. نبحث عن النظرة الشاملة للتاريخ الإسلامي، فلا نجدها. لقد امتلأت المكتبة الإسلامية بدراسات كثير من التراجم. بحيث يكاد لا يمر يوم لا نرى فيه دراسة جديدة عن شخصية معينة.

لكننا نفتقد الدراسة الشاملة.

وأعداؤنا يحاربوننا بهذا الشمول. بحيث يقدمون لنا تاريخ البشرية من خلال فلسفتهم وعقيدتهم. وفي الأرض الإسلامية حيث تسود العقائد القومية والاشتراكية التي يطلقون عليها ـ العلمية ـ تسد الأفق فلسفات التاريخ القومية والشيوعية.

ونبحث عن هذه الدراسة الشاملة للمسيرة الإسلامية للتاريخ، فلا نجدها.

إن أعداءنا يهدمون عقيدتنا ويبنون عقائدهم من خلال العرض الاقتصادي للتاريخ، أو العرض القومي للتاريخ. ويتلقف شباب الرقعة الإسلامية هذه الدراسات. فتدخل في بنائهم الفكري. وتشوه معالم الإسلام في ذهنهم. وتضع معالم الجاهلية عوضاً عنه.

وكثير من الكتاب الذين يطلق عليهم ـ الإسلاميون ـ يتناولون شخصيات إسلامية ـ ومن الصدر الأول منهم على ضوء هذه الفلسفات والعقائد فيقسمون شخصيات الصحابة الى يمين ويسارٍ ووسط . أو يعيدون تصرفاتهم إلى نزعتهم العصبية التي ورثوها عن أجدادهم وأجداد أجدادهم كما يحلو لهم ذلك ، دون أن يعيروا وزناً لمفاهيم الإسلام ودرس التاريخ العربي في مناهج المدارس ، وكذلك التاريخ العالمي ، وقد وضعت خطة لتدريسه من الجامعة العربية .

يتناول في فصوله الأولى تاريخ العرب قبل الاسلام . وفي كل دولة يتم التركيز على الشعوب التي سيطرت فيها . ففي سورية يركزعلى الفينيقيين ،وفي مصر على الفراعنة ، وفي العراق على الكلدانيين والبابليين والآشوريين وهلم جرا . .

وتم دراسة هذا التاريخ على ضوء الآثار المتبقية . في جرش أو بابل أو تدمر أو القاهرة أو الأقصر أو حضرموت . ويتم الاعتزاز بهذا التاريخ لما شيدت هذه الحضارات من بناء وأقامت من سدود ، وبنت من مصانع . ومما يفتخر فيه أديانها كذلك ولو كانت وثنية أو جاهلية أو مشركة . ثم نتابع الدراسة ، للعهد النبوي ومرحلة الراشدين والتاريخ الأموي والعباسي من خلال دراسة الملوك والحكام . ومع انتهاء سيطرة العنصر العربي ، ينتهي التاريخ المجيد للأمة . مع المعتصم الذي أدخل العنصر التركي فغلب على الحكم أي حوالي قرنين ونصف من الهجرة . هذا هو التاريخ القومي .

ثم تتحدث المرحلة الثالثة ، عن سيطرة عهود الظلام كما يسمونها ، عهود سيادة غير العنصر العربي التي يسمونها الدول المتتابعة أو عصور الانحطاط أو عصور المماليك والعثمانيين .

وإن كانوا يشيدون في صلاح الدين الأيوبي ، بصفته من أبطال العروبة .

ثم تأتي المرحلة الرابعة والأخيرة. أسود مرحلة في تاريخ هذه الأمة. المرحلة التي غاب فيها الإسلام عن الحكم في القرن الأخير، فيطلقون عليها عهد اليقظة، أو عهد النهضة. وكلها بطولات وأمجاد خارقة، ويرفعون من كل طاغية استذل شعبه وأمته إلى مصاف التأليه.

هذا هو الخط القومي الذي تسير فيه دراستنا التاريخية القومية في جميع دول الجامعة العربية.

وفي الدول الإسلامية الأخرى. فالوضع أنكى وأشد. حيث تسود الفلسفة القومية. فتعتبر العرب غزاة فاتحين. وتمجد بالتاريخ الجاهلي القديم لها قبل الاسلام مثل الأكاسرة في إيران وجنكيزخان وتيمورلنك في تركية، وغيرها وغيرها كثير.

* * *

في خضم هذه الدراسات التاريخية. تقوم بعض الدراسات العامة الشاملة على أساس المنهج الإسلامي الشامل. وكأنها شموع هادية في قلب الظلام المطبق.

من هذه الكتب:

أضواء على التاريخ الإسلامي	للدكتور فتحي عثمان
نظرات في التاريخ الإسلامي	للدكتور عبد الرحمن الحجي.
التفسير الإسلامي للتاريخ	للدكتور عماد الدين خليل.

ولا أنفي وجود كتب أخرى رائدة. لم يسعفني الحظ في الإطلاع عليها بعد.

وميزة هذه الكتب الثلاثة المذكورة أنها قادت القارىء إلى التعرف

الصحيح على التاريخ الإسلامي ، ودلته كيف يقرأ التاريخ . وأعطته الخطوط الأولى لفلسفة الإسلام التأريخية . لكنها لم تقدم عرضاً تاريخياً للأحداث العامة على ضوء هذا المنهج المذكور . بل طلبت من القارىء أن يفعل ذلك .

* * *

هناك كتاب آخر في طريقه إلى النشر ، وهو كتاب رائد كذلك . أكرمني الله بالاطلاع عليه للأستاذ الداعية الأخ محمد قطب . بعنوان « منهج للتاريخ الإسلامي » . وكان هذا الكتاب تفسيراً وتطبيقاً لكتاب أخيه الداعية الشهيد سيد قطب رحمه الله . حيث تناول في هذا الكتاب الدراسة من خلال العرض القرآني ، وأحداث التاريخ الإسلامي . التي كانت تطبيقاً للتصور الإسلامي للتاريخ في القرآن والسنة .

ولعل هذا الكتاب هو للمؤرخين المسلمين يدلهم على الطريق الذي يدرسون فيه أحداث التاريخ الإسلامي والعالمي . فكان فتحاً جديداً في هذا المضمار ، إضافة إلى كتابيه الآخرين : « منهج التربية الإسلامية » ، و« منهج الفن الإسلامي » .

* * *

وهذا الكتاب الذي أضعه بين يدي القارىء ليس لي فيه أكثر من التأليف بين أبحاثه . ليكون محاولة حية لدراسة أحداث التاريخ الإسلامية والعالمية على ضوء الإسلام .

والمنطلق الذي سرت فيه في جمعه يعتمد على خطين كبيرين .

الخط الأول : هو التفسير الإسلامي للتاريخ . الذي يعتبر تاريخ البشرية كله صراعا بين الإسلام والجاهلية ، بين منهج الله ومنهج البشر .

والإسلام على ضوء هذا المفهوم يمتد من آدم عليه السلام حتى يرث الله

الأرض ومن عليها انطلاقاً من قول الله عز وجل:

﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾.

﴿ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾.

﴿قال: اهبطوا منها جميعاً. فإما يأتينكم مني هدىً فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ،والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

والتاريخ الإسلامي على ضوء هذه الآية، تاريخ من اتبع الهدى، ومن كفر وكذب بالآيات.

الخط الثاني: هو اعتبار وحدة الأرض كلها، ووحدة البشر كلهم. بالنسبة لرسالات السماء.

فلا تميز لأمة أو عرق أو جنس أو شعب انطلاقاً من قول الله عزّ وجلّ:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وانثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾.

ومن قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «كلكم لآدم، وآدم من تراب. لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح».

* * *

ولقد وجدت هذه الصورة المتكاملة عند ثلاثة من كتّابنا الإسلاميين هم:

سيد قطب، وعبد الحميد جودت السحار، وأنور الجندي.

أما لدى سيِّد رحمه الله- رائد الفكر الإسلامي الحديث. فقد أخذت منه ما كتبه - «في ظلال القرآن»، والذي عرض فيه لتفسير سورة الأعراف منذ

الخلق الأول حتى إبراهيم عليه السلام. وهو فجر البشرية الأول.

وأما لدى السحار، فقد أخذتُ منه ما كتبه عن تاريخ البشرية من لدن إبراهيم عليه السلام حتى البعثة النبوية. وأطلق عليه اسم التفسير الديني للتاريخ، من خلال كتابه - السيرة النبوية - وحاول استعراض تاريخ الأمم في هذه الحقبة وموقفها من رسالات الأنبياء.

وأما لدى الأستاذ الجندي، فقد أخذت منه ما كتبه عن تاريخ البشرية من لدن محمد ﷺ حتى يومنا هذا. في كتابه « رؤية جديدة لفلسفة تاريخ الإسلام ».

وعرض فيها للتاريخ العالمي ودور الشعوب الإسلامية كاملة في حمل لواء هذه العقيدة.

* * *

وسأنسحب بعد هذه المقدمة لأدع القارىء للرواد الثلاثة، بحيث ينتهي بعد هذا الإطلاع إن شاء الله إلى تكامل الصورة في ذهنه عن المسيرة الإسلامية للتاريخ.

وأعتذر سلفاً عن بعض الملاحظات التي أبديها. إذا اقتضتها ضرورة البحث، أو ضرورة الربط بين الفقرات، كما أعتذر لاختلاف الأسلوب لدى كتابنا الثلاثة.

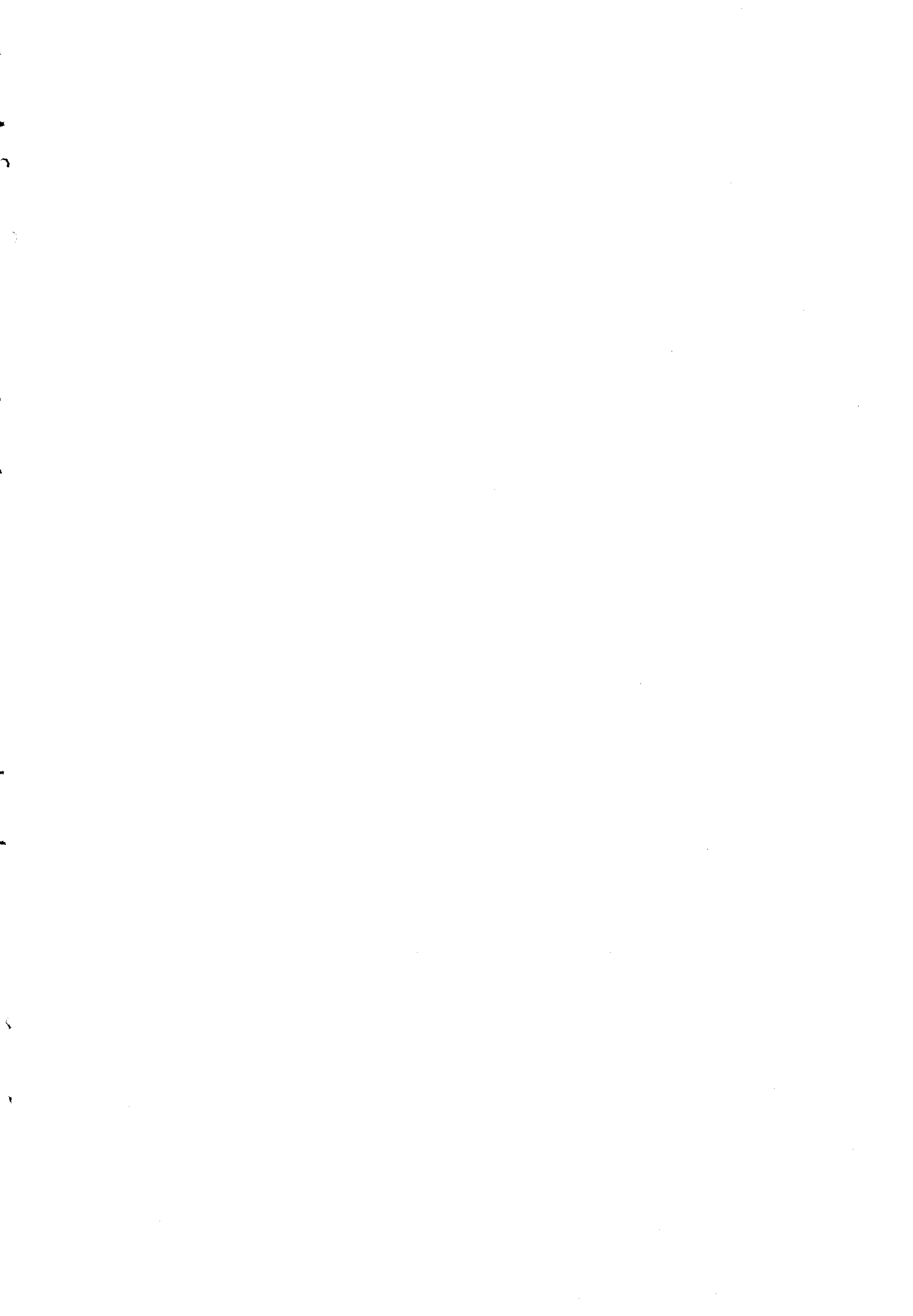
لكن يشفع لي أن هذا التكامل لم يقم به واحد من الكتاب الثلاثة. فكل ما فعلته أن ألفت بين هذا النتاج الضخم، ليسد فراغاً في المكتبة الإسلامية، ويحمي ثغرة كبيرة من ثغورها.

وللرواد الثلاثة عظيم شكري وامتناني لما بذلوه من جهد، وأنا أتتلمذ عليهم. راجياً الله تعالى أن يرزقنا أجرهم، ولا يفتنا بعدهم، وأن يكون هذا

في ميزاننا يوم القيامة إنه أكرم مسؤول. وأن يغفر لنا تجاوزنا وخطأنا، إنه هو الغفور الرحيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

منير محمّد غضبان



الفصل الأول

ميلاد الإنسان

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون ، ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك؟ قال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . قال : فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين . قال : أنظرني إلى يوم يبعثون . قال : إنك من المنظرين . قال فبما أغويتني لأَقْعُدَنَّ لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذؤوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأنَّ جهنم منكم أجمعين . ويا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وري عنهما من سوآتهما وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما

الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين. قالا: ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لَنكونَنَّ من الخاسرين. قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين. قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾.

* * *

من هنا تبدأ الرحلة الكبرى.. تبدأ بتمهيدٍ عن تمكين الله للجنس البشري في الأرض كحقيقة مطلقة وذلك قبل أن تبدأ قصة البشرية تفصيلاً.

﴿ولقد مكناكم في الأرض، وجعلنا لكم فيها معايش، قليلاً ما تشكرون﴾.

إن خالق الأرض وخالق الناس، هو الذي مكن لهذا الجنس البشري في الأرض. هو الذي أودع الأرض هذه الخصائص والموافقات الكثيرة التي تسمح بحياة هذا الجنس وتقوته وتعوله، بما فيها من أسباب الرزق والمعايش..

هو الذي جعلها مقراً صالحاً لنشأته بجوها وتركيبها وحجمها وبعدها عن الشمس والقمر. ودورتها حول الشمس، وميلها على محورها، وسرعة دورتها، إلى آخر هذه الموافقات التي تسمح بحياة هذا الجنس عليها، وهو الذي أودع هذه الأرض من الأقوات والأرزاق ومن القوى والطاقات ما يسمح بنشأة هذا الجنس وحياته، وبنمو هذه الحياة ورقيها معاً، وهو الذي جعل هذا الجنس سيد مخلوقات هذه الأرض قادراً على تطويعها واستخدامها، بما أودعه الله من خصائص واستعدادات للتعرف إلى بعض نواميس هذا الكون، وتسخيرها في حاجته...

بعد ذلك تبدأ قصة البشرية بأحداثها المثيرة.. تبدأ بإعلان ميلاد الإنسان في احتفال مهيب في رحاب الملأ الأعلى.. يعلنه الملك العزيز الجليل العظيم، زيادة في الحفاوة والتكريم، وتحتشد له الملائكة. وفي زمرتهم وإن لم يكن منهم

إبليس - وتشهده السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء.. إنه أمر هائل وحدث عظيم في تاريخ هذا الوجود:

﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم، ثم قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم. فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين. قال: ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك؟. قال: أنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين. قال: فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها، فاخرج إنك من الصاغرين. قال: أنظرني إلى يوم يبعثون. قال: إنك من المنظرين. قال: فبما أغويتني لأَقْعُدَنَّ لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين. قال: اخرج منها مذؤوماً مدحوراً، لمن تبعك منهم لأملأنَّ جهنم منكم أجمعين.﴾.

هذا هو المشهد الأول.. وهو مشهد مثير.. ومشهد خطير...

﴿ولقد خلقناكم، ثم صورناكم، ثم قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم، فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾ إن الخلق قد يكون معناه الإنشاء. والتصوير قد يكون معناه: إعطاء الصورة والخصائص.. وهما مرتبتان في النشأة لا مرحلتان. فإن - ثم - قد لا تكون للترتيب الزمني، ولكن للترقي المعنوي، والتصوير أرقى مرتبة من مجرد الوجود. فالوجود يكون للمادة الخامة، ولكن التصوير - بمعنى إعطاء الصورة الإنسانية والخصائص - يكون درجة أرقى من درجات الوجود. فكأنه يقول: إنا لم نمنحكم مجرد الوجود ولكن جعلناه وجوداً ذا خصائص راقية، وذلك كقوله تعالى: ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾.

فإن كل شيء أُعطي خصائصه ووظائفه وهُدي إلى أدائها. والمعنى لا يختلف إذا كان معنى (هدى): هداه إلى ربه. فإنه هدي إلى ربه عند خلقه. وكذلك آدم صوِّر وأعطي خصائصه الإنسانية عند خلقه. و - ثم - للترقي في

الرتبة لا للتراخي في الزمن، كما نرجح.

وعلى أية حالٍ فإن مجموع النصوص القرآنية في خلق آدم عليه السلام، وفي نشأة الجنس البشري، ترجح أن إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة، كان مصاحباً لخلقه، وأن الترقي في تاريخ الإنسان كان ترقياً في بروز هذه الخصائص ونموها وتدريبها واكتسابها الخبرة العالية، ولم يكن ترقياً في وجود الإنسان: من تطور الأنواع حتى انتهت إلى الإنسان كما تقول الداروينية.

ووجود أطوار مترقية من الحيوان تتبع ترتيباً زمنياً - بدلالة الحفريات التي تعتمد عليها نظرية النشوء والارتقاء - هو مجرد نظرية ظنّية - وليست يقينية - لأن تقدير أعمار الصخور ذاته في طبقات الأرض ليس إلا ظنّاً! مجرد فرض كتقدير أعمار النجوم من إشعاعها، وليس ما يمنع من ظهور فروض أخرى تعدلها أو تغيرها!

على أنه - على فرض العلم اليقيني بأعمار الصخور - ليس هناك ما يمنع من وجود (أنواع) من الحيوان في أزمان متوالية بعضها أرقى من بعض، بفعل الظروف السائدة حياتها، ثم انقراض بعضها حين تتغير الظروف السائدة بحيث لا تسمح لها بالحياة. ولكن هذا لا يحتم - أن يكون بعضها (متطوراً) من بعض - وحفريات دارون وما بعدها لا تستطيع أن تثبت أكثر من هذا.. لا تستطيع أن تثبت - في يقين مقطوع به - أن هذا النوع تطور تطوراً عضوياً من النوع الذي قبله من الناحية الزمنية - وفق شهادة الطبقة الصخرية التي يوجد فيها - ولكنها فقط تثبت أن هناك نوعاً أرقى من النوع الذي قبله زمنياً.. وهذا يمكن تعليله كما قلنا.. بأن الظروف السائدة في الأرض كانت تسمح بوجود هذا النوع. فلما تغيرت صارت صالحة لنشأة نوعٍ آخر فنشأ، ومساعدة على

انقراض النوع الذي كان عائشاً من قبل في الظروف الأخرى فانقرض.

وعندئذ تكون نشأة النوع الإنساني نشأة مستقلة، في الزمن الذي علم الله أن ظروف الأرض تسمح بالحياة والنمو والترقي لهذا النوع، وهذا ما ترجحه مجموعة النصوص القرآنية في نشأة البشرية. وتفرد (الإنسان) من الناحية البيولوجية والفسيولوجية والعقلية والروحية. هذا التفرد الذي اضطر الداروينيون المحدثون - وفيهم الملحدون بالله كلية - للاعتراف به، دليل مرجح على تفرد النشأة البشرية، وعدم تداخلها مع الأنواع الأخرى في تطور عضوي.

على أية حال لقد أعلن الله بذاته العلية الجليلة ميلاد هذا الكائن الإنساني، في حفل حافل من الملأ الأعلى:

﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم. فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين..﴾.

والملائكة خلق آخر من خلق الله لهم خصائصهم ووظائفهم، لا نعلم عنهم إلا ما أنبأنا الله من أخبارهم، وكذلك إبليس فهو خلق غير الملائكة، لقوله تعالى:

﴿إنَ إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾.

والجن خلق غير الملائكة لا نعلم عنه كذلك إلاّ ما أنبأنا الله من أمره - وسيأتي في هذه السورة أن إبليس خلق من نار. فهو غير الملائكة قطعاً. وإن كان قد أمر بالسجود لآدم في زمرة الملائكة في ذلك الحفل العظيم الذي أعلن فيه الملك الجليل، ميلاد هذا الكائن الفريد..

فأما الملائكة - وهم الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فقد سجدوا مطيعين منفذين لأمر الله، لا يترددون ولا يستكبرون ولا يفكرون في معصية لأي سبب ولأي تصور ولأي تفكير، هذه طبيعتهم، وهذه خصائصهم؛ وهذه وظائفهم.. وإلى هنا تتمثل كرامة هذا الكائن الإنساني على

الله كما تتمثل الطاعة المطلقة في ذلك الخلق المسمى بالملائكة من عباد الله.

وأما إبليس فقد امتنع عن تنفيذ أمر الله ـ سبحانه ـ وعصاه. وسنعلم: ما الذي حاك في صدره، وما التصور الذي سيطر عليه فمنعه من طاعة ربه، وهو يعرف أنه ربه وخالقه، ومالك أمره وأمر الوجود كله، لا يشك في شيء من هذا كله.

وكذلك نجد في المشهد ثلاثة نماذج من خلق الله: نموذج الطاعة المطلقة والتسليم العميق، ونموذج العصيان المطلق والاستكبار المقيت.. وطبيعة ثالثة هي الطبيعة البشرية. وسنعلم خصائصها وصفاتها المزدوجة فيما سيجيء. فأما الطبيعة الأولى فهي خالصة لله، وقد انتهى دورها في هذا الموقف بهذا التسليم المطلق. وأما الطبيعتان الأخريان فسنعرف كيف تتجهان.

﴿قال: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك؟. قال: أنا خير منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين﴾.

لقد جعل إبليس له رأياً مع النص، وجعل لنفسه حقاً في أن يحكم نفسه وفق ما يرى هو من سبب وعلة. مع وجود الأمر.. وحين يوجد النص القاطع والأمر الجازم ينقطع النظر، ويبطل التفكر، وتتعين الطاعة ويتحتم التنفيذ.. وهذا إبليس ـ لعنه الله ـ لم يكن ينقصه أن يعلم أن الله هو الخالق المالك الرازق المدبر الذي لا يقع في هذا الوجود شيء إلا بإذنه وقدره... ولكنه لم يطع الأمر كما صدر إليه ولم ينفذه بمنطق من عند نفسه:

﴿قال: أنا خير منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين﴾.

فكان الجزاء العاجل الذي تلقاه لتوه:

﴿قال: فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين﴾.

إن علمه بالله لم ينفعه، واعتقاده بوجوده وصفاته لم ينفعه.. وكذلك كل من يتلقى أمر الله، ثم يجعل لنفسه نظراً في هذا الأمر يترتب عليه قبوله أو رفضه؛ وحاكمية في قضية قضى الله فيها من قبل؛ يرد بها قضاء الله في هذه القضية.. إنه الكفر إذن مع العلم ومع الاعتقاد. فإبليس لم يكن ينقصه العلم، ولم يكن ينقصه الاعتقاد!

لقد طرد من الجنة، وطرد من رحمة الله، وحقت عليه اللعنة، وكتب عليه الصغار.

ولكن الشرير العنيد لا ينسى أن آدم هو سبب الطرد والغضب، ولا يستسلم لمصيره البائس دون أن ينتقم. ثم ليؤدي وظيفته وفق طبيعة الشر التي تمحضت فيه:

﴿ قال: انظرني إلى يوم يبعثون. قال: إنك من المنظرين. قال: فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينَّهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾. فهو الإصرار المطلق على الشر، والتصميم المطلق على الغواية.. وبذلك تتكشف هذه الطبيعة عن خصائصها الأولى، شر ليس عارضاً ولا وقتياً، إنما هو الشر الأصيل العامد القاصد العنيد...

ثم هو التصوير المشخص للمعاني العقلية والحركات النفسية، في مشاهد شاخصة حية.

لقد سأل إبليس ربه أن ينظره إلى يوم البعث، وهو يعلم أن هذا الذي يطلبه لا يقع إلا بإرادة الله وقدره. ولقد أجابه الله إلى طلبه في الإنظار، ولكن إلى (يوم الوقت المعلوم) كما جاء في السورة الأخرى وقد وردت الروايات: أنه يوم النفخة الأولى التي يصعق فيها من في السماوات والأرض

إلا من شاء الله ـ لا يوم يبعثون..

وهنا يعلن إبليس في تبجح خبيث ـ وقد حصل على قضاء بالبقاء الطويل ـ أنه سيرد على تقدير الله له الغواية وإنزالها به، بسبب معصيته وتبجحه، بأن يغوي ذلك المخلوق الذي كرَّمه الله، والذي بسببه كانت مأساة إبليس ولعنه وطرده! ويجسم هذا الاغواء بقوله الذي حكاه القرآن عنه:

﴿... لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾ إنه سيقعد لآدم وذريته على صراط الله المستقيم، يصد كل من يهم منهم باختياره ـ والطريق إلى الله لا يمكن أن يكون حساً. فالله سبحانه جلَّ عن التحيز، فهو إذن طريق الإيمان والطاعات المؤدي إلى رضى الله، وإنه سيأتي من كل جهة: «من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم» للحيلولة بينهم وبين الإيمان والطاعة.. وهو مشهد شاخص متحرك لإطباق إبليس على البشر في محاولته الدائبة لإغوائهم فلا يعرفون الله ولا يشكرونه، اللهم إلا القليل الذي يفلت ويستجيب:

﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾.

ويجيء ذكر الشكر، تنسيقاً مع ما سبق في مطلع السورة: (قليلاً ما تشكرون).. لبيان السبب في قلة الشكر، وكشف الدافع الحقيقي الخفي، من حيلولة إبليس دونه، وقعوده إلى الطريق إليه! ليستيقظ البشر للعدو الكامن الذي يدفعهم إلى الهدى، وليأخذوا حذرهم حين يعرفون من أين هذه الآفة التي لا تجعل أكثرهم شاكرين!

لقد أُجيب إبليس إلى ملتمسه، لأن مشيئة الله ـ سبحانه ـ اقتضت أن يترك الكائن البشري يشق طريقه، بما ركب في فطرته من استعداد للخير والشر، وبما وهبه من عقل مرجح، وبما أمده من التذكير والتحذير على أيدي

الرسل، ومن الضبط والتقويم بهذا الدين. كما اقتضت أن يتلقى الهداية والغواية، وأن يصطرع في كيانه الخير والشر؛ وأن ينتهي إلى إحدى النهايتين، فتحق عليه سنة الله، وتتحقق مشيئته بالابتلاء، سواءً اهتدى أو ضل، فعلى سنة الله الجارية وفق مشيئته الطليقة، تحقق الهدى أو الضلال ولكن السياق هنا لا يصرح بترخيص الله - سبحانه - لإبليس - عليه اللعنة - في إيعاده هذا الأخير، كما صرح بإجابته في إنظاره. إنما يسكت عنه، ويعلن طرد إبليس طرداً لا معقب عليه، طرده مذموماً مقهوراً، وإيعاده بملء جهنم منه وممن يتبعه من البشر ويضل معه:

﴿قال اخرج منها مذؤوماً مدحوراً، لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾.

ومن يتبعه من البشر قد يتبعه في معرفته بالله واعتقاده بألوهيته، ثم في رفض حاكمية الله وقضائه، وادعاء أن له الحق في إعادة النظر في أوامر الله، وفي تحكيم منطقه هو في تنفيذها أو عدم تنفيذها.. كما إنه قد يتبعه ليضله عن الاهتداء إلى الله أصلاً. وهذا وذلك كلاهما اتباع للشيطان، جزاؤه جهنم مع الشيطان.

لقد جعل الله - سبحانه - لإبليس وقبيله فرصة الإغواء. وجعل لآدم وذريته فرصة الاختيار تحقيقاً للابتلاء، الذي قضت مشيئته أن تأخذ به هذا الكائن، وتجعله به خلقاً متفرداً في خصائصه، لا هو ملك ولا هو شيطان. لأن له دوراً آخر في هذا الكون، ليس هو دور الملك ولا هو دور الشيطان.

وينتهي هذا المشهد، ليتلوه مشهد آخر في السياق:

ينظر الله - سبحانه - بعد طرد إبليس من الجنة هذه الطردة - إلى آدم وزوجه.. وهنا فقط نعرف أن له زوجاً من جنسه، لا ندري كيف جاءت.

فالنص الذي معنا وأمثاله في القرآن الكريم لا تتحدث عن هذا الغيب بشيء ، وكل الروايات التي جاءت عن خلقها مشوبة بالاسرائيليات[1] لا نملك أن نعتمد عليها . والذي يمكن الجزم به هو فحسب أن الله خلق له زوجاً من جنسه . فصارا زوجين اثنين ، والسنة التي نعلمها عن كل خلق الله هي الزوجية ،﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ . فهي سنة جارية ، وهي قاعدة في كل خلق الله أصيلة . وإذا سرنا مع هذه النسبة . فإن لنا أن نرجح أن خلق حواء لم يمكث طويلاً بعد خلق آدم ، وأنه تم على نفس الطريقة[2] التي تم بها خلق آدم .

على أية حال يتجه الخطاب إلى آدم وزوجه ليعهد إليهما ربهما بأمره في حياتهما ، ولتبدأ تربيته لهما وإعدادهما لدورهما الأساسي ، الذي خلق الله له هذا الكائن ، وهو دور الخلافة في الأرض ـ كما صرح بذلك في سورة البقرة ﴿وإذ قال ربك إني جاعل في الأرض خليفة﴾ .

(١) لعل الامام الشهيد سيّد قطب لم يتح له أن يحقق في هذا الموضوع . فالثابت في الأحاديث الصحيحة أن المرأة خلقت من ضلع . كما روى البخاري وابن ماجة والامام أحمد والدارمي عن رسول الله ـ ﷺ ، ورواية البخاري (عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهم خلقن من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه . . .

(٢) يقول الله تعالى في أول سورة النساء : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً . فاتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾ . والآية تعني أن خلق آدم قد تم على غير الطريقة التي تم فيها خلق زوجه . فآدم عليه السلام خلقه الله تعالى من الطين وزوجه خلقها الله من نفس آدم (وخلق منها زوجها) . وهذا ما يؤكده سيد رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية : والحقيقة الأخرى التي تتضمنها الاشارة إلى أنه من النفس الواحدة (وخلق منها زوجها) . كانت كفيلة ـ لو أدركتها البشرية أن توفر عليها تلك الأخطاء الأليمة التي تردت فيها ، وهي تتصور في المرأة شتى التصورات السخيفة ، وتراها منبع الرجس والنجاسة ، وأصل الشر والبلاء ، وهي من النفس الأولى فطرة وطبعاً خلقها الله لتكون لها زوجاً ﴿وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً﴾ . سورة النساء ـ ص : ٥٧٤ ـ دار الشروق

﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ .ويسكت القرآن عن تحديد هذه الشجرة لأن تحديد جنسها لا يزيد شيئاً في حكمة حظرها ، مما يرجح أن الحظر في ذاته هو المقصود . . لقد أذن الله لهما بالمتاع الحلال ، ووصاهما بالامتناع عن المحظور ولا بد من محظور يتعلم منه هذا الجنس أن يقف عند حد ، وأن يدرب المركوز في طبعه من الإرادة التي يضبط بها رغباته وشهواته ، ويستعلي بها على هذه الرغبات والشهوات ، فيظل حاكماً لها لا محكوماً بها كالحيوان ، فهذه هي خاصية الإنسان التي يفترق بها عن الحيوان ، ويتحقق بها فيه معنى الإنسان .

والآن يبدأ إبليس يؤدي دوره الذي تمحض له . .

إن هذا الكائن المتفرد الذي كرمه الله كل هذا التكريم ؛ والذي أعلن ميلاده في الملأ الأعلى في ذلك الحفل المهيب ؛ والذي أسجد له الملائكة فسجدوا ؛ والذي أخرج بسببه إبليس من الجنة ، وطرده من الملأ الأعلى . . إن هذا الكائن مزدوج الطبيعة ، مستعد للاتجاهين على السواء . وفيه نقط ضعف معينة يقاد منها ـ ما لم يلتزم بأمر الله ـ ومن هذه النقط تمكن إصابته ، ويمكن الدخول إليه . . إن له شهوات معينة . . ومن شهواته يمكن أن يقاد!

وراح إبليس يداعب هذه الشهوات :

﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري من سوآتهما ، وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين .﴾ .

ووسوسة الشيطان لا ندري نحن كيف تتم ؛ لأننا لا ندري كنه الشيطان حتى ندرك كيفيات أفعاله ، وكذا اتصاله بالإنسان وكيفية إغوائه . ولكننا نعلم ـ بالخبر الصادق وهو وحده المصدر المعتمد عندنا عن هذا الغيب ـ أن إغواءً على

الشر يقع في صورة من الصور ، وإيحاءً بارتكاب المحظور يتم في هيئة من الهيئات ، وأن هذا الايحاء وذلك الإغواء يعتمدان على نقط الضعف الفطرية في الإنسان ، وأن هذا الضعف يمكن اتقاؤه بالإيمان والذكر ، حتى ما يكون للشيطان سلطان على المؤمن الذاكر ؛ وما يكون لكيده الضعيف حينئذٍ من تأثير . .

وهكذا وسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما . . فهذا كان هدفه . . لقد كانت لهما سوآت ، ولكنها كانت مواراة عنهما لا يريانها ـ وسنعلم من السياق أنها سوآت حسية جسدية تحتاج إلى تغطية مادية ، فكأنها عوراتهما ـ ولكنه لم يكشف لهما هدفه بطبيعة الحال! إنما جاءهما من ناحية رغائبهما العميقة :

﴿ قال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . ﴾ .

بذلك داعب رغائب ـ الإنسان ـ الكامنة . . إنه يحب أن يكون خالداً لا يموت ، أو معمراً أجلاً طويلاً كالخلود! ويحب أن يكون له ملك غير محدد بالعمر القصير المحدد .

وفي قراءة : « ملكين » بكسر اللام . وهذه القراءة يعضدها النص الآخر في سورة طه . ﴿هل أدلكما على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ . . وعلى هذه القراءة يكون الإغراء بالملك الخالد والعمر الخالد هما أقوى شهوتين في الإنسان بحيث يمكن أن يقال : إن الشهوة الجنسية ذاتها إن هي إلا وسيلة لتحقيق شهوة الخلود بالامتداد في النسل جيلاً بعد جيل ـ وعلى قراءة « مَلَكين » بفتح اللام يكون الإغراء بالخلاص من قيود الجسد كالملائكة مع الخلود . . ولكن القراءة الأولى ـ وإن لم تكن هي المشهورة ـ أكثر اتفاقاً مع النص القرآني الآخر ، ومع اتجاه

الكيد الشيطاني وفق شهوات الإنسان الأصيلة.

ولما كان اللعين يعلم أن الله نهاهما عن هذه الشجرة، وأن هذا النهي له ثقله في نفوسهما وقوته فقد استعان على زعزعته - إلى جانب مداعبة شهواتهما - بتأمينهما من هذه الناحية؛ فحلف لهما بالله إنه لهما ناصح، وفي نصحه صادق.

﴿ وقاسمهما: إني لكما لمن الناصحين. ﴾.

ونسي آدم وزوجه - تحت تأثير الشهوة الدافعة والقسم المخدر - أنه عدوهما الذي لا يمكن أن يدلهما على خير! وأن الله أمرهما أمراً عليهما طاعته سواءً عرفا علته أم لم يعرفاها! وأنه لا يكون شيء إلا بقدرٍ من الله، فإذا كان لم يقدر لهما الخلود والملك الذي لا يبلى فلن ينالاه!

نسيا هذا كله، واندفعا يستجيبان للإغراء!

﴿فدلاّهما بغرور. فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين؟. ﴾.

لقد تمت الخدعة وآتت ثمرتها المرة. لقد أنزلهما الشيطان بهذا الغرور من طاعة الله إلى معصيته، فأنزلهما إلى مرتبة دنيا:

فدلاهما بغرور.

ولقد شعرا الآن أن لهما سوآت، تكشفت لهما بعد أن كانت مواراة عنهما. فراحا يجمعان من ورق الجنة، ويشبكانه بعضه في بعض «يخصفان» ويضعان هذا الورق المشبك على- سوآتهما - مما يوحي بأنها العورات الجسدية التي يخجل الإنسان فطرة من تعريها، ولا يتعرى ولا يتكشف إلا بفساد في هذه الفطرة من صنع الجاهلية!

«وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة، وأقل لكما: إن الشيطان

لكما عدو مبين؟ . » .

وسمعا هذا العقاب والتأنيب من ربهما على المعصية وعلى إغفال النصيحة . . أما كيف كان النداء وكيف سمعاه ، فهو كما خاطبهما أول مرة . وكما خاطب الملائكة وكما خاطب إبليس ، كلها غيب لا ندري عنه إلا أنه وقع ، وأن الله يفعل ما يشاء .

وأمام النداء العلوي ينكشف الجانب الآخر في طبيعة هذا الكائن المتفرد . . إنه ينسى ويخطىء . إن فيه ضعفاً يدخل منه الشيطان . إنه لا يلتزم دائماً ولا يستقيم دائماً ، ولكنه يدرك خطأه ، ويعرف زلته ؛ ويندم ويطلب العون من ربه والمغفرة . . إنه يثوب ويتوب ؛ ولا يلح كالشيطان في المعصية ، ولا يكون طلبه من ربه هو العون على المعصية!

« قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونَنَّ من الخاسرين » . .

إنها خصيصة الإنسان الذي تصله بربه ، وتفتح له الأبواب إليه . . الاعتراف ، والندم ، والاستغفار ، والشعور بالضعف ، والإستعانة به وطلب رحمته مع اليقين بأنه لا حول له ولا قوة إلا بعون الله ورحمته . . وإلا كان من الخاسرين .

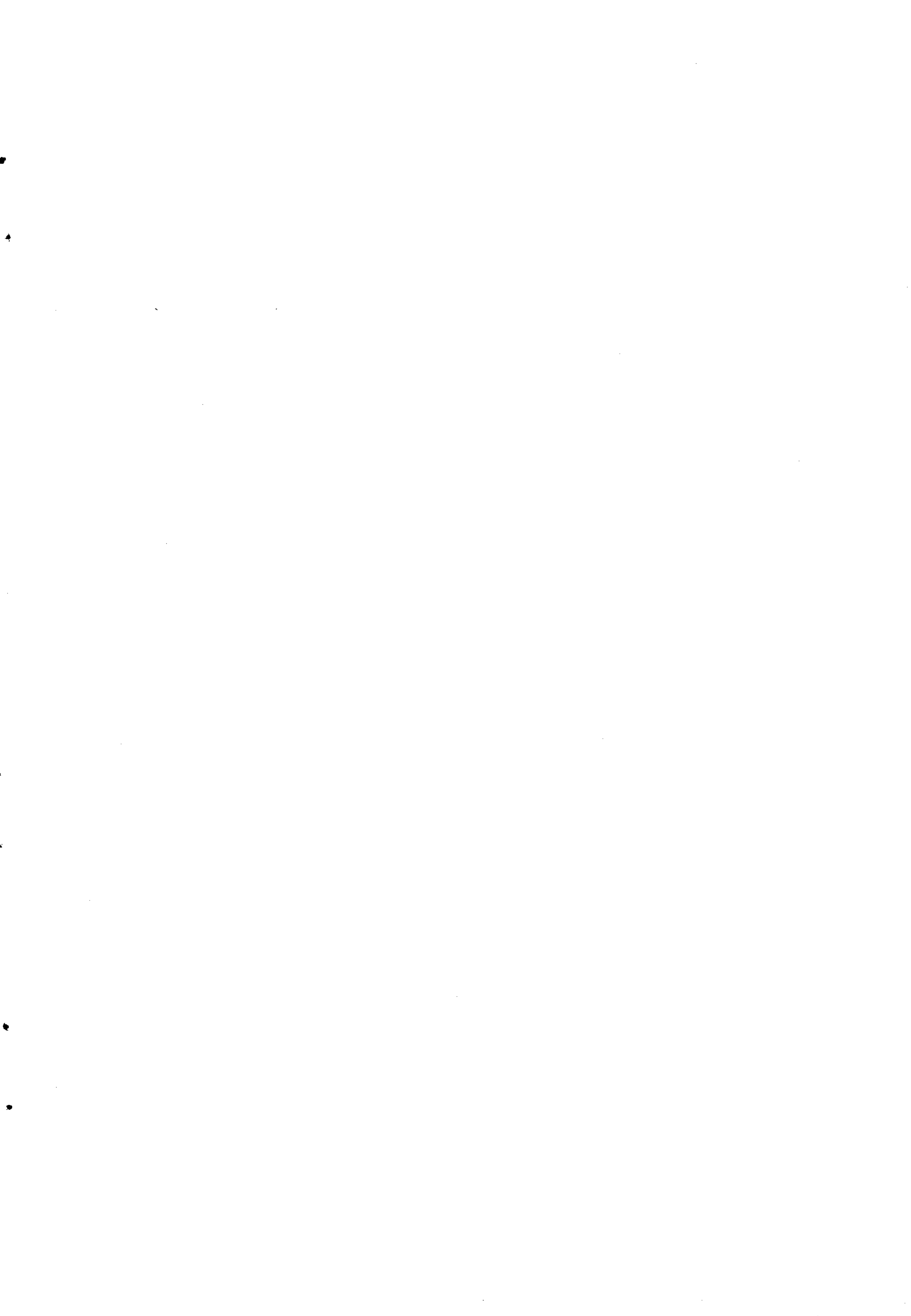
وهنا تكون التجربة الأولى قد تمت ، وتكشفت خصائص الإنسان الكبرى ، وعرفها هو وذاقها ، واستعد بهذا التنبيه لخصائصه الكامنة ، لمزاولة اختصاصه في الخلافة ؛ وللدخول في المعركة التي لا تهدأ أبداً مع عدوه . . .

« قال : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال : فيها تحيون وفيها تموتون ، ومنها تخرجون . » .

وهبطوا جميعاً ، هبطوا إلى هذه الأرض . . ولكن أين كانوا؟ أين هي

الجنة؟ .. هذا من الغيب الذي ليس عندنا من نبأ عنه إلا ما أخبرنا به من عنده مفاتح الغيب وحده .. وكل محاولة لمعرفة هذا الغيب بعد انقطاع الوحي هي محاولة فاشلة، وكل تكذيب كذلك يعتمد على مألوفات البشر اليوم و(علمهم) الظني هو تبجح فهذا (العلم) يتجاوز مجاله حين يحاول الخوض في هذا الغيب بغير أداة عنده ولا وسيلة، ويتبجح حين ينفي الغيب كله، والغيب محيط به من كل جانب، والمجهول في (المادة) التي هي مجاله أكثر كثيراً من المعلومات!.

لقد هبطوا جميعاً إلى الأرض... آدم وزوجه، وإبليس وقبيله. هبطوا ليصارع بعضهم بعضاً، وليعادي بعضهم بعضاً، ولتدور المعركة بين طبيعتين وخليقتين: إحداهما ممحضة للشر، والأخرى مزدوجة الاستعداد للخير والشر، وليتم الابتلاء ويجري قدر الله بما شاء. وكتب على آدم وذريته أن يستقروا في الأرض، ويمكثوا فيها، ويستمتعوا بما فيها إلى حين، وكتب عليهم أن يحيوا فيها ويموتوا، ثم يخرجوا منها فيبعثوا .. ليعودوا إلى ربهم فيدخلهم جنته أو ناره في نهاية الرحلة الكبرى .. وانتهت الجولة الأولى لتتبعها جولات وجولات، ينتصر فيها الإنسان ما عاذ بربه. وينهزم فيها ما تولى عدوه.



الفصل الثاني

حول ميلاد الإنسان

وبعد فإنها ليست قصة! إنما هي عرض لحقيقة الإنسان لتعريفه بحقيقة طبيعته ونشأته، والعوالم المحيطة به، والقدر الذي يصرف حياته، والمنهج الذي يرضاه الله له، والإبتلاء الذي يصادفه، والمصير الذي ينتظره.. وكلها حقائق تشارك في تقرير « مقومات التصور الإسلامي ». وسنحاول أن نلم بقدر ما يسمح منهج الظلال، ونبقي تفصيلاتها للبحث المتخصص عن « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ».

وإن الحقيقة الأولى التي نستلهمها من قصة النشأة الإنسانية، هي - كما قلنا من قبل - التوافق بين طبيعة الكون ونشأة الكائن الإنساني، والتقدير الإلهي المحيط بالكون والإنسان والذي يجعل هذه النشأة قدراً مرسوماً لا فلتة عارضة، كما تجعل التوافق بينهما هو القاعدة.

والذين لا يعرفون الله - سبحانه - ولا يقدرونه حق قدره، يقيسون أقداره وأفعاله بمقاييسهم البشرية الصغيرة. فإذا نظروا الكائن الإنساني مخلوقاً من مخلوقات هذه الأرض، ووجدوا هذه الأرض ذرة صغيرة كالهباءة في خضم الكون. قالوا: إنه ليس من - المعقول - وراء نشأة هذا الإنسان قصد؛ فوق أن

يكون لهذا الإنسان شأن في نظام الكون! وزعم بعضهم أن وجوده كان فلتة، وأن الكون من حوله معادٍ لنشأته ونشأة الحياة جملة.. وإن هي إلا تخرصات منشؤها قياس أقدار الله وأفعاله بمقاييس البشر الصغيرة!

وحقاً لو كان الإنسان هو الذي له هذا الملك الهائل ما عني بهذه الأرض، ولا بمثل هذا الكائن يدب عليها! وإن اهتمام الإنسان لا يتسع للعناية بكل شيء في هذا الملك الهائل، ولا بتقدير كل شيء وتدبيره، والتنسيق بين جميع الأهداف فيه.. غير أن الله ـ سبحانه ـ هو الله! هو الذي لا يغرب عنه علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض. هو صاحب هذا الملك الكبير الذي لا يقوم شيء منه إلا برعايته، كما أنه لم يوجد منه شيء إلا بمشيئته.. إنما آفة هذا الإنسان، حين ينحرف عن هدى الله ويستقل بهواه ـ ولو كان يسميه علماً ـ أن ينسى أنه الله، ويتصوره ـ سبحانه ـ على هواه! ويقيس أقداره وأفعاله بمقاييس الإنسان الصغيرة! ثم يتبجح فيملي هواه هذا على الحقيقة.

يقول سير. جيمس جينز ـ كمثل على التصورات البشرية الضالة الكثيرة في كتاب ـ الكون الغامض ـ.

«نحن إذ نقف على أرضنا ـ تلك الحبيبة الرملية المتناهية في الصغر ـ نحاول أن نكشف عن طبيعة الكون الذي يحيط بموطننا في الفضاء والزمن، وعن الغرض من وجوده، نحس في أول الأمر بما يشبه الذعر والهلع، وكيف لا يكون الكون مخيفاً ومرعباً، وهذه أبعاده هائلة لا تستطيع عقولنا إدراك مداها؟ وقد مرت عليه أحقاب طويلة لا يمكن تصورها؟ ويتضاءل إلى جانبها تاريخ الإنسان حتى يبدو وكأنه لمح البصر؟ وهو مخيف مرعب لما نشعر به من وحدة مرهوبة، وما نعلمه من ضآلة موطننا في الفضاء. ذلك الموطن الذي لا يزيد على جزء من مليون جزء من إحدى حبيبات الرمال التي في بحار العالم! ـ ولكن أخوف ما يخاف العالم من أجله: أنه لا يعنى ـ كما

يلوح - بحياة مثل حياتنا ، وكأن عواطفنا ومطامعنا وأعمالنا وفنوننا وأدياننا كلها غريبة عن نظامه وخطته. وقد يكونْ من الحق أن نقول: إن بينه وبين حياة كحياتنا عداءً قوياً. ذلك أن الكون في بعض أجزائه بارد إلى حد تتجمد فيه كل أنواع الحياة. كما أن أكثر المادة التي في الفضاء تبلغ من الحرارة حداً يجعل الحياة فيه مستحيلة؛ وأن الفضاء تذرعه إشعاعات مختلفة الأنواع ، لا تنفك تصدم ما فيه من أجرام فلكية؛ وقد يكون كثير من هذه الإشعاعات معادياً للحياة أو مبيداً لها.

هذا هو الكون الذي ألقت بنا فيه الظروف. وإذا لم يكن حقاً أن ظهورنا حدث بسبب غلطة وقعت فيه ، فلا أقل من أن يكون نتيجة لما يصح أن يوصف بحق أنه مصادفة! ».

وقد بيَّنا من قبل أن افتراض عداء الكون لنشأة الحياة مع افتراض عدم وجود تقدير وتدبير من قوة مهيمنة.. ثم وجود الحياة بعد ذلك فعلاً.. أمور لا يتصورها عقل عاقل! فضلاً عن أن يكون عقل عالم! وإلا فكيف أمكن ظهور الحياة في الكون المعادي لها مع افتراض عدم وجود قوة مهيمنة مقدرة! هل الحياة أقوى من الكون بحيث تظهر رغم أنفه؟! ورغم عدائه لها بطبيعة تكوينه؟! هل هذا الكائن الإنساني مثلاً - قبل أن ينشأ - أقوى من هذا الكون الموجود فعلاً ، ومن ثم طلع هكذا في الكون ، وأنف الكون راغم؟!

إنها تصورات لا تستحق عناء النظر! ولو أن هؤلاء (العلماء) يكتفون بأن يقولوا لنا فقط ما تصل إليه وسائلهم من وصف الموجودات ، دون أن يدخلوا في أمثال هذه التخرصات (الميتافيزيقية) التي لا تستند على أساس لأدوا دورهم - ولو ناقصاً - في تعريف الناس بالكون من حولهم! ولكنهم يتجاوزون دائرة المعرفة المأمونة إلى تيه الفروض والظنون ، بلا دليل إلا الهوى الإنساني الصغير!

ونحن ـ بحمد الله وهداه ـ ننظر إلى هذا الكون الهائل فلا نشعر بالذعر والهلع الذي يقول عنه ـ سير جيمس جينز ـ! إنما نشعر بالرهبة والجلال لبارىء هذا الكون، ونشعر بالعظمة والجمال المتجليين في خلقه، ونشعر بالطمأنينة والأنس، لهذا الكون الصديق، الذي أنشأه الله وأنشأنا فيه عن توافق وتنسيق.. وتروعنا ضخامته كما تروعنا دقته؛ ولكننا لا نفزع ولا نجزع، ولا نشعر بالضياع، ولا نتوقع الهلاك.. فإن ربنا وربه الله.. ونتعامل معه في يسر ومودة وأنس وثقة؛ ونتوقع أن نجد فيه أرزاقنا وأقواتنا ومعايشنا ومتاعنا.. ونرجو أن نكون من الشاكرين!

(ولقد مكنّاكم في الأرض، وجعلنا لكم فيها معايش. قليلاً ما تشكرون).

والحقيقة الثانية المستلهمة من قصة النشأة الإنسانية: هي كرامة هذا الكائن الفريد في العوالم الحية، وضخامة دوره المنوط به، وسعة الآفاق والمجالات التي يتحرك فيها، وتنوع العوامل التي يتعامل معها ـ في حدود عبوديته لله وحده ـ مما يتناقض مع المذاهب الحسية الوضعية المادية التي تهدر قيمته كعامل أساسي مؤثر في الكون، حيث تسند الأهمية كلها للمادة، وتأثيراتها الحتمية، ومع مذهب النشوء والارتقاء الذي يلحقه بعالم الحيوان، ولا يكاد يحفل بخصائصه الإنسانية المتميزة، أو مذهب التحليل النفسي الفرويدي الذي يصوره غارقاً في وحل الجنس حتى ما يتسامى إلا عن طريق هذا الوحل نفسه! إلا أن هذه الكرامة لهذا الكائن الفريد، لا تجعل من الإنسان إلهاً كما تحاول فلسفات عهد التنوير أن تقول إنما هو الحق والاعتدال في التصور الإسلامي السليم.

لقد أعلن ميلاد هذا الكائن المنفرد، الذي نرجح من مجموعة النصوص القرآنية ـ ولا نجزم ـ أن نشأته كانت مستقلة، أعلن هذا الميلاد في حفل كوني كان شهوده الملأ الأعلى. وأعلن ميلاده الجليل العظيم في هذا الملأ وفي الوجود

كله.. وفي الآية الأخرى من سورة البقرة أنه أعلن كذلك خلافته في الأرض منذ خلقه، وكان الابتلاء الأول له في الجنة تمهيداً وإعداداً لهذه الخلافة. وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه.

وكذلك تظهر ضخامة الدور الذي أعطاه بارئه له، فإن عمارة كوكب وسيادته بخلافة الله فيه ـ أياً كان حجم هذا الكوكب ـ إنها لأمر عظيم!

والذي يتضح من القصة ومن مجموعة النصوص القرآنية أنه كذلك خلق متفرد لا في الأرض وحدها، ولكن في الكون كله. فالعوالم الأخرى من ملائكة وجن وما لا يعلمه إلا الله من الخلق؛ لها وظائف أخرى، كما أنها خلقت من طبائع أخرى تناسب هذه الوظائف، وتفرد الإنسان وحده بخصائصه هذه ووظائفه. يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان، إنه كان ظلوماً جهولا..﴾ وإذن فهو متفرد في الكون كله بخصائص.. ومنها الظلم والجهل! إلى جانب الاختيار النسبي والاستعداد للمعرفة المترقية، والإرادة الذاتية، والمقدرة على العدل والعلم، بقدر المقدرة على الظلم والجهل!. فهذا الازدواج ذاته هو ميزته التي تفرده.

كل أولئك يلغي تلك النظرة للإنسان القائمة على صغر حجم الكوكب الذي يعيش عليه، بالقياس إلى أحجام الكون الهائلة. فالحجم ليس هو كل شيء. وخصيصة العقل القابل للمعرفة، والإرادة القابلة للاستقلال ـ في حدود العبودية لله ـ والاختيار والترجيح الذاتي.. كل أولئك يفوق في قيمته، الحجم الذي يقيم عليه سير جيمس جينز وأمثاله نظرتهم إلى قيمة الإنسان ودوره.

هذه الأهمية التي تخلعها القصة ومجموع النصوص القرآنية على هذا الكائن الإنساني لا تقتصر على دوره في خلافة الأرض، بهذه الخصائص المتفردة، ولكن

صورتها تكمل بتأمل الآفاق والمجالات التي يتحرك فيها، والعوالم التي يتعامل معها.

إنه يتعامل تعاملاً مباشراً مع ربه الجليل سبحانه! هو الذي أنشأه بيده، وأعلن ميلاده في الملأ الأعلى وفي الوجود كله بنطقه، وخوَّله الجنة يأكل منها حيث يشاء، إلا الشجرة المحظورة - ثم خوَّله خلافة الأرض بعد ذلك بأمره، وعلمه أساس المعرفة - كما في آية البقرة (وعلم آدم الأسماء كلها) وهو ما نرجح أنه القدرة على الرمز باللفظ والاسم للمدلول والمسمى. وهو القاعدة الذي يقوم عليها إمكان تبادل المعرفة وتعميمها في الجنس كله - كما قلنا في سورة البقرة - وأوصاه وصيته في الجنةوبعدها ،وأودعه الاستعدادات الخاصة التي تفرد جنسه بخصائصه، وأرسل له الرسل - منه - لهداه وكتب على نفسه الرحمة أن يقيل عثرته ويقبل توبته.. إلى آخر نعم الله على هذا الكائن المتفرد في الكون كله.

ثم هو يتعامل مع الملأ الأعلى.. أسجد له ملائكته، وجعل منهم حفظة عليه، كما جعل منهم من يبلغ الرسل وحيه، وأنزلهم على الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا يثبتونهم ويبشرونهم، وعلى المجاهدين في سبيل الله ينصرونهم ويبشرونهم كذلك، وسلطهم على الذين كفروا يقتلونهم ويستلون أرواحهم منهم في تأنيب وتعذيب إلى آخر ما بين الملائكة والإنسان من تعامل في الدنيا والآخرة كذلك.

ويتعامل مع الجن: صالحيهم وشياطينهم.. وقد شهدنا منذ لحظات تشخيص المعركة الأولى بينه وبين الشيطان وهي معركة ممتدة إلى يوم الوقت المعلوم. كما أن تعامله مع صالحي الجن مذكور في نصوص أخرى قرآنية. وتسخير الجن أحياناً له ثابت في قصة سليمان عليه السلام.

كذلك هو يتعامل مع هذا الكون المادي - وبخاصة الأرض والكواكب

والنجوم القريبة منها - وهو الخليفة في هذه الأرض عن الله[1]؛ المسخرة له قواها وطاقاتها وأرزاقها ومدخراتها، وعنده الاستعداد اللدني لفتح بعض مغاليق أسرارها، والتعرف إلى بعض نواميسها التي تعينه معرفتها على أداء دوره العظيم.. ومن ثم يتعامل كذلك مع جميع الأحياء فيها.. وأخيراً فإنه بازدواج طبيعته واستعداداته يتحرك في مجال بعيد الآماد من نفسه ذاتها! إنه يعرج إلى السماوات العلى ويتجاوز مراتب الملائكة، حين يخلص عبوديته لله، ويترقى فيها إلى منتهاها. كما أنه يهبط إلى ما دون مستوى البهيمة حين يتخذ إلهه هواه، ويتخلى عن خصائص (إنسانيته) ويتمرغ في الوحل الحيواني.. وبين هذين المجالين أبعاد أضخم مما بين السماوات والأرض في عالم الحس وأبعد مدى!

وليس هذا كله لغير الإنسان كما تلهمه هذه القصة وبقية النصوص الأخرى.

والحقيقة الثالثة: أن هذا الكائن - على كل تفرده هذا أو بسبب تفرده هذا - ضعيف في بعض جوانب تكوينه، حتى ليمكن قيادته إلى الشر، والارتكاس إلى الدرك الأسفل، من حطام شهواته.. وفي أوله ضعفه تجاه حب البقاء، وضعفه تجاه حب الملك - وهو يكون في أشد حالات ضعفه وأدناها حين يبعد عن هدى الله، ويستسلم لهواه، أو يستسلم لعدوه العنيد الذي أخذ على عاتقه إغواءه، في جهد ناصب، لا يكل ولا يدع وسيلة من الوسائل!

وقد اقتضت رحمة الله به - من ثم - ألا يتركه لفطرته وحدها، ولا لعقله وحده، وأن يرسل إليه الرسل للإنذار والتذكير - كما سيجيء في آية تالية في معرض التعقيب على القصة - وهذه هي صخرة النجاة بالنسبة له.. النجاة من

(١) أي خليفة عن الله تعالى في إقامة شرعه ودلائل توحيده والحكم في خلقه وهذا قول ابن مسعود ومجاهد كما في «زاد المسير لعلم التفسير» لابن الجوزي.

شهواته بالتخلص من هواه والفرار إلى الله. والنجاة من عدوه الذي يخنس ويتوارى عند ذكره لربه، وتذكر رحمته وغضبه، وثوابه وعقابه. وهذه كلها مقويات لإرادته، حتى يستعلي على ضعفه وشهوته.. وقد كان أول تدريب له في الجنة هو فرض (المحظور) عليه لتقوية هذه الإرادة. وإبرازها في مواجهة الاغراء والضعف. وإذا كان قد فشل في التجربة الأولى، فقد كانت هذه التجربة رصيداً له فيما سيأتي. ومن رحمة الله كذلك أن جعل باب التوبة مفتوحاً له في كل لحظة، فإذا نسي ثم تذكر، وإذا عثر ثم نهض، وإذا غوى ثم تاب.. وجد الباب مفتوحاً له، وقبل الله توبته، وأقال عثرته. فإذا استقام على طريقه بدل الله سيئاته حسنات، وضاعف له ما شاء، ولم يجعل خطيئته الأولى لعنة مكتوبة عليه وعلى ذريته. فليست هناك خطيئة أبدية. وليست هناك خطيئة موروثة - ولا تزر وازرة وزر أخرى.

وهذه الحقيقة في التصور الإسلامي تنقذ كاهل البشرية من أسطورة الخطيئة الموروثة التي تقوم عليها التصورات الكنسية في المسيحية! والتي يقوم عليها ركام هائل من الطقوس والتشكيلات فوق ما يقوم فوقها من الأساطير والخرافات.. خطيئة آدم التي تلازم البشرية كاللعنة المصلتة على الرقاب! حتى يتمثل الإله في صورة ابن الإنسان (المسيح) ويصلب ويحتمل العذاب للتكفير عن الخطيئة الموروثة؛ ومن ثم يكتب (الغفران) لمن يتحد بالمسيح الذي كفر بدمه عن خطيئة آدم التي ورثتها البشرية!

إن الأمر في التصور الإسلامي أيسر من هذا بكثير.. لقد نسي آدم وأخطأ.. ولقد تاب واستغفر. ولقد قبل الله توبته وغفر له.. وانتهى أمر تلك الخطيئة الأولى. ولم يبق منها إلا رصيد التجربة الذي يعين الجنس البشري في صراعه الطويل المدى..

أي بساطة! وأي وضوح! وأي يسر في هذه العقيدة!

والحقيقة الرابعة:

هي جدية المعركة مع الشيطان وأصالتها، واستمرارها وضراوتها..

لقد بدا من سياق القصة إصرار هذا العدو العنيد على ملاحقة الإنسان في كل حالة، على إتيانه من كل صوب وجهة، وعلى اتباعه في كل ساعة ولحظة!

﴿قال: فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾.

لقد اختار اللعين أن يزاول هذا الكيد، وأن ينظر لمزاولته على المدى الطويل.. اختار هذا على أن يضرع إلى الله أن يغفر له خطيئته في معصيته عياناً وقد سمع أمره مواجهة! ثم بين أن سيقعد لهم على طريق الله لا يمكنهم من سلوكه، وأنه سيأتيهم من كل جهة يصرفهم عن هداه.

وهو إنما يأتيهم من ناحية نقطة الضعف فيهم ومداخل الشهوة. ولا عاصم لهم منه إلا بالتَّقوي بالإيمان والذكر، والتَّقوي على إغوائه ووسوسته، والاستعلاء على الشهوات وإخضاع الهوى لهدى الله.

والمعركة مع الشيطان هي المعركة الرئيسية، إنها المعركة مع الهوى باتباع الهدى، والمعركة مع الشهوات باستعلاء الإرادة والمعركة مع الشر والفساد في الأرض الذي يقود الشيطان أولياءه إليه باتباع شريعة الله المصلحة للأرض.. والمعركة في الضمير والمعركة في الحياة الواقعية متصلتان لا منفصلتان، فالشيطان وراءهما جميعاً!

والطواغيت التي تقوم في الأرض لتخضع الناس لحاكميتها وشرعها وقيمها وموازينها، وتستبعد حاكمية الله وشرعه، والقيم والموازين المنبثقة عن دينه.. إنما هي شياطين الإنس التي توحي إليها شياطين الجن. والمعركة معها هي المعركة مع الشيطان نفسه. وليست بعيدة عنها.

وهكذا تتركز المعركة الكبرى الطويلة الضاربة في المعركة مع الشيطان ذاته، ومع أوليائه. ويشعر المسلم وهو يخوض المعركة مع أهوائه وشهواته، وهو يخوضها كذلك مع أولياء الشيطان من الطواغيت في الأرض وأتباعهم وأذنابهم، وهو يخوضها مع الشر والفساد والانحلال الذي ينشئونه في الأرض من حولهم.. يشعر المسلم وهو يخوض هذه المعارك كلها، أنه إنما يخوض معركة واحدة جدية صارمة ضارية، لأن عدوه فيها معثر قاضٍ في طريقه.. وأن الجهاد - من ثم - ماضٍ إلى يوم القيامة، في كل صوره ومجالاته.

وأخيراً فإن القصة والتعقيبات عليها - كما سيجيء - تشير إلى شيء مركوز في طبع الإنسان وفطرته. وهو الحياء من التعري وانكشاف سوآته:

« فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما ».

« فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ».

« يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنَّة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ».

« يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشا، ولباس التقوى ذلك خير، ذلك من آيات الله.. ».

وكلها توحي بأهمية هذه المسألة، وعمقها في الفطرة البشرية، فاللباس وستر العورة، زينة للإنسان وستر لعوراته الجسدية، كما أن التقوى لباس لعوراته النفسية.

والفطرة السليمة تنفر من انكشاف سوآتها الجسدية والنفسية. وتحرص على سترها وموارتها.. والذين يحاولون تعرية الجسم من اللباس، وتعرية النفس من التقوى، ومن الحياء من الله ومن الناس، والذين يطلقون ألسنتهم وأقلامهم

وأجهزة التوجيه والإعلام كلها لتأصيل هذه المحاولة - في شتى الصور والأساليب الشيطانية الخبيثة - هم الذين يريدون سلب (الإنسان) خصائص فطرته، وخصائص (إنسانيته) التي بها صار إنساناً. وهم الذين يريدون إسلام الإنسان لعدوه الشيطان وما يريده به من نزع لباسه وكشف سوآته! وهم الذين ينفذون المخططات الصهيونية الرهيبة لتدمير الإنسانية وإشاعة الانحلال فيها لتخضع لملك صهيون بلا مقاومة. وقد فقدت مقوماتها الإنسانية!

إن العري فطرة حيوانية. ولا يميل الإنسان إليه إلا وهو يرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان. وإن رؤية العري جمالاً هو انتكاس في الذوق البشري قطعاً. والمتخلفون في أواسط أفريقية عراة. والإسلام حين يدخل بحضارته إلى هذه المناطق يكون أول مظاهر الحضارة اكتساء العراة! فأما في الجاهلية الحديثة (التقدمية) فهم يرتكسون إلى الوهدة التي ينتشل الإسلام المتخلفين منها، وينقلهم إلى مستوى (الحضارة) بمفهومها الإسلامي الذي يستهدف إنقاذ خصائص الإنسان وإبرازها وتقويتها.

والعري النفسي من الحياء والتقوى - وهو ما تجتهد فيه الأصوات والأقلام وجميع أجهزة التوجيه والإعلام - هو النكسة والردة إلى الجاهلية. وليس هو التقدم والتحضر كما تريد هذه الأجهزة الشيطانية المدربة الموجهة أن توسوس.

وقصة النشأة الإنسانية في القرآن توحي بهذه القيم والموازين الأصيلة وتبينها خير بيان.

والحمد لله الذي هدانا إليه وأنقذنا من وسوسة الشيطان ووحل الجاهلية!!![1]

ويقول الشهيد سيد قطب رحمه الله في كتابه - خصائص التصور الإسلامي

---

(١) في ظلال القرآن من ص (١٢٦١) الى (١٢٦٢). ومن صفحة (١٢٦٤ الى ١٢٧٨). طبعة دار الشروق.

بصدد حديثه عن الإنسان (و « إنسانية » هذا الإنسان المستمدة من كونه مخلوقاً فيه نفخة من روح الله اكتسب بها إنسانيته المتميزة عن سائر طبائع المخلوقات حوله، إنسانية هذا الإنسان ثابتة. ولكن هذا « الإنسان » يمر بأطوار جنينية شتى من النطفة إلى الشيخوخة. ويمر بأطوار اجتماعية شتى، يرتقي فيها وينحط حسب اقترابه وابتعاده عن مصدر إنسانيته. ولكن هذه الأطوار وتلك لا تخرجه من حقيقة إنسانيته الثابتة، ونوازعها وطاقاتها واستعداداتها المنبثقة من حقيقة إنسانيته).

ويعلق على هذه الفقرة في الصفحة نفسها قائلاً:

(بدأت الداروينية الحديثة تصحح الداروينية القديمة، فتقرر أن الإنسان مخلوق فريد من الناحية البيولوجية.

ومن النواحي العقلية والنفسية كذلك، وأنه في هذا يتميز تميزاً تاماً عن جميع الحيوانات.. وبين هذا وبين القول بأن إنسانية الإنسان خاصية ثابتة فيه منذ البدء.. خطوة.. وإن كان يعز على الداروينيين أن يخطوها.) خصائص التصور الإسلامي، الطبعة الأولى ص ٨٤.

ونطمئن روح الإمام الشهيد تغمده الله برحمته، أنهم قد خطوها بالفعل خلال هاتين السنتين فلنستمع إلى آخر آراء العلم في خلق الإنسان:

« لم يتوقف عقل الانسان عن محاولة العثور على أجوبة شافية مقنعة لسؤاله القديم:

هل ولد الإنسان حراً. أو يولد أسيراً محكوماً عليه مسبقاً بمصير معين؟

هذه هي المسألة بعد أن نخلع عنها إطارها من المصطلحات وكلمات المتخصصين. وهي المسألة التي تحتل المكانة الأولى في أكثر ما يدور الآن في العالم الغربي من مناقشات فكرية وعلمية، إنها القضية التي جعلت علماء

البيولوجيا يتخاصمون، وأثارت ثائرة الحركة النسائية، وأشعلت سخط الماركسيين وأغضبتهم، ونسفت ثقة علماء الأنثروبولوجيا في علمهم الجديد (علم تاريخ ثقافة الإنسان ومعارفه وتطوره الاجتماعي والعلمي والتكنولوجي والذهني).

والنظرية التي أثارت كل هذا الضجيج هي نظرية «السوسيوبولوجية» أو (علم الأحياء الاجتماعي) وهي محاولة لدمج العلوم الاجتماعية بعلم الأحياء.

ومنذ ألقى البروفسور جورج شتاينر - أستاذ الكيمياء الحيوية في جامعة بيل الأمريكية بحثاً له في أحد المؤتمرات عام ١٩٦٩، واستخدم فيه مصطلح «سوسيوبيولوجي» بدأ العلم الجديد الذي حوله باحثون آخرون إلى «نظرية» جديدة لتفسير الوجود الاجتماعي البيولوجي للإنسان تفسيراً واحداً يهدف إلى ترسيخ حقيقة أكدتها الأديان السماوية ببساطتها الصافية (على حد قول الجريدة) من قبل وهي أن الإنسان متميز عن الكائنات الحية جميعاً. قد يشترك معها في بعض الصفات (الفسيولوجية) ولكنه يختلف عنها - ويتميز وحده بصفات بيولوجية أساسية ثم بالعقل، وبالقدرة على صنع الأدوات لأهداف محدودة، واختراع اللغة واستخدامها وبالتنظيم الاجتماعي.

ومنذ أوائل السبعينات انتقلت قيادة السوسيوبولوجي من جامعة بيل إلى جامعتي بيركلي ثم هارفارد، حيث كان يعمل البروفيسور أدوارد ويلسون - أحد مؤسسي العلم الجديد، وأحد أوائل من يسعون الآن إلى تحويله إلى نظرية شاملة. وفي العام الماضي أصدر ويلسون أول كتاب ينزل بالنظرية الجديدة من مرتفعات المتخصصين إلى مستوى القارىء العادي، واختار ويلسون لكتابه عنواناً بسيطاً هو «حول الطبيعة البشرية».

وعن علماء البيولوجيا يقول ويلسون أن علم القرن الماضي كان يعتقد أن الإنسان لا يتميز عن بقية (الثدييات) بيولوجياً إلا ببعض الصفات

الفسيولوجية التي اكتسبها من خلال تطوره وارتقائه كانتصاب القامة، وتطور تركيب الأطراف الأمامية، واتساع فراغ الجمجمة بما يسمح بنمو مقدمة المخ... إلخ..

وجاء علم القرن العشرين لكي يكتشف أن «الإنسان» نوع متميز ربما منذ بدء الخليقة، وأن امتيازه مفطورٌ في خلاياه التي تتضمن صفات خاصة به وحده، ينقلها إلى أبنائه وأجياله، وتتطور هذه الخلايا حاملة خصائصه الوراثية (الجينات) تطوراً خاصاً - رغم تأثره بما يكتسبه الإنسان من معلومات وقدرات جديدة في صراعه ضد الطبيعة.

وعن علماء الاجتماع الوضعيين والتاريخيين (كالماركسيين) فإنهم كانوا يعتقدون بأن الإنسان توقف غالباً عن التطور البيولوجي والفسيولوجي وأن تطوره انتقل إلى مجال «المخ» والجهاز العصبي نتيجة دخوله في مرحلة تكوين المجتمعات أي أن تاريخ الإنسان أصبح تاريخاً اجتماعياً فقط وليس تاريخاً بيولوجياً. وأن مخ الإنسان، وقدراته العصبية وحدها هي التي تتغير مع مكتسبات العلوم والتكنولوجيا وأدوات وأساليب الانتاج مع تسليمهم بأنه ليس للإنسان أي تميز بيولوجياً عن عالم الثدييات الحيواني إلا ببعض الصفات الفسيولوجية تتجسد في بعض المهارات التي تمارسها أعضاؤه والتناسق المتطور لجهازه العصبي ومركزه في المخ.

وجاء العلم الجديد ليكتشف أن للإنسان «**صفات ثابتة**» لا يلحقها أي تغيير لأنها صفات تحملها خلاياه الوراثية. كأنها بصمات أصابع شخص واحد لا تتغير طوال عمره، وأن المكتسبات الجديدة تضاف إلى تلك الصفات الثابتة ولا تمحوها أو تبدلها.

وعن علماء الأنثروبولوجي يقول ويلسون أن أصحاب هذا العلم الجديد نسبياً كانوا يحاولون تفسير الوجود الاجتماعي والتاريخي للإنسان عن طريق

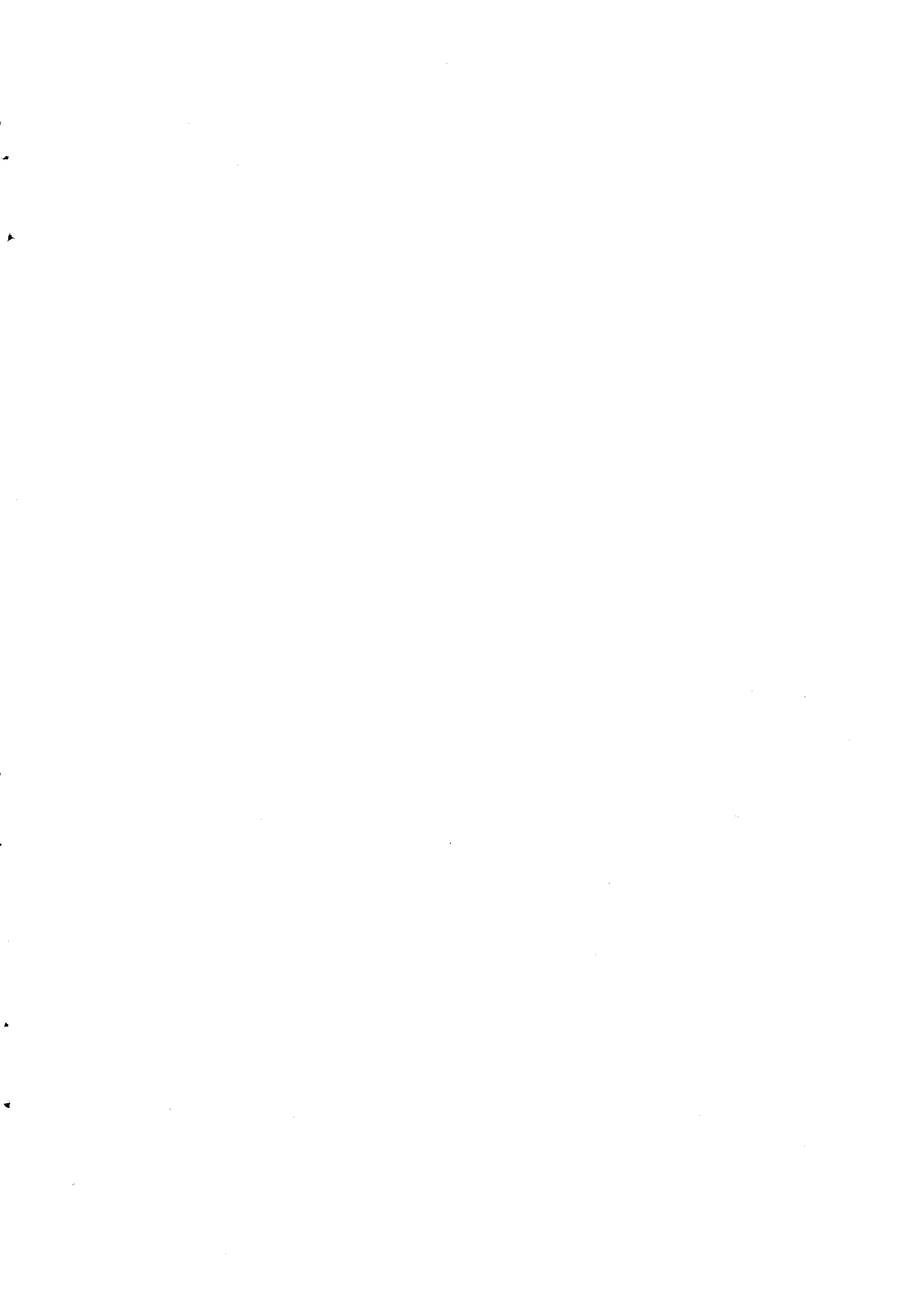
تركيبة نظرية تجمع بين علوم الآثار وتاريخ التكنولوجيا وتاريخ العلم وتاريخ العقائد والفنون. يربط بينها تصور فسيولوجي اجتماعي وأنهم كانوا يفسرون التغييرات والاختلافات التي شهدها تاريخ البشر على أساس تبادل التأثير بين تطور استخدام الانسان لأعضائه ومهاراته ومعارفه، وبين التحولات الاجتماعية المختلفة صغيرة أو كبيرة، فكانوا قادرين على الإحساس بالتمايزات بين الثقافات المختلفة، عبر عصور التاريخ أو بين الأمم والحضارات.

ولكنهم لم يضعوا في اعتبارهم الخصائص الواحدة التي تكررت في كل أنواع السلوك البشري واللغات والثقافات لدى كل الأمم والحضارات والتي تكاد تكون من السمات التي يتميز بها النوع الإنساني ويظل يتميز بها كأفراد أو جماعات وأمم لكي تفصله بشكل عام ـ عن عالم «الحيوان» وتتيح له الوضع المناسب للخروج من سجن الطبيعة وحدودها إلى رحاب الحرية التي انتزعها اعتماداً على هذه الصفات الخاصة به وحده والتي تشترك فيها كل فصائله وأنواعه أي كل الأمم والقوميات والحضارات.

ويقول ويلسون أن نظرية التطور «الداروينية» نسبة إلى داروين من أكثر علوم القرن الماضي تأثراً بالنظرية الجديدة. إنها في ضوء هذه النظرية لم تعد قادرة على تفسير سلوك الأفراد رغم احتمال صلاحيتها لتفسير جانب من سلوك الجنس البشري ككل. فالقول بأن صراع البقاء يؤدي إلى بقاء الأصلح قد ينطبق على الأجناس بشكل عام، ولكنه على المستوى الفردي كان يقتضي أن تختفي تماماً القيم الأخلاقية التي يقوم عليها جزء هام من أسس أي مجتمع هل ستكون هذه هي آخر إجابات القرن العشرين على التساؤل القديم:[1]

هل ولد الإنسان حراً عن الأوبزرفر

(١) الأهرام السنة ١٠٤ عدد ٢٣ ٦٣٦ غرة صفر ١٣٩٩ حق ١٩٧٨/١٢/٣١.



الفصل الثالث

فجر البشرية الاول

(يقول المشتغلون بالعقائد والديانات بتطور الدين . وأن الحضارة ظهرت على وجه الأرض منذ اليوم الذي ظهر فيه فجر الضمير، وأن الإنسان سار في طريق الرقي ودرج في مدارج السمو منذ ذلك اليوم، فعرف الآلهة والبعث بعد الموت والثواب والعقاب . وأكد المتحمسون لمبدأ التطور أن الديانات السماوية استمدت أصولها من ديانات قدماء المصريين والبابليين والآشوريين، ورجعتُ إلى القرآن الكريم أبحث عن نشأة الدين فاهتديت إلى أن الإنسان منذ خلقه الله وهو على علم : ﴿وعلّم آدم الأسماء كلها﴾ وأن هذا العلم انتقل من آدم إلى بنيه، وأن الصلة بين آدم وبين الله لم تنقطع بهبوط آدم إلى الأرض .﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾ . فمما لا شك فيه أن آدم وبنيه عرفوا الله الواحد القهار حق المعرفة، فلما طال عليهم الأمد قست قلوبهم، وأشركوا بالله غيره، وجعلوا له أنداداً، ونسجوا حول الحقيقة التي بلغتهم أساطير، فمن المقرر أنه لا يمكن خلق شيء من لا شيء « بالامكانية البشرية » . من هنا جاءت اللمحات الصادقة في عقائد المؤمنين)[1] .

---

(١) ابراهيم أبو الأنبياء لـ عبد الحميد جودة السحار ص٣٣٩ ـ ٣٤٠ .

(إن التاريخ البشري يمضي في تشابك معقد كل التعقيد.. إن هذا الكائن المزدوج الطبيعة، المعقد التركيب، الذي يتألف كيانه من أبعد عنصرين تؤلف بينهما قدرة الله وقدره. عنصر الطين الذي نشأ منه. وعنصر النفخة من روح الله. التي جعلت من هذا الطين إنساناً.. إن هذا الكائن ليمضي في تاريخه مع عوامل متشابكة كل التشابك، معقدة كل التعقيد.. يمضي بطبيعته هذه يتعامل مع تلك الآفاق والعوالم التي أسلفنا في قصةآدم ،الحديث عنها.. يتعامل مع الحقيقة الإلهية، مشيئتها وقدرها ،وقدرتها وجبروتها، ورحمتها وفضلها.. ويتعامل مع الملأ الأعلى وملائكته ويتعامل مع إبليس وقبيله. ويتعامل مع هذا الكون المشهود ونواميسه وسنن الله فيه.. ويتعامل مع الأحياء في هذه الأرض. ويتعامل مع بعضه البعض. يتعامل مع هذه الآفاق وهذه العوالم بطبيعته تلك، وباستعداداته المتوافقة والمتعارضة مع هذه الآفاق والعوالم..

وفي هذا الخضم المتشابك من العلاقات والروابط يجري تاريخه.. ومن القوة في كيانه والضعف، ومن التقوى والهدى، ومن الالتقاء بعالم الغيب وعالم الشهود. ومن التعامل مع العناصر المادية في الكون والقوى الروحية. ومن التعامل مع قدر الله في النهاية.. من هذا كله يتكون تاريخه.. وفي ضوء هذا التعقيد الشديد يفسر تاريخه.

والذين يفسرون التاريخ الإنساني تفسيراً (اقتصادياً) أو (سياسياً). والذين يفسرونه تفسيراً (بيولوجياً) والذين يفسرونه تفسيراً (روحياً) أو (نفسياً). والذين يفسرونه تفسيراً (عقلياً)، كل أولئك ينظرون نظرة ساذجة إلى جانب واحد من جوانب العوامل المتشابكة والعوالم المتباعدة التي يتعامل معها الإنسان؛ ويتألف من تعامله معها تاريخه.. والتفسير الإسلامي للتاريخ هو وحده الذي يلم بهذا الخضم الواسع. ويحيط به، وينظر إلى التاريخ الإنساني من خلاله.)...

ولقد شهدناه يهبط إلى الأرض مؤمناً بربّه، مستغفراً لذنبه، مأخوذاً عليه عهد الخلافة: أن يتبع ما يأتيه من ربه ولا يتبع الشيطان ولا الهوى. مزوداً بتلك التجربة الأولى من حياته. ثم مضى به الزمن، وتقاذفته الأمواج في الخضم. وتفاعلت تلك العوامل المعقدة المتشابكة في كيانه ذاته، وفي الوجود من حوله، تفاعلت في واقعه ومع ضميره. ثم ها نحن هؤلاء نشهد كيف صارت به هذه العوامل المعقدة المتشابكة إلى الجاهلية!!!

إنه ينسى... وقد نسي... إنه يضعف وقد ضعف.. إن الشيطان يغلبه، وقد غلبه.. ولا بد من الانقاذ مرة أخرى.)[١]

وإذا كان أقدم تاريخ وصلنا هو تاريخ المصريين القدماء. والذي يعتبر المؤرخون أنه مهد الحضارة البشرية. فماذا يحدثنا عنه السحار؟:

(عرف المصريون القدماء الله قبل أن يعرفوا آمون وإدريس وبتاح وآتون. وقد ربطت بين إدريس وعقيدة أزريس، لأني رأيت أن إدريس كان في منف، وأن أزريس كان في منف وهو بعد على الأرض قبل أن ترفعه الأساطير إلى السماء. ولأن كتب التاريخ تقول أن أدريس هو الذي علم الناس الزراعة. وأن أزريس هو أول من علم الناس الزراعة، وإدريس هو أول من خط بالقلم، وأن أزريس أول من خط بالقلم، وأن أزريس هو الذي علم المصريين الكتابة. وأن الله رفع ادريس مكاناً عالياً، وأن الأسطورة رفعت أزريس إلى السماء.

واعتنق الصابئون دين إدريس قبل أن يبعث الله نوحاً وإبراهيم وقبل أن تقوم في مصر دولة...

وسواءً أكانت أسطورة أزريس نسجت حول ادريس أم نسجت حول حقيقة أخرى، فمما لا شك فيه أن المصريين آمنوا بالبعث بعد الموت، وبالحساب

---

(١) في ظلال القرآن. ص١٣٠٣ ـ ١٣٠٤. ط. دار الشروق.

والثواب والعقاب بعد دعوة ادريس. وإن الصابئين الذين كانوا في مصر قبل أن يفسد دين القوم. ثم هاجروا منها بعد أن فسد الدين إلى جنوب العراق يؤيد هذه الحقيقة، حقيقة معرفة الله والبعث والحساب قبل عصر الأسرات.)[1]

وها نحن أولاء في هذه السورة نلتقي بموكب الإيمان يرفع أعلامه لرسل الله الكرام: نوح، وهود، وصالح ولوط، وشعيب، وموسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً.. ونشهد كيف يحاول هذا الرهط الكريم - بتوجيه الله وتعليمه - إنقاذ الركب البشري من الهاوية التي يقوده إليها الشيطان، وأعوانه من شياطين الإنس المستكبرين عن الحق في كل زمان. كما نشهد مواقف الصراع بين الهدى والضلال. وبين الحق والباطل، وبين الرسل الكرام وشياطين الإنس والجن. ثم نشهد مصارع المكذبين في نهاية كل مرحلة، ونجاة المؤمنين بعد الإنذار والتذكير......

وفي وقفتنا أمام المشهد الكلي الرائع نلمح جملة معالم نلخصها هنا قبل معالجة النصوص:

إن البشرية تبدأ طريقها مهتدية مؤمنة موحدة.. ثم تنحرف إلى جاهلية ضالة مشركة - بفعل العوامل المتشابكة المعقدة في تركيب الإنسان ذاته، وفي العوالم والعناصر التي يتعامل معها.. وهنا يأتيها رسول بذات الحقيقة التي كانت عليها قبل أن تضل وتشرك. فيهلك من هلك، ويحيا من يحيا. والذين يحيون هم الذين آبوا إلى الحقيقة الإيمانية الواحدة. هم الذين علموا أن لهم إلهاً واحداً. واستسلموا بكليتهم إلى هذا الإله الواحد. هم الذين سمعوا قول رسولهم لهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾.. فهي حقيقة واحدة يقوم عليها دين الله كله، ويتعاقب بها الرسل على مدار التاريخ.. فكل رسولٍ يجيء إنما

---

(١) ابراهيم أبو الأنبياء ص٢٤٠ - ٢٤١.

يقول هذه الكلمة لقومه الذين اجتالهم الشيطان عنها. فنسوها وضلوا عنها. وأشركوا، مع الله آلهة أخرى، على اختلاف هذه الآلهة في الجاهليات المختلفة، وعلى أساسها تدور المعركة بين الحق والباطل.. وعلى أساسها يأخذ الله المكذبين بها وينجي المؤمنين.. والسياق القرآني يوحد الألفاظ التي عبر بها جميع الرسل - صلوات الله عليهم - مع اختلاف لغاتهم.. يوحد حكاية ما قالوه، ويوحد ترجمته في نص واحد: « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ».. وذلك لتحقيق معنى وحدة العقيدة السماوية - على مدار التاريخ - حتى في صورتها اللفظية! لأن هذه العبارة دقيقة في التعبير عن حقيقة العقيدة، ولأن عرضها في السياق بذاتها يصور وحدة العقيدة تصويراً حسياً.. ولهذا كله دلالته في تقرير المنهج القرآني عن تاريخ العقيدة.

وفي ضوء هذا التقرير يتبين مدى مفارقة منهج الأديان المقارنة مع المنهج القرآني.. يتبين أنه لم يكن هناك تدرج ولا تطور في مفهوم العقيدة الأساسي، الذي جاءت به الرسل كلها من عند الله، وأن الذين يتحدثون عن « تطور » المعتقدات وتدرجها، ويدمجون العقيدة الربانية في هذا التدرج « والتطور » في مفهوم العقيدة الأساسي، الذي جاءت به الرسل كلها من عند الله، وأن الذين يتحدثون عن « تطور » المعتقدات وتدرجها، ويدمجون العقيدة الربانية في هذا التدرج، « والتطور » يقولون غير ما يقوله الله سبحانه! فهذه العقيدة - كما نرى في القرآن الكريم - جاءت دائماً بحقيقة واحدة. وحكيت العبارة عنها في ألفاظ بعينها: « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » وهذا الإله الذي دعا الرسل كلهم إليه هو « رب العالمين ».. الذي يحاسب الناس في يوم عظيم. فلم يكن هنالك رسول من عند الله دعا إلى رب قبيلة أو رب أمة، أو رب جنس.. كما أنه لم يكن هناك رسول من عند الله دعا إلى إلهين اثنين أو آلهة متعددة.. وكذلك لم يكن هناك رسول من عند الله دعا إلى عبادة طوطمية

« أو بخمية » أو « أرواحية » أو « صنمية »! ولم يكن هناك دين من عند الله ليس فيه عالم آخر.. كما يزعم من يسمونهم « علماء الأديان » وهم يستعرضون الجاهليات المختلفة، ثم يزعمون أن معتقداتها كانت هي الديانات التي عرفتها البشرية في هذه الأزمان، دون غيرها.

لقد جاءت الرسل ـ رسولاً بعد رسول ـ بالتوحيد الخالص، وبربوبية رب العالمين! وبالحساب في يوم القيامة.. ولكن الانحرافات في خط الاعتقاد، مع الجاهليات الطارئة بعد كل رسالة، بفعل العوامل المعقدة المتشابكة في تكوين الإنسان ذاته، وفي العوالم التي يتعامل معها.. هذه الانحرافات تمثلت في صور شتى من المعتقدات الجاهلية.. هي هذه التي يدرسها « علماء الأديان » ثم يزعمون أنها الخط الصاعد في تدرج الديانات وتطورها!

وعلى أية حال فهذا هو قول الله سبحانه ـ وهو أحق أن يتبع، وبخاصة ممن يكتبون هذا الموضوع في صدد عرض العقيدة الإسلامية، أو صدد الدفاع عنها! أما الذين لا يؤمنون بهذا القرآن فهم وما هم فيه، والله يقص الحق وهو خير الفاصلين..

إن كل رسولٍ من الرسل ـ صلوات الله عليهم جميعاً ـ قد جاء إلى قومه، بعد انحرافهم عن التوحيد الذي تركهم عليه رسولهم الذي سبقه.. فبنو آدم الأوائل نشأوا موحدين لرب العالمين ـ كما كانت عقيدة آدم وزوجه ـ ثم انحرفوا بفعل العوامل التي أسلفنا ـ حتى إذا جاء نوح ـ عليه السلام ـ دعاهم إلى توحيد رب العالمين مرة أخرى، ثم جاء الطوفان فهلك المكذبون ونجا المؤمنون، وعمرت الأرض بهؤلاء الموحدين لرب العالمين ـ كما علمهم نوح ـ وبذراريهم، حتى إذا طال عليهم الأمد انحرفوا إلى الجاهلية كما انحرف من كان قبلهم.. حتى إذا جاء هود أهلك المكذبون بريح عقيم، ثم تكررت القصة وهكذا..

ولقد أرسل كل رسولٍ من هؤلاء إلى قومه ، فقال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، وقال كل رسولٍ لقومه : « إني لكم ناصح أمين » معبراً عن ثقل التبعة ، وخطورة ما يعلمه من عاقبة ما هم فيه من الجاهلية في الدنيا والآخرة ، ورغبته في هداية قومه . وهو منهم وهم منه .. وفي كل مرة وقف « الملأ » من علية القوم وكبرائهم في وجه كلمة الحق هذه ، ورفضوا الاستسلام لله رب العالمين ، وأبوا أن تكون العبودية والدينونة لله وحده ـ وهي القضية التي قامت عليها الرسالات كلها ، وقام عليها دين الله كله . وهنا يصدع كل رسولٍ بالحق في وجه الطاغوت .. ثم ينقسم قومه إلى أمتين متفاصلتين على أساس العقيدة ، وتنبت وشيجة القومية ووشيجة القرابة العائلية؛ لتقوم وشيجة العقيدة وحدها . وإذا (القوم) الواحد ، أمتان متفاصلتان لا قربى بينهما ولا علاقة! وعندئذ يجيء الفتح .. ويفصل الله بين الأمة المهتدية والأمة الضالة ، ويأخذ المكذبين المستكبرين ، وينجي الطائعين المستسلمين .. وما جرت سنة الله قط بفتح ولا فصلٍ قبل أن ينقسم القوم الواحد إلى أمتين على أساس العقيدة ، وقبل أن يجهر أصحاب العقيدة بعبوديتهم لله وحده ، وقبل أن يثبتوا في وجه الطاغوت بإيمانهم ، وقبل أن يعلنوا مفاصلتهم لقومهم . وهذا ما يشهد به تاريخ دعوة الله على مدار التاريخ . إن التركيز في كل رسالة كان على أمرٍ واحد : هو تعبيد الناس كلهم لربهم وحده ـ رب العالمين ـ ذلك أن هذه العبودية لله الواحد ، ونزع السلطان كله من الطواغيت التي تدعيه ، هو القاعدة التي لا يقوم شيء صالح بدونها في حياة البشر . ولم يذكر القرآن إلا قليلاً من التفصيلات بعد هذه القاعدة الأساسية المشتركة في الرسالات جميعاً . ذلك أن كل تفصيل ـ بعد قاعدة العقيدة ـ في الدين ، إنما يرجع إلى هذه القاعدة ولا يخرج عنها . وأهمية هذه القاعدة في ميزان الله هي التي جعلت المنهج القرآني يبرزها هكذا ، ويفردها بالذكر في استعراض موكب الإيمان ؛ بل في

القرآن كله.. ولنذكر ـ كما قلنا في التعريف بسورة الأنعام: أن هذا هو موضوع القرآن المكي كله: كما كان موضوع القرآن المدني كلما عرضت مناسبة لتشريع أو توجيه.

إن لهذا الدين « حقيقة » و« منهجاً » لعرض هذه الحقيقة. والمنهج في هذا الدين لا يقل أصالة ولا ضرورة عن « الحقيقة » فيه. وعلينا أن نعرف الحقيقة الأساسية التي جاء بها هذا الدين. كما أن علينا أن نلتزم بالمنهج الذي عرض بهذه الحقيقة.. وفي هذا المنهج إبراز وإفراد وتكرار وتوكيد لحقيقة التوحيد للألوهية.. ومن هنا ذلك التوكيد والتكرار والإبراز والإفراد لهذه القاعدة في قصص هذه السورة..

« إن هذا القصص يصور طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر في نفوس البشر، ويعرض نموذجاً مكرراً للقلوب المستعدة للإيمان، ونموذجاً مكرراً للقلوب المستعدة للكفر أيضاً.. إن الذين آمنوا بكل رسول لم يكن في قلوبهم الاستكبار عن الاستسلام لطاعة الله ورسوله؛ ولم يعجبوا أن يختار الله واحداً منهم ليبلغهم وينذرهم. فأما الذين كفروا بكل رسول فقد كانوا هم الذين أخذتهم العزة بالإثم. فاستكبروا أن ينزلوا عن السلطان المغتصب في أيديهم لله صاحب الخلق والأمر، وأن يسمعوا لواحدٍ منهم.. كانوا هم « الملأ » من الحكام والكبار والوجهاء وذوي السلطان في قومهم.. ومن هنا نعرف عقدة هذا الدين.. إنها عقدة الحاكمية والسلطان. فالملأ كانوا يحسون دائماً في قول رسولهم لهم: « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ». « ولكني رسول من رب العالمين ». كانوا يحسون أن الألوهية الواحدة والربوبية الشاملة تعني ـ أول ما تعني ـ نزع السلطان المغتصب من أيديهم، ورده إلى صاحبه الشرعي.. إلى الله رب العالمين.. وهذا ما كانوا يقاومون في سبيله حتى يكونوا من الهالكين! وقد بلغ من عقدة السلطان في نفوسهم ألا ينتفع اللاحق منهم بالغابر، وأن يسلك طريقه إلى الهلاك كما يسلك طريقه إلى جهنم كذلك!.. إن مصارع المكذبين ـ

كما يعرضها هذا القصص - تجري على سنة لا تتبدل: نسيان لآيات الله، وانحراف عن طريقه. إنذار من الله للغافلين على يد رسول. استكبار عن العبودية لله وحده والخضوع لرب العالمين. اغترار بالرخاء واستهزاء بالإنذار واستعجال للعذاب. طغيان وتهديد وإيذاء للمؤمنين. ثبات من المؤمنين ومفاصلة على العقيدة.. ثم المصرع ألذي يأتي وفق سنة الله على مدار التاريخ!

وأخيراً فإن طاغوت الباطل لا يطيق مجرد وجود الحق.. حتى وحين يريد الحق أن يعيش في عزلة عن الباطل - تاركاً مصيرهما لفتح الله وقضائه - فإن الباطل لا يقبل منه هذا الموقف. بل يتابع الحق وينازله ويطارده.. ولقد قال شعيب لقومه: ﴿وإنْ كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلتُ به وطائفة لم يؤمنوا، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين﴾.. ولكنهم لم يقبلوا منه هذه الخطة، ولم يطيقوا رؤية الحق يعيش؛ ولا رؤية جماعة تدين لله وحده، وتخرج من سلطان الطواغيت: «وقال الملأ الذين استكبروا من قومه: لنخرجنَّك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا - وهنا صدع شعيب بالحق رافضاً هذا الذي يعرضه عليهم الطواغيت - قال: أَوَ لو كنا كارهين؟ قد افترينا على الله كذباً إنْ عدنا في ملتكم بعد إذْ نجانا الله منها.. »

ذلك ليعلم أصحاب الدعوة إلى الله أن المعركة مع الطواغيت مفروضة عليهم فرضاً، وأنه لا يجديهم فتيلاً. أن يتقوها ويتجنبوها، فالطواغيت لن تتركهم إلا أن يتركوا دينهم كلية. ويعودوا إلى ملة الطواغيت بعد إذ نجاهم الله منها. وقد نجاهم الله منها مجرد أن خلعت قلوبهم عنها العبودية للطواغيت ودانت بالعبودية لله وحده.. فلا مفر من خوض المعركة، والصبر عليها، وانتظار فتح الله بعد المفاصلة فيها، وأن يقولوا مع شعيب: «على الله توكلنا، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين» ثم تجري سنة الله بما جرت به كل مرة على مدار التاريخ..

إن موكب الإيمان الذي يسير في مقدمته الرسل الكرام، مسبوق في السياق بموكب الإيمان في الكون كله في الفقرة السابقة مباشرة: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، يُغشي الليل النهار(يطلبه حثيثاً)، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلقُ والأمر، تبارك الله رب العالمين﴾.

وإن الدينونة لهذا الإله، الذي خلق السماوات والأرض، والذي استوى على العرش، والذي يحرك الليل ليطلب النهار، والذي تجري الشمس والقمر والنجوم مسخَّرات بأمره، والذي له الخلق والأمر، إن الدينونة لهذا الإله وحده هي التي يدعو إليها الرسل كافة. هي التي يدعون إليها البشرية كلها، كلما قعد لها الشيطان على صراط الله فأضلها عنه؛ وردها إلى الجاهلية التي تتبدى في صور شتى، ولكنها كلها تتسم بإشراك غير الله معه في الربوبية.

والمنهج القرآني يكثر من الربط بين عبودية هذا الكون لله، ودعوة البشر إلى الاتساق مع الكون الذي يعيشون فيه؛ والإسلام لله الذي أسلم له الكون كله؛ والذي يتحرك مسخراً بأمره. ذلك أن هذا الإيقاع بهذه الحقيقة الكونية كفيل بأن يهز القلب البشري هزاً؛ وأن يستحثه من داخله على أن ينخرط في سلك العبادة المستسلمة، فلا يكون هو وحده نشازاً في نظام الوجود كله!

إن الرسل الكرام لا يدعون البشرية لأمر شاذ؛ إنما يدعونها إلى الأصل الذي يقوم عليه الوجود كله؛ وإلى الحقيقة المركوزة في ضمير هذا الوجود.. وهي ذاتها الحقيقة المركوزة في فطرة البشر؛ والتي تهتف بها فطرتهم حين لا تلوي بها الشهوات، ولا يقودها الشيطان بعيداً عن حقيقتها الأصلية.. وهذه هي اللمسة المستفادة من تتابع السياق القرآني في السورة على النحو الذي تتابع به.)[١]

---

(١) في ظلال القرآن. من ص١٣٠٢ إلى ١٣٠٧. ط. دار الشروق.

الفصل الرابع

نوح عليه السلام

﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، فقال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم. قال الملأ من قومه: إنا لنراك في ضلال مبين، قال: يا قوم ليس بي ضلالة، ولكني رسول من رب العالمين. أبلغكم رسالات ربي، وأنصح لكم، وأعلم من الله ما لا تعلمون، أَو عجبتم أنْ جاءكم ذكر من ربكم على رجلٍ منكم لينذركم، ولتتقوا ولعلكم ترحمون؟ فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا، إنهم كانوا قوماً عَمين﴾

* * *

تعرض القصة هنا باختصار، ليست فيها التفصيلات التي ترد في مواضع أخرى من القرآن في سياق يتطلب تلك التفصيلات، كالذي جاء في سورة هود، وفي سورة نوح.. إن الهدف هنا هو تصوير تلك المعالم التي تحدثنا عنها آنفاً.. طبيعة العقيدة، طريقة التبليغ، طبيعة استقبال القوم لها. حقيقة مشاعر الرسول، تحقق النذير.. لذلك تذكر من القصة فحسب تلك الحلقات المحققة لتلك المعالم، على منهج القصص القرآني.

« لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه »

على سنة الله في إرسال كل رسول إلى قومه ، فخاطبهم بتلك الكلمة الواحدة التي جاء بها كل رسول « فقال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » .

فهي الكلمة التي لا تتبدل ، وهي قاعدة هذه العقيدة التي لا توجد إلا بها ، وهي عماد الحياة الإنسانية الذي لا تقوم على غيره . وهي ضمان وحدة الوجهة ووحدة الهدف ووحدة الرباط . وهي الكفيل بتحرر البشر من العبودية للهوى ، والعبودية لأمثالهم من العبيد ، وبالاستعلاء على الشهوات كلها وعلى الوعد والوعيد .

إن دين الله منهج للحياة ، قاعدته أن يكون السلطان في حياة الناس كلهم لله . وهذا هو معنى عبادة الله وحده ، ومعنى أن لا يكون للناس إله غيره . . والسلطان يتمثل في الاعتقاد بربوبيته لهذا الوجود وإنشائه وتدبيره بقدرة الله وقدره . كما يتمثل في الاعتقاد بربوبيته للإنسان ، وتدبير أمره بقدرة الله وقدره . وعلى نفس المستوى يتمثل في الاعتقاد بربوبية الله لهذا الإنسان في حياته العملية الواقعية ، وقيامها على شريعته وأمره ، تمثله في التقدم بشعائر العبادة له وحده ، كلها حزمة واحدة . . غير قابلة للتجزئة ، وإلا فهو الشرك ، وهو عبادة غير الله معه ، أو من دونه!

ولقد قال نوح لقومه هذه القولة الواحدة ، وأنذرهم عاقبة التكذيب بها في إشفاق الأخ الناصح لإخوانه ، وفي صدق الرائد الناصح لأهله :

« إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم »

وهنا نرى أن ديانة نوحٍ . . . أقدم الديانات . . كانت فيها عقيدة الآخرة . عقيدة الحساب والجزاء في يوم عظيم ، يخاف نوحٌ على قومه ما ينتظرهم فيه من

عذاب.. وهكذا تتبين مفارقة منهج الله وتقريره في شأن العقيدة، ومناهج الخابطين في الكلام من «علماء الأديان» وأتباعهم الغافلين عن منهج القرآن.

فكيف كان استقبال المنحرفين الضالين من قوم نوح لهذه الدعوة الخالصة الواضحة المستقيمة؟

«قال الملأ من قومه: إنا لنراك في ضلال مبين.»:

كما قال مشركو العرب لمحمد ﷺ - إنه صبأ، ورجع عن دين إبراهيم!

وهكذا يبلغ الضال من الضلال أن يحسب من يدعوه إلى الهدى هو الضال بل هكذا يبلغ التبجح الوقح بعدما يبلغ المسخ في الفطر!... هكذا تنقلب الموازين، وتبطل الضوابط، ويحكم الهوى، ما دام أن الميزان ليس هو ميزان الله الذي لا ينحرف ولا يميل.

وماذا تقول الجاهلية اليوم عن المهتدين بهدي الله؟ إنها تسميهم الضالين، وتعد من يهتدي منهم ويرجع بالرضا والقبول!. أجل من يهتدي إلى المستنقع الكريه، وإلى الوحل الذي تتمرغ الجاهلية فيه! وماذا تقول الجاهلية للفتاة التي لا تكشف عن لحمها؟ وماذا تقول للفتى الذي يستقذر اللحم الرخيص؟ إنها تسمي ترفعهما هذا ونظافتهما وتطهرهما «رجعية» وتخلفاً وجموداً وريفية! وتحاول الجاهلية بكل ما تملكه من وسائل التوجيه والإعلام أن تغرق ترفعهما ونظافتهما وتطهرهما في الوحل الذي تتمرغ فيه في المستنقع الكريه!

وماذا تقول الجاهلية لمن ترتفع اهتماماته عن جنون مباريات الكرة، وجنون الأفلام والسينما والتلفزيون وما إليه، وجنون الرقص والحفلات الفارغة والملاهي؟ إنها تقول عنه: إنه «جامد» ومغلق على نفسه، وتنقصه المرونة والثقافة! وتحاول أن تجره إلى تفاهة من هذه ينفق فيها حياته..

إن الجاهلية هي الجاهلية.. فلا يتغير إلا الأشكال والظروف!

وينفي نوح عن نفسه الضلال ، ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومنبعها ، فهو لم يبتدعها من أوهامه وأهوائه. إنما هو رسول من رب العالمين. يحمل لهم الرسالة. ومعها النصح والأمانة ويعلم من الله ما لا يعلمون. فهو يجده في نفسه ، وهو موصول به ، وهم عنه محجوبون :

« قال : يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين. أبلغكم رسالات ربي ، وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون ».

ونلمح هنا فجوة في السياق.. فكأنما عجبوا أن يختار الله رسولاً من البشر من بينهم ، يحمله رسالة إلى قومه ، وأن يجد هذا الرسول في نفسه علماً عن ربه لا يجده الآخرون ، الذين لم يختاروا هذا الاختيار. هذه الفجوة في السياق يدل عليها ما بعدها :

« أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا. ولعلكم ترحمون؟ »

وما من عجب في هذا الاختيار. فهذا الكائن الإنساني شأنه كله عجيب.. إنه يتعامل مع العوالم كلها. ويتصل بربه بما ركب في طبيعته من نفخة الله فيه من روحه.. فإذا اختار الله من بينه رسوله - والله أعلم حيث يجعل رسالته - فإنما يتلقى هذا المختار عنه. بما أودع في كيانه من إمكانية الاتصال به والتلقي عنه ، بذلك السر اللطيف الذي به معنى الإنسان ، والذي هو مناط التكريم العلوي لهذا الكائن العجيبِ التكوين.

ويكشف لهم نوح عن هدف الرسالة

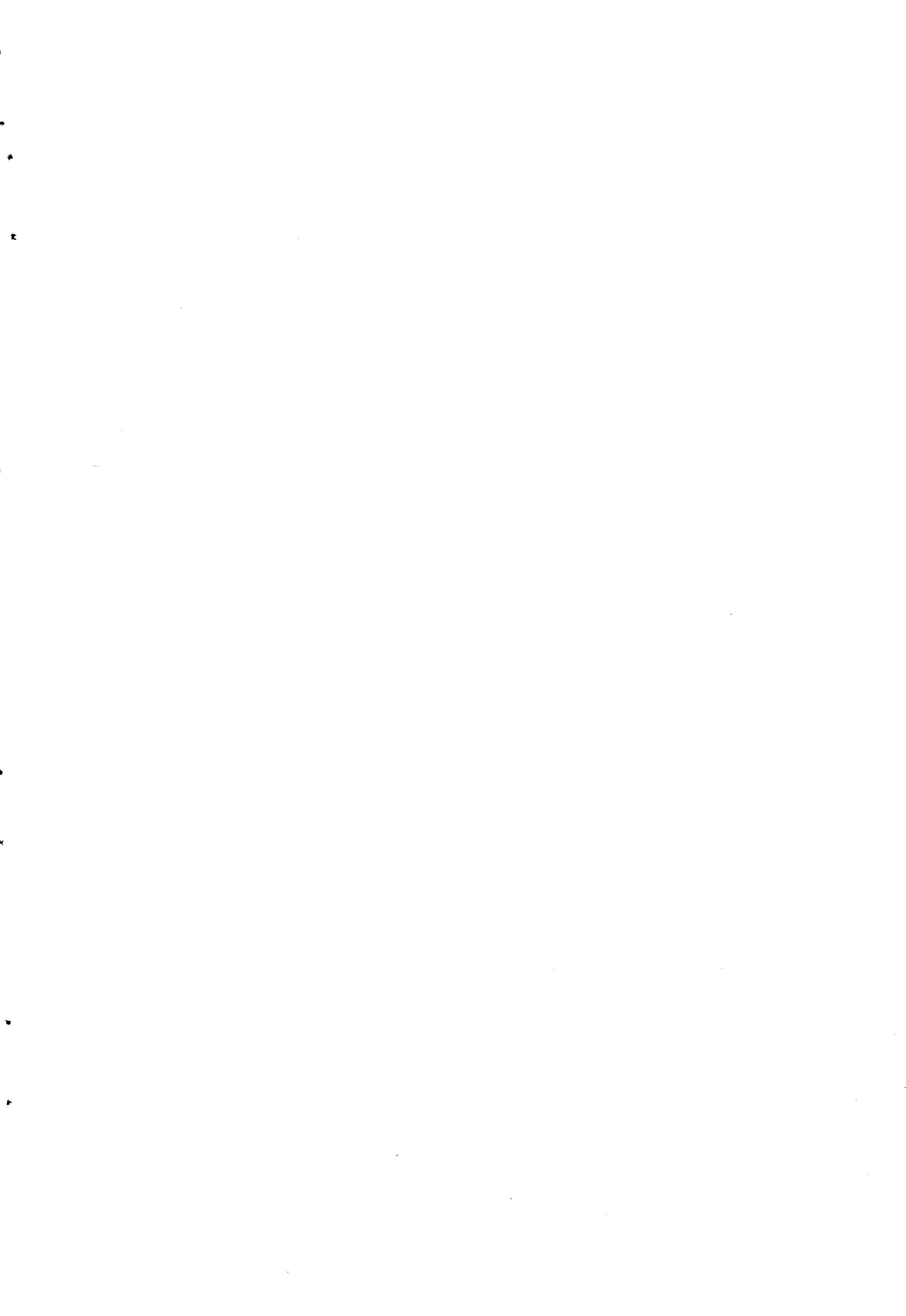
« لينذركم ، ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون »

فهو الإنذار لتحريك القلوب بمشاعر التقوى ، ليظفروا في النهاية برحمة

الله .. ولا شيء وراء ذلك لنوح . ولا مصلحة ، ولا هدف ، لا هذا الهدف السامي النبيل .

ولكن الفطرة حين تبلغ حداً معيناً من الفساد ، لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر ، ولا ينفع معها الإنذار ولا التذكير :

« فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوماً عمين » ولقد رأينا من عماهم عن الهدى والنصح المخلص والنذير .. فبعماهم هذا كذبوا ، وبعماهم لاقوا هذا المصير!



الفصل الخامس

هُود عليه السلام وقومُه

وتمضي عجلة التاريخ ، ويمضي معها السياق فاذا نحن أمام عاد قوم هود .

﴿والى عاد أخاهم هوداً ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أفلا تتقون؟ قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنا لنراك في سفاهة ، وانا لنظنُّك من الكاذبين . قال : يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربي ، وأنا لكم ناصح أمين ، أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجلٍ منكم لينذركم؟ واذكروا إذْ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم في الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ، قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا؟ فائتنا بما تعدنا إنْ كنت من الصادقين ، قال : قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان؟ فانتظروا اني معكم من المنتظرين . فأنجيناه والذين معه برحمة منا ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ، وما كانوا مؤمنين﴾ .

* * *

انها نفس الرسالة ، ونفس الحوار ، ونفس العاقبة . . . انها السنة الماضية ،

والناموس الجاري، والقانون الواحد...

إن قوم عادٍ هؤلاء من ذراري نوح والذين نجوا معه في السفينة، وقيل: كان عددهم ثلاثة عشر... وما من شك أن أبناء هؤلاء المؤمنين الناجين في السفينة كانوا على دين نوحٍ عليه السلام، وهو الاسلام، كانوا يعبدون الله وحده، ما لهم من اله غيره، وكانوا يعتقدون انه رب العالمين، فهكذا قال لهم نوح: «ولكني رسول من رب العالمين» فلما طال عليهم الأمد، وتفرقوا في الأرض، ولعب معهم الشيطان لعبة الغواية، وقادهم من شهواتهم - وفي أولها شهوة الملك وشهوة المتاع. وفق الهوى لا وفق شريعة الله، عاد قوم هود يستنكرون ان يدعوهم نبيهم الى عبادة الله وحده من جديد.

«والى عاد أخاهم هوداً، قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره، أفلا تتقون؟»

القولة التي قالها نوح من قبله، والتي كذب بها قومه، فأصابهم ما أصابهم، واستخلف الله عاداً من بعدهم - ولا يذكر هنا أين كان موطنهم، وفي سورة أخرى نعلم أنهم كانوا بالأحقاف، وهي الكثبان المرتفعة على حدود اليمن ما بين اليمامة وحضرموت - وقد ساروا في الطريق الذي سار فيه من قبل قوم نوح - فلم يتذكروا ولم يتدبروا ما حل بمن ساروا في هذا الطريق، لذلك يضيف هود في خطابه لهم قوله: «أفلا تتقون؟» استنكاراً لقلة خوفهم من الله ومن ذلك المصير المرهوب.

وكأنما كبر على الملأ الكبراء من قومه أن يدعوهم واحد من قومهم الى الهدى، وأن يستنكر منهم قلة التقوى، رأوا فيه سفاهة وحماقة، وتجاوزاً للحد، وسوء تقدير للمقام! فانطلقوا يتهمون نبيهم بالسفاهة وبالكذب جميعاً في غير تحرجٍ ولا حياء.

« قال الملأ الذين كفروا من قومه: انا لنراك في سفاهة، وانا لنظنك من الكاذبين »

هكذا جزافاً بلا تروٍ ولا تدبر ولا دليل!

« قال: يا قوم ليس بي سفاهة، ولكني رسول من رب العالمين. أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين ».

لقد نفى عن نفسه السفاهة في بساطة وصدق - كما نهى عن نفسه الضلالة - وقد كشف لهم - كما كشف نوح من قبل - عن مصدر رسالته وهدفها، وعن نصحه لهم فيها وأمانته في تبليغها. وقال لهم ذلك كله في مودة الناصح وفي صدق الأمين.

ولا بد أن يكون القوم قد عجبوا - كما عجب قوم نوحٍ من قبل - من هذا الاختيار، ومن تلك الرسالة، فاذا هو يكرر لهم ما قاله نوح من قبل كأنما كلاهما روح واحدة في شخصين:

« أوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجلٍ منكم لينذركم؟ »

ثم يزيد عليه ما يمليه واقعهم... واقع استخلافهم في الأرض من بعد قوم نوح، وإعطائهم قوة في الأجسام وضخامة بحكم نشأتهم الجبلية، وإعطائهم كذلك السلطان والسيطرة:

« واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح، وزادكم في الخلق بسطة. فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ». فلقد كان من حق هذا الاستخلاف، وهذه القوة والبسطة، ان تستوجب شكر النعمة والحذر من البطر، واتقاء مصير الغابرين وهم لم يأخذوا على الله عهداً: ان تتوقف سنته التي لا تتبدل، والتي تجري وفق الناموس المرسوم، بقدر معلوم، وذكر النعم يوحي بشكرها، وشكر النعمة تتبعه المحافظة على أسبابها، ومن ثم يكون الفلاح في الدنيا والآخرة.

ولكن الفطرة حين تنحرف لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر... وهكذا أخذت الملأ العزة بالاثم، واختصروا الجدل، واستعجلوا العذاب استعجال من يستثقل النصح، ويهزأ بالإنذار:

« قالوا: أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا؟ »

إنه مشهد بائس لاستعباد الواقع المألوف للقلوب والعقول. هذا الاستعباد الذي يسلب الانسان خصائص الانسان الأصيلة: حرية التدبر والنظر. وحرية التفكير والاعتقاد. ويدعه عبداً للمادة والتقليد، وعبداً للعرف والمألوف، وعبداً لما تفرضه عليه أهواؤه وأهواء العبيد من أمثاله، ويغلق عليه كل باب للمعرفة، وكل نافذة للنور.

وهكذا استعجل القوم العذاب فراراً من مواجهة الحق، بل فراراً من تدبر تفاهة الباطل الذي هم له عبيد، وقالوا لنبيهم الناصح الأمين.

« فائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين »!

ومن ثم كان الجواب حاسماً وسريعاً في رد الرسول:

« قال: قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب. أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان؟ فانتظروا اني معكم من المنتظرين »

لقد أبلغهم العاقبة التي أنبأه بها ربه، والتي قد حقت عليهم فلم يعد عنها محيص. إنه العذاب الذي لا دافع له، وغضب الله المصاحب له... ثم جعل بعد هذا التعجيل لهم بالعذاب الذي استعجلوه، يكشف لهم عن سخافة معتقداتهم وتصوراتهم:

« أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان؟ »

ان ما تعبدون مع الله ليس شيئاً ذا حقيقة! انها مجرد أسماء أطلقتموها أنتم

وآباؤكم ، من عند أنفسكم ، لم يشرعها الله ولم يأذن بها ، فما لها إذن من سلطان ولا لكم عليها من برهان .

والتعبير المتكرر في القرآن : « ما نزل الله بها من سلطان »... هو تعبير موحٍ عن حقيقة أصيلة ، ان كل كلمة أو شرعٍ او عرف أو تصور لم ينزّله الله ، خفيف الوزن ، قليل الأثر ، سريع الزوال... ان الفطرة تتلقى هذا كله في استخفاف فإذا جاءت الكلمة من الله ثقلت واستقرت ونفذت الى الأعماق ، بما فيها من سلطان الله الذي يودعها اياه .

وكم من كلمات براقة ، وكم من مذاهب ونظريات ، وكم من تصورات مزوقة ، وكم من أوضاع حشدت في كل قوى التزيين والتمكين... ولكنها تتذاوب أمام كلمة من الله ، فيها من سلطانه - سبحانه - سلطان!

وفي ثقة المطمئن ، وقوة المتمكن ، يواجه هود قومه بالتحدي :

« فانتظروا اني معكم من المنتظرين »

إن هذه الثقة هي مناط القوة التي يستشعرها صاحب الدعوة الى الله... إنه على يقين من هزال الباطل وضعفه وخفة وزنه مهما انتفش ومهما استطال ، كما أنه على يقين من سلطان الحق الذي معه وقوته بما فيه من سلطان الله .

ولا يطول الانتظار في السياق .

(فأنجيناه والذين معه برحمة منا ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ، وما كانوا مؤمنين)

فهو المحق الكامل الذي لا يتخلف منه أحد . وهو ما عبر عنه بقطع الدابر . والدابر هو آخر واحدٍ في الركب يتبع أدبار القوم!

وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين وتحقق النذير مرة

أخرى بعد اذ لم ينفع التذكير . . . ولا يفصّل السياق هنا ما يفصله من أمر هذا الهلاك في السور الأخرى ، فنحن نقف في ظلال النص الذي يهدف الى الاستعراض السريع ، ولا نخوض في تفصيل له مواضعه في النصوص . . .[1] .

---

(١) في ظلال القرآن ص١٣١ الى ١٣١٢ . د. دار الشروق .

الفصل السادس

صالح عليه السلام وقومه

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٓه غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ، واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم في الأرض ، تتخذون من سهولها قصوراً ، وتنحتون الجبال بيوتاً ، فاذكروا آلاء الله ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا ـ لمن آمن منهم ـ أتعلمون ان صالحاً مرسل من ربه؟ قالوا : إنّا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا : إنا بالذي آمنتم به كافرون . فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا : يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين ، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين . فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ، ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » .

* * *

وهذه صفحة أخرى من صحائف قصة البشرية ، وهي تمضي في خضم التاريخ . وها هي ذي نكسة أخرى الى الجاهلية ، ومشهد من مشاهد اللقاء بين

الحق والباطل، ومصرع جديد من مصارع المكذبين...

« والى ثمود أخاهم صالحاً. قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره »...

ذات الكلمة الواحدة التي بدأ بها هذا الخلق واليها يعود. وذات المنهج الواحد في الاعتقاد والاتجاه والمواجهة والتبليغ ».

ويزيد هنا تلك المعجزة التي صاحبت دعوة صالح، حين طلبها قومه للتصديق:

« قد جاءتكم بيِّنة من ربكم، هذه ناقة الله لكم آية ».

والسياق هنا لأنه يستهدف الاستعراض السريع للدعوة الواحدة، ولعاقبة الايمان بها وعاقبة التكذيب، لا يذكر طلب تفصيلهم للخارقة، بل يعلن وجودها عقب الدعوة. وكذلك لا يذكر تفصيلاً عن الناقة أكثر من أنها بيِّنة من ربهم، وانها ناقة الله وفيها آية منه. ومن هذا الاسناد تستلهم انها كانت ناقة غير عادية. أو أنها أخرجت لهم اخراجاً غير عادي، مما يجعلها بيِّنة من ربهم، ومما يجعل نسبتها الى الله ذات معنى. ويجعلها آية على صدق نبوته... ولا نزيد هنا شيئاً مما لم يرد ذكره من أمرها في هذا المصدر المستيقن. وفيما جاء في هذه الاشارة كفاية عن كل تفصيل آخر فنمضي نحن مع النصوص ونعيش في ظلالها:

« فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم »

انها ناقة الله فذروها تأكل في ارض الله، والا فهو النذير بسوء المصير...

وبعد عرض الآية والانذار بالعاقبة، يأخذ صالح في النصح لقومه بالتدبر والتذكر، والنظر في مصائر الغابرين، والشكر على نعمة الاستخلاف بعد هؤلاء الغابرين.

« واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً . فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين » .

ولا يذكر السياق هنا أين كان موطن ثمود ، ولكنه يذكر في سورة أخرى انهم كانوا في الحجر وهي بين الحجاز والشام . ونلمح من تذكير صالح لهم ، أثر النعمة والتمكين في الأرض لثمود ، كما نلمح طبيعة المكان الذي كانوا يعيشون فيه . فهو سهل وجبل ، وقد كانوا يتخذون في السهل القصور ، وينحتون في الجبال البيوت . فهي حضارة عمرانية واضحة المعالم في هذا النص القصير . . . وصالح يذكرهم استخلاف الله لهم من بعد عاد ، واذ لم يكونوا في أرضهم ذاتها ، ولكن يبدو أنهم كانوا أصحاب الحضارة العمرانية التالية في التاريخ لحضارة عاد ، وان سلطانهم امتد خارج الحجر أيضاً . وبذلك صاروا خلفاء ممكنين في الأرض ، محكمين فيها ، وهو ينهاهم عن الانطلاق في الأرض بالفساد ، اغتراراً بالقوة والتمكين ، وأمامهم العبرة ماثلة في عاد الغابرين .

وهنا كذلك نلمح فجوة في السياق على سبيل الإيجاز والاختصار . فقد آمنت طائفة من قوم صالح واستكبرت طائفة . والملأ هم آخر من يؤمن بدعوة تجردهم من السلطان في الأرض . وترده الى اله واحد هو رب العالمين! ولا بد ان يحاولوا فتنة المؤمنين الذين خلعوا ربقة الطاغوت من أعناقهم بعبوديتهم لله وحده ، وتحرروا بذلك من العبودية للعبيد!

وهكذا نرى الملأ المستكبرين من قوم صالح يتجهون الى من آمن من الضعفاء بالفتنة والتهديد . (قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا - لمن آمن منهم - أتعلمون ان صالحاً مرسل من ربه؟) . . .

وواضح أنه سؤال للتهديد والتخويف ، ولاستنكار ايمانهم به ، وللسخرية من تصديقهم له في دعواه الرسالة من ربه .

ولكن الضعاف لم يعودوا ضعافاً! لقد سكب الايمان بالله القوة في قلوبهم، والثقة في نفوسهم والاطمئنان في منطقهم... انهم على يقين من أمرهم، فماذا يجدي التهديد والتخويف؟ وماذا تجدي السخرية والاستنكار من الملأ المستكبرين؟

« قالوا : انا بما أرسل به **مؤمنون** ».

ومن ثم يعلن الملأ عن موقفهم في صراحة تحمل طابع التهديد:

(وقالوا : انا بالذي آمنتم به كافرون)..

على الرغم من البيِّنة التي جاءهم بها صالح. والتي لا تدع ريبة لمستريب... انه ليست البينة هي التي تنقض الملأ للتصديق... انه السلطان المهدد بالدينونة للرب الواحد... انها عقدة الحاكمية والسلطان. انها شهوة الملك العميقة في الانسان! انه الشيطان الذي يقود الضالين من هذا الخطام! وأتبعوا القول بالعمل، فاعتدوا على ناقة الله التي جاءتهم آية من عند الله على صدق نبيِّه في دعواه، والتي حذَّرهم نبيهم أن **يمسوها بسوء فيأخذهم** عذاب أليم.

« فعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، وقالوا، يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين ». إنه التبجح الذي يصاحب المعصية. ويعبر عن عصيانهم بقوله: « عتوا » لإبراز سمة التبجح فيها وليصور الشعور النفسي المصاحب لها. والذي يعبر عنه كذلك ذلك التحدي باستعجال العذاب والاستهتار بالنذير:

ولا يستأني السياق في اعلان الخاتمة، ولا يفصل كذلك:

« فأخذتهم الرجفة، فأصبحوا في دارهم جاثمين ».

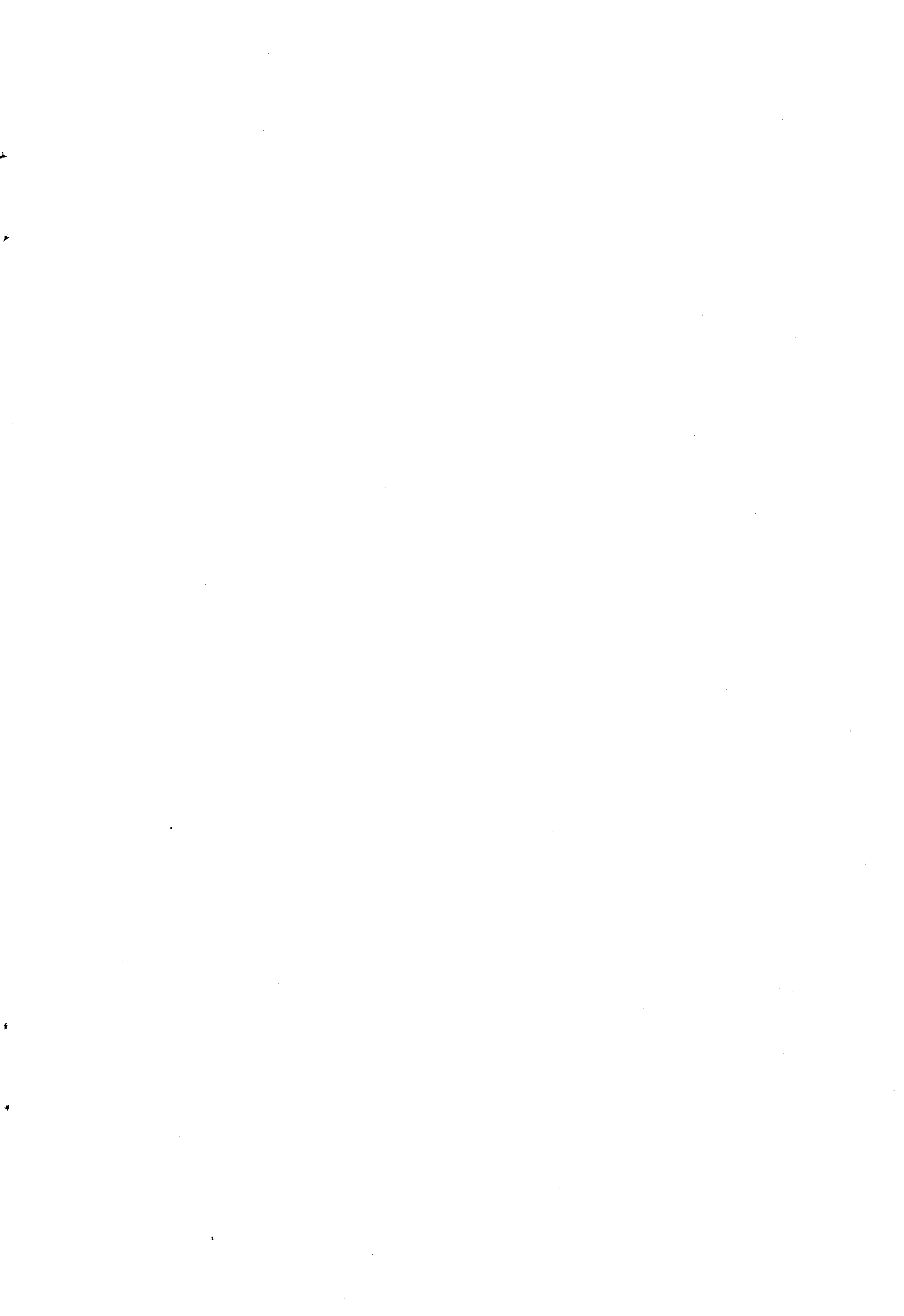
« والرجفة والجثوم جزاء مقابل للعتو والتبجح، فالرجفة يصاحبها الفزع، والجثوم مشهد للعجز عن الحراك.

وما أجدر العاتي ان يرتجف، وما أجدر المعتدي ان يعجز. جزاء وفاقاً في المصير، وفي التعبير عن هذا المصير بالتصوير.

ويدعهم السياق على هيئتهم « جاثمين »... ليرسم لنا مشهد صالح الذي كذَّبوه وتحدوه:

« فتولى عنهم، وقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، ولكن لا تحبون الناصحين ».

إنه الاشهاد على أمانة التبليغ والنصح، والبراءة من المصير الذي جلبوه لانفسهم بالعتو والتكذيب وهكذا تطوى صفحة أخرى من صحائف المكذبين، ويحق النذير بعد التذكير على المستهزئين.



الفصل السابع

ابراهيم عليه السلام وقومه

(في أور ببابل من أرض العراق ولد ابراهيم ﷺ بين قومٍ يعبدون الكواكب والأصنام التي تمثلها وعلى رأسها (مردوخ) رب الأرباب (وناتا) إله القمر و(أنليل) آلهة اللذة. وغيرهم مع وجود بعض الأصوات الخافتة التي كانت تنكر هذه العبادة مثلها ـ لوجال ـ صديق آزر ـ أبي ابراهيم.

ولد ابراهيم وهو الأمل الأكبر لآزر أن يخلفه في صنع تماثيل الآلهة. وبين هذه الاصنام وفي وسط البيت تفتح وعي ابراهيم عليه السلام، ومع نعومة أظفاره كان يناقش أباه عما يراه، ويستفهم عن كل شيء، وينتقد ما لا يعجبه أو لا يقتنع فيه، الى ان يكبر ويرفض بيع التماثيل بل يستهزىء بها مما يولد حنق أبيه آزر عليه. واختار ابراهيم مهنة الرعي للكسب الشريف. وخلال هذه الفترة يتعمق ايمانه ويزداد كرهه للآلهة وتماثيلها. ويقترب من الله تعالى من خلال كتابه المنظور ـ الطبيعة ـ ويبلغ شرخ الشباب فيتزوج سارة ابنة عمه هاران الى أن تأتيه البعثة، ويشرق قلبه بالنور بعد قلقه الشديد من خلال عبودية الكواكب والقمر والشمس كما ذكر القرآن الكريم.

يدعو زوجه سارة للاسلام فتستجيب، ويستجيب له له ابن أخيه لوط، ومن العشيرة الاقربين الى قومه الادنين. وتزداد حدة الصراع حين يلاحظ المشركون انتشار الإسلام على يد ابراهيم عليه السلام، ويبلغ قمته حين حطم الأصنام في ليلة عيد.

فتهتز أور ويستدعى للمحاكمة العلنية من قبل النمروذ - حاكم البلد وسليل الآلهة - وعلى ملأ من الناس يناقش النمروذ فيفحمه، ويرد على قومه فيلجمهم الصمت. وأخيراً يحتار النمروذ بين المنفعة والعقيدة. ويأخذ موقفاً وسطاً. فلا يؤمن، ولكنه يحمي ابراهيم من بطش القوم، وذلك بعد ان أذهلته المعجزة، معجزة نجاة ابراهيم من النار التي حكم عليه بالحرق فيها، وتعجب من قدرة رب ابراهيم فيقرر أن يقدم له القرابين.

وأمام صعوبة الحرب وشدة الصراع يرى ابراهيم بوحي الله أن يهاجر فيقطع الفرات وينزل في حاران (حرَّان اليوم) ويتابع دعوته دون كلل. ويتبعه العبيد والمستضعفون، ويدخل معابد الكهنة ويجادلهم، وتبرز المنفعة ثانية. ويرى الكهنة ان نجمهم في أفول أمام الدعوة الجديدة. فيهيجون القوم عليه ويبيِّتون قتله.

أعلم الله نبيه بذلك وأمره بمغادرة حران مع أتباعه المؤمنين، فنزلوا في طريقهم يستقبلن الضيفان. وعندما رحلوا قرر أهل المنطقة تسمية نزل ابراهيم - حلب - لكثرة ما حلب ابراهيم لهم من أنعامه وسقاهم. ويتابع سيره - فينزل - برزة - قرب دمشق وفي شمالها بمعسكره العظيم المؤمن. وكما هي سنة الدعاة الى الله يتحرك لمركز القوة دمشق. ويدخل معابدها ويناقش بعد عرض واضح لعقائد أهل الشام التي كانت خليطاً من آلهة مصر وآلهة العراق. ويؤمن معه

أحد كبار الكهنة. إليعازر الدمشقي. ويخشى الكهنة والحكام من هذه الدعوة، وخطرها الذي استفحل فيقررون إبادة القلة المؤمنة في الأرض.

وكان ابراهيم في هذا الوقت قد بلغ القدرة بحيث يقاوم الباطل. فأعد لهم ما استطاع من قوة وخاض معركة حامية الوطيس بالخناجر والرماح والفؤوس، ضد المشركين ذوي القوة والسطوة والطاغوت. وتتدخل ارادة الله. وتهزم القلة المؤمنة الكثرة الباغية، ويفتح الله على نبيه ابراهيم دمشق.

ويدخل دمشق لا ناقماً حاقداً. بل داعياً مجاهداً. وبعد أن تخضع لسلطان الله وشريعة الاسلام. يتابع مسيره في الأرض كي يبلغ دعوة الله، فتدين له سورية بكاملها حتى يقترب من ايليا - بيت الله - القدس - ويدخلها، وهناك يحقد الكنعانيون عليه. فتمضي وفودهم الى مصر طالبة انقاذ بيت الله - القدس - من شر إبراهيم. ويبعث ملك الهيكوس بجيش لجب الى القدس. وتدور معركة عنيفة حول ثراها، لم تنته لصالح الطرفين بشيء. فيعود المصريون خائبين. ولكنهم حملوا سارة أسيرة)[1].

(في مدينة منف جنوبي مصر كانت - هاجر - احدى الاميرات هناك بينما كان زوجها في صراعٍ مع الهيكوس شمالي مصر. وجاءت الأنباء بمقتله واخذها أسيرة. وصادف في ذلك الوقت وصول ابراهيم عليه السلام والوفد المرافق له الى الهكسوس لاستنقاذ سارة من الأسر. لم يأل ابراهيم جهداً في الدعوة إلى الله أنّى حلَّ وأنّى ارتحل، وأصاب الوجوم الشرك أمام حجة العقيدة، واكتفى ملك الهكسوس بافتداء سارة، وأخذ - هاجر - جارية لها مودعين مصر إلى بيت إيل (القدس).

وبناءً على وحي الله عرضت سارة على ابراهيم الزواج من هاجر التي

---

(١) إبراهيم ابو الانبياء - الجزء الاول من السيرة النبوية للسحار

وهبتها له فوافق. وبذلك آثرت خليل الله على نفسها ضاربة بعواطفها عرض الحائط.

نزل الوحي على ابراهيم عليه السلام بتوجيه لوط نبياً الى أهل سدوم في الأردن، وأحس ابراهيم بفراغ كبير بعد لوط، فتضرع الى ربه أن يهب له ذرية صالحة. وذلك بعد أن استجابت سارة رضوان الله عليها ووهبت - هاجر - لخليل الله ابراهيم.

استمر صراع لوطٍ عليه السلام مع آل عمورة - سدوم - يدعوهم الى الله، ولكن دون ان يستجيب له أحد، وصادف ان وقع الصراع بين السدوميين والآشوريين وانتهى بهزيمة السدوميين. وأسر لوط وابنتاه وزوجه الذين حاربوا بناء على عهد لوطٍ مع ملك سدوم.

تحركت كتائب الايمان على رأسها خليل الله ابراهيم وأليعازر الدمشقي، وخاضوا معركة عنيفة ضد الآشوريين، استخلصوا بها لوطاً وابنتيه وزوجته من الأسر[١].

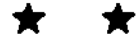
(١) من الجزء الثاني للسيرة النبوية للسحار - هاجر المصرية أم العرب.

الفصل الثامن

لوط عليه السلام وقومه

لسيد قطب

وتمضي عجلة التاريخ ، فيظلّنا عهد ابراهيم - عليه السلام - ولكن السياق لا يتعرض هنا لقصة ابراهيم ، ذلك أن السياق يتحرى مصارع المكذبين ، متناسقاً مع ما جاء في أول السورة : « وكم من قرية أهلكناها ، فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون » ... وهذا القصص انما هو تفصيل لهذا الاجمال في اهلاك القرى التي كذبت بالنذير ... وقوم ابراهيم لم يهلكوا لأن ابراهيم - عليه السلام - لم يطلب من ربه هلاكهم . بل اعتزلهم وما يدعون من دون الله ... إنما تجيء هنا قصة قوم لوط - ابن أخي ابراهيم - ومعاصره ، بما فيها من إنذار وتكذيب وإهلاك ، يتمشى مع ظلال السياق على طريقة القرآن .



«ولوطاً إذ قال لقومه ، أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين؟ .. إنكم لتأتون الرجال - شهوة - من دون النساء . بل أنتم قوم مسرفون . وما كان جواب قومه إلا أن قالوا : أخرجوهم من قريتكم ، إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطراً ، فانظر كيف كان عاقبة المجرمين » .

وتكشف لنا قصة قوم لوط عن لونٍ خاص من انحراف الفطرة، وعن قضية أخرى غير قضية الألوهية والتوحيد التي كانت مدار القصص السابق، ولكنها في الواقع ليست بعيدة عن قضية الألوهية والتوحيد.

ان الاعتقاد في الله الواحد يقود الى الاسلام، لسننه وشرعه. وقد شاءت سنة الله ان يخلق البشر ذكراً وأنثى. وأن يجعلها شقين للنفس الواحدة تتكامل بهما، وأن يتم الامتداد في هذا الجنس عن طريق النسل، وأن يكون النسل من التقاء ذكرٍ وأنثى. ومن ثم ركبهما وفق هذه السنة صالحين للالتقاء، صالحين للنسل عن طريق هذا الالتقاء، مجهزين عضوياً ونفسياً لهذا الالتقاء... وجعل اللذة التي ينالانها عندئذ عميقة، والرغبة في إتيانها أصيلة. وذلك لضمان أن يتلاقيا فيحققا مشيئة الله في امتداد الحياة، ثم لتكون هذه الرغبة الأصيلة وتلك اللذة العميقة دافعاً في مقابل المتاعب التي يلقيانها بعد ذلك في الذرية، من حمل ووضع ورضاعة، ومن نفقة وتربية وكفالة... ثم لتكون كذلك ضماناً لبقائهما ملتصقين في أسرة، تكفل الاطفال الناشئين، الذين تطول فترة حضانتهم أكثر من أطفال الحيوان، ويحتاجون الى رعاية أطول من الجيل القديم هذه هي سنة الله التي يتصل إدراكها والعمل بمقتضاها بالاعتقاد بالله وحكمته ولطف تدبيره وتقديره ومن ثم يكون الانحراف عنها متصلاً بالانحراف عن العقيدة، وعن منهج الله للحياة.

ويبدو انحراف الفطرة واضحاً في قصة قوم لوط، حتى أن لوطاً ليجبههم بأنهم بدع دون خلق الله فيها، وأنهم في هذا الانحراف الشنيع غير مسبوقين:

«ولوطاً إذ قال لقومه: أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين؟ انكم لتأتون الرجال - شهوة - من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون».

والاسراف الذي يدمغهم به لوط هو الاسراف في تجاوز منهج الله الممثل في الفطرة السوية. والاسراف في الطاقة التي وهبهم الله اياها، لأداء دورهم في

امتـداد البشرية ونمو الحيـاة ، فإذا هم يريقونها ويبعثرونها في غـير موضع الاخصاب . فهي بحر (شهوة) شاذة . لأن الله جعل لذة الفطرة الصادقة في تحقيق سنة الله الطبيعية . فإذا أوجدت نفس لذتها في نقيض هذه السنة فهو الشذوذ اذن والانحراف والفساد الفطري . قبل أن يكون فساد الأخلاق . . . ولا فرق في الحقيقة . فالأخلاق الاسلامية هي الأخلاق الفطرية ، بلا انحراف ولا فساد . ان التكوين العضوي للانثى ـ كالتكوين النفسي ـ هو الذي يحقق لذة الفطرة الصادقة للذكر في هذا الالتقاء ، الذي لا يقصد به مجرد الشهوة . انما هو اللذة المصاحبة له رحمة من الله ونعمة اذ يجعل القيام بتحقيق سنته ومشيئته في امتداد الحياة ، مصحوباً بلذة تعادل مشقة التكليف : فأما التكوين العضوي للذكر ـ بالنسبة للذكر ـ فلا يمكن أن يحقق لذة للفطرة السليمة ، بل ان شعور الاستقذار ليسبق ، فيمنع مجرد الاتجاه عند الفطرة السليمة .

وطبيعة التصور الاعتقادي ، ونظام الحياة الذي يقوم عليه ، ذو أثر حاسم في هذا الشأن . . . فهذه هي الجاهلية الحديثة في أوروبا وفي أمريكا ينتشر فيها هذا الانحراف الجنسي الشاذ انتشاراً ذريعاً . بغير ما مبرر الا الانحراف عن الاعتقاد الصحيح ، وعن منهج الحياة الذي يقوم عليه . وقد كانت هناك دعوى عريضة من الأجهزة التي يوجهها اليهود في الأرض لتدمير الحياة الانسانية لغير اليهود بإشاعة الانحلال العقيدي والخلقي . . . كانت هناك دعوى عريضة من هذه الأجهزة الموجهة بأن احتجاب المرأة هو الذي ينشر هذه الفاحشة الشاذة في المجتمعات! ولكن شهادة الواقع تخرق العيون . ففي أوروبا وأمريكا لم يبق ضابط واحد للاختلاط الجنسي الكامل بين كل ذكر وأنثى ـ كما في عالم البهائم ـ وهذه الفاحشة الشاذة يرتفع معدلها بارتفاع الاختلاط ولا ينقص! ولا يقتصر على الشذوذ بين الرجال ـ بل يتعداه إلى الشذوذ بين النساء . . . ومن لا تخرق عينيه ، هذه الشهادة فليقرأ : (السلوك الجنسي عند الرجال) و(السلوك

الجنسي عند النساء) في تقرير ـ كنزي ـ الامريكي...

ولكن هذه الاجهزة ما تزال تردد هذه الاكذوبة، وتسندها الى حجاب المرأة، لتؤدي مـا تريـده بروتوكولات حكمـاء صهيون، ووصـايـا مؤتمرات المبشرين :

ونعود الى قوم لوط! فيتجلى لنا الانحراف مرة أخرى في جوابهم لنبيهم :

« فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ». يا عجباً! أوَ من يتطهر يخرج من القرية إخراجاً ليبقى فيها الملوثون الدنسون؟!

ولكن لماذا العجب؟ وماذا تصنع الجاهلية الحديثة! أليست تطارد الذين يتطهرون، فلا ينغمسون في الوحل الذي تنغمس فيه مجتمعات الجاهلية ـ وتسميه تقدمية، وتحطيماً للأغلال عن المرأة وغير المرأة ـ أليست تطاردهم في أرزاقهم وأنفسهم وأموالهم وأفكارهم وتصوراتهم كذلك، ولا تطيق أن تراهم يتطهرون، لأنها لا تتسع ولا ترحب الا بالملوثين الدنسين القذرين؟ انه منطق الجاهلية في كل حين!!

وتعرض الخاتمة سريعاً بلا تفصيل ولا تطويل كالذي يجيء في السياقات الأخرى :

« فأنجيناه وأهله ـ الا امرأته كانت من الغابرين ـ وأمطرنا عليهم مطراً، فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ».

إنها النجاة لمن تهددهم العصاة. كما أنها هي الفصل بين القوم على أساس العقيدة والمنهج. فامرأته ـ وهي ألصق الناس به ـ لم تنج من الهلاك، لأن صلتها كانت بالغابرين الهالكين من قومه في المنهج والاعتقاد.

وقد أُمطروا مطراً مهلكاً مع ما صاحبه من عواصف . . .ترى كان هذا المطر المغرق ، والماء الدافق ، لتطهير الأرض من ذلك الدنس الذي كانوا فيه ، والوحل الذي عاشوا وماتوا فيه؟! على أية حال لقد طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين المجرمين[1]!

عودة الى ابراهيم عليه السلام للسحار

هاجر ابراهيم الى حبرون ـ الخليل ـ وهناك رزقه الله اسماعيل ـ أي المسموع من الله ـ بينما عاد لوط الى قومه يدعوهم الى الاسلام وهم يزدادون إصراراً وعناداً على كفرهم وفسادهم . حيث شاءت ارادة الله أن تأخذ الكافرين الطغاة بظلمهم . فكانت قصة رسل الله إلى إبراهيم وذبح العجل لهم ، وفي غمرة الاهتمام بالأضياف بشرت سارة رضوان الله عليها بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ـ وإسحاق معناه الضحك ـ وغمرت الفرحة البيت بينما مضى رسل الله الى لوط . وكما ذكر القرآن عنهم ضاق ذرعاً بهم خوفاً عليهم من قومه الذين يأتون الرجال شهوة من دون النساء . وكان هلاك قوم لوط .

« وجاء أمر ربك إنهم آتيهم عذاب غير مردود » .

وعاد لوط الى ابراهيم عليه السلام يتابع الدعوة ، بينما أمر الله ابراهيم بالتوجه بابنه اسماعيل وهاجر زوجه الى أرض الله في الجنوب حيث تركهم لله وعاد .

وكانت قصة زمزم وجوار هاجر وإسماعيل للعماليق وجرهم . وترعرعه بينهم . بينما عاد ابراهيم صلوات الله عليه ليتابع جهاده متوجهاً الى ـ جرار ـ وتعاهد مع ملكها ليتمكن من الدعوة الى الله . أما اسماعيل فكان ينمو حراً طليقاً

(١) في ظلال القرآن . ص١٣١٤ ـ ١٣١٧ .

يعشق الصيد ويتقوّت به ،وأفلح في استئناس أول جواد عربي وامتطاه عائداً الى قومه.

ومع ولوج الظلام ليلة العاشر من ذي الحجة ، واستسلام ابراهيم للنوم. كانت الرؤيا الصادقة بذبح اسماعيل وإذا بالاسلام الذي غمر الكون كله على يدي خليل الله ، يتحرك ثانية فوق كل عواطف الأبوة والأهل والبنوة . وكاد أن يتم الذبح لولا أن فدى الله اسماعيل نبيه بذبح عظيم. بلغ اسماعيل مبلغ الرجال حيث تزوج امرأة جرهمية لم يكتب له الوفاق معها وطلقها برأي أبيه . الى أن تزوج فتاة مصرية وردت الحجاز بناءً على طلب هاجر من مصر. يفاجأ بأبيه زائراً له وفي الخيمة فاض النور الكريم ، وجاء الوحي لإبراهيم يأمره ببناء البيت الحرام ومشاركة اسماعيل له فنفذ الأمر لتوه. بينما كانت أصداء النداء الاسلامي الخالد في الحج تملأه الآفاق وتدفقت أمواج الحجيج ضاجة بالتلبية. لبيك اللهم لبيك. وارتفعت كلمة الاسلام في هذه البقاع المباركة. بينما غمر العرب الفرح وهم يهللون : بكة ، بكة (أي البيت في اللغة السامية).

* * *

أدى خليل الله ابراهيم مهمته في الحجاز تاركاً الدعوة لاسماعيل عليه السلام . وآب قافلاً الى حبرون ـ الخليل ـ ليلقى به النبأ الفاجع ، نبأ وفاة سارة رضي الله عنها أول المؤمنين بالله ورسوله وكان عليه أن يصل بين الدعاة في الأرض لتعلو فيها كلمة الله . فربط بين حاران في العراق منبته الأصلي ، وبين حبرون (الخليل) في فلسطين بأواصر المصاهرة ، حيث زوّج إسحاق برفقة بنت بتوئيل ابن أخيه ناحور ، وقدم إسماعيل لزيارة أبيه وإخوته ، وقد كثر نسله حتى بلغ اثنا عشر ولداً ، على رأسهم بكره نابت بن اسماعيل ، وعلائم الاسلام وأعلامه ترتفع فوق كل صقع ، فيمضي اسماعيل ناشراً دعوته في صقاع اليمن

لتصبح الأرض العربية كلها تمور بالاسلام ، الشام وفلسطين والعراق والحجاز . ولتصبح ذرية ابراهيم حاملة لواء الدعوة بعده صلوات الله عليه . كان على ابراهيم ان يتزوج بعد أن فجع بزوجه هاجر في مكة كذلك ، فتزوج قنطورة بنت مفطور من العرب العاربة ، وُلد له منها مدن ومدين وقيسان وزمران ويسبق وشوح . وكما يقول السحار : (ومرت السنون وجاء اليوم الذي ينتشر فيه هؤلاء في الأرض ، فأمرهم ان يخرجوا حيث يوجههم . فأمر مدن ومدين ان ينزلوا الى الأرض التي سميت مدين فيما بعد ، وأمر قيسان ان يذهب الى مكة وأمر بعضهم أن ينزل خراسان فقالوا له :

يا أبانا أنزلت اسماعيل واسحاق معك ، وأمرتنا ان ننزل أرض الغربة والوحشة؟!

فقال خليل الرحمن في هدوء : بذلك أمرت .

إنه أمر فكان عليه أن ينفذ أمر الله . وخرج مدن ومدين إلى سيناء لتكون ذرية مدين قوم شعيب نبي الله ، وانطلق قيسان الى مكة ليتزوج امرأة من جرهم لتلد له البربر ، وانطلق بعضهم الى خراسان واستولوا على الحكم وسموا ملكهم خاقان . وانتشر دين الله ابراهيم في الآفاق :

« ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه في الدنيا ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين ») .

عندما أغفى إبراهيم عليه الصلاة والسلام إغفاءة الموت كان بنوه جميعاً بجواره ، وقد تفطر قلبهم أسىً وألماً . غير أن وصيته لإسماعيل وإسحاق ويعقوب كانت خالدة :

« يا بنيَّ! إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون » .

ساروا على هدي أبيهم ، وانتشروا في الأرض ، والتحمت وشائج القربى

بجانب وشائج العقيدة حيث تزوج ـ العيص ـ أخو يعقوب عليه السلام ـ محلة ـ بنت عمه اسماعيل، وعلى درب الخلود أسلم اسماعيل روحه لله، وبقي نابت وإخوته يتابعون الرسالة. هداة على الطريق، وحداة لركب الإيمان العظيم »[1].

* * *

ويقول السحار في تذييله على الكتاب الثاني ـ هاجر المصرية أم العرب:

(وقد ذهب بعض الكتاب الاسلاميين[2] في عصرنا هذا الى أن إسماعيل أسطورة من الأساطير وأنه لم يمش في الأرض يوماً. ذلك لأن اسماعيل لم يرد اسمه في نقش من النقوش التاريخية، متبعين بذلك مذهب الشك قبل اليقين، كأنما كشفت بطون الأرض كل أسرارها وكأنما لم يعد هناك تاريخ مطمور) ثم يتابع قائلاً:

(وقام هنري لايرد بالتنقيب في نمرود وتكشف حضارة بابل وآشور، ولما كان بنو إسماعيل الذين انتشروا بين حدود بابل وحدود مصر على صلة وثيقة ببابل وآشور. وقد لعبوا دوراً هاماً في تاريخ المنطقة آنذاك وكانوا يمقتون الآشوريين، ويمدون يد العون لكل أعداء آشور، فقد سجل الآشوريون ما كان بينهم وبين هؤلاء العرب من بني اسماعيل من مناوشات وحروب، وأعلنت ألواح الطين التي كتبت بالخط المسماري، والتي وجدت في أطلال بابل ونينوى وبلاد ما بين النهرين أن بني اسماعيل كانوا حقيقة واقعة، وأن أبناءه الاثني عشر صاروا قبائل قوية تناوىء بابل وآشور ومصر والاغريق والرومان.

---

(١) هذا تلخيص شديد الايجاز لكتاب السحار الثاني: هاجر المصرية أم العرب.

(٢) نستغرب اشد الاستغراب ان يطلق السحار على من يرى في اسماعيل وابراهيم خرافة (من الكتاب الاسلاميين).

وأثبتت الحفريات والنقوش أن اسماعيل عليه السلام كان يمشي في الأسواق، وكان صادق الوعد نبياً).

وفي اعتقادي أن الأستاذ السحار يعني بقوله (عن الكتاب الاسلاميين) أول ما يعني الدكتور طه حسين الذي انتهى في كتابه عن الشعر الجاهلي الى أن ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام كانا خرافة أو أسطورة. لماذا؟

لأن الحفريات التاريخية لم تكشف عن وجودهم.

والذي يؤكد هذا الاعتقاد عندي هو ما حدثني به الأستاذ السحار[1] عن لقاء جرى بينه وبين الدكتور طه حسين، قال فيه السحار لطه حسين:

إن الحفريات الأخيرة في شمال العراق كشفت أن إسماعيل حقيقة واقعة ولم يكن شخصية أسطورية.

فهز الشيخ العجوز برأسه مؤكداً صحة قول السحار ومتابعاً:

وابراهيم، وابراهيم!
أي أن ابراهيم كان كذلك حقيقة واقعة.

قال السحار عندها للشيخ العجوز: فلو تسمحون بنشر مقالٍ أو حديث بسيط على لسانكم في هذا الموضوع. ليعلم الناس رأيكم. اذ أن المشككين في هذين الرسولين أتاهم الشك عن طريقكم.

ولكن طه حسين أخذته العزة بالاثم. واعتبر ذلك تهجماً من السحار عليه وغضب منه ورفض ان يعلن رأيه.

ولكن الحق يبقى دائماً أكبر من الأشخاص. والمسلم الذي يرى بإسماعيل أو ابراهيم خرافة رغم أن القرآن قد ذكرهم على لسان الله رب العالمين، وينتظر

---

(١) كان هذا في بيته وقبل وفاته رحمه الله.

ان تأتي الحفريات لتحقق له رأيه أقل ما يقال فيه أنه ليس من الاسلام في شيء ، وأنه كافر لأنه فقد شرط الايمان بالكتاب والنبي ، الكتاب الذي ذكر ابراهيم واسماعيل ، والنبي الذي انزل الله عليه وحيه.

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربّك أنه على كل شيء شهيد ».

الفصل التاسع

بنو إسماعيل

ننتقل إلى الجزء الثالث- بنو إسماعيل- نجده فتحاً جديداً في كتابة التاريخ. فهو يعرض لنا صفحة الأرض العربية تموج بدورات الهدى والضلال. وفي تناسق عجيب، وتكامل رائع يبدو لنا تاريخ بني اسرائيل وبني اسماعيل مع الآشوريين والبابليين والكنعانيين بدءاً من يعقوب عليه السلام فيوسف ورسالته، ودعوته في مصر ثم موسى وداوود وسليمان ويونس وشعيب وغيرهم.

إن درب الايمان واحد، ورسالته واحدة من لدن آدم عليه السلام. وصراع لا ينتهي مع الكفر في كل لحظة ثم حتمية الصراع، وحتمية النتيجة بانتصار دورة الإيمان في نهاية المطاف.

كان بنو إسرائيل أول من بدّل شرعة الله في الأرض فعبدوا آلهة المصريين في مصر.

أما بنو اسماعيل الذين هاجروا في الأرض دعاة إلى الله، وشكلوا عدة ممالك أهمها مملكة النبط، فلقد تسلل الانحراف إليهم بعد أن رفعوا من قيمة الأحجار التي جلبوها معهم من الكعبة للذكرى إلى مرتبة التقديس والعبادة، وذلك نتيجة اتصالهم بالمصريين عن طريق التجارة.

تهدَّم القدس بعد طغيان اليهود ، وبعد أن يأتيهم الإنذار بالويل والثبور على لسان نبيهم أرميا . ثم تُهدَّم نينوَى مركز الآشوريين بعد طغيانهم وعصيانهم كذلك . وينتهي بنا المطاف في نهاية الكتاب إلى حرب بختنصّر ملك بابل مع بني إسرائيل وبني إسماعيل ، وأخذ اليهود أسارى وسبايا إلى بابل بعد أن التهمت توراتهم النيران .

وفي ثنايا الكتاب تفصيلات مسهبة عن الحروب الجانبية التي لا تني في المنطقة بالإضافة إلى الرحلات التجارية الدائمة . ونلاحظ في هذا الجزء ما يلي :

١ ـ القرآن الكريم هو الذي كان يتكلم فيما كان فيه وحي من الله ممن قصَّ الله قصتهم في كتابه دون أدنى تأثر ولو من بعيد بأيٍّ نصّ من نصوص التوراة ، وفيما لم يقصص الله قصته في كتابه ، يبقى في تجواله ضمن روح القرآن ومفهوم النبوة[1] .

٢ ـ لعله أول من تعقب تاريخ بني إسماعيل حرباً وسلماً وتجارة منذ خروجهم من مكة وانتشارهم في الآفاق ، ويرى أن النبط هم أولاد نابت بن اسماعيل عليه السلام ، ويتحدث عن عدنان أبي العرب العدنانيين أنه خاض معركة مع بختنصر دون أن ينتصر فيها أحد الطرفين ، ومستنداً في عروبة النبط إلى قولٍ لابن عباس رضي الله عنه هو : نحن معاشر قريش من النبط . ويقول في ذلك : « وقد ضيع جهل الاخباريين المسلمين بهذه الدولة كثيراً من الحقائق وجعلهم يتخبطون في تفسير بعض ما لا يمكن تفسيره إذ أهمل تاريخ هذه الدولة التي كانت ركناً هاماً قامت عليه حضارة الإسلام ، فقد كانت لغة قريش لغة القرآن مشتقة من لغة هؤلاء الأقوام وقد قال ابن

---

(١) الجزء الثالث « بنو اسماعيل » ص ٣٤٦ .

عباس: نحن معاشر قريش من النبط.

٣ ـ الكثير من المفسرين يروون قصة داوود عليه السلام التي ذكرها القرآن في قصة النعاج كما تقول التوراة أن لداوود تسعاً وتسعين امرأة وقد حاول اغتصاب زوجة قائده التي أحبها وحاول دفعه إلى القتل. أما الأستاذ السحار فيسوقها بحيث تتسق مع مكان وعظمة النبوة.

«لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط».

ـ قصّا عليّ قصتكما.

ـ إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة وقد قهرني وأخذ نعجتي وضمها إلى نعاجه. كان داوود يتلفت في خوف فقال دون أن يسأل الخصم الآخر: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

يا داوود ما هكذا يكون القضاء حكمت قبل أن تسمع طرفي الخصومة.

ونظر داوود فلم ير شيئاً فعرف أنهما ملكان أرسلا ليفهماه «وظن داوود أنما فتناه فخرَّ راكعاً وأناب فغفرنا له وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب»[١].

ويعقب على هذه الحادثة بقوله: «سامح الله الطبري ومن أخذ عنهم وغفر لي زلتي يوم أخذت عن الطبري هذا الحديث لما كنت أكتب كتابي ـ قصص من الكتب المقدسة ـ فما نسب إلى داوود عليه السلام لا يليق بعباد الرحمن فما بالك بأنبياء الله وأصفيائه؟!

روي عن الإمام علي أنه قال: (من حدَّث بحديث داوود على ما يرويه

(١) «بنو اسماعيل» ـ الجزء الثالث ـ ص ٢١١ ـ ٢١٢

القصاص جلدته مائة وستين جلدة). فقد اعتبر الإمام علي ما يرويه القصاص قذفاً في حق نبي من أنبياء الله »[1].

٤ ـوفي ثنايا الكتاب تتردد البشائر من خلال التوراة ونبوءات بني إسرائيل بالرسول عليه الصلاة والسلام. ففي الحديث عن موسى رسول الله يقول الأستاذ السحار:

« واستمر يصغي إلى ما يوحى به إليه.

ـ أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به. وفهم موسى أن الله سيبعث في إخوته نبياً لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، علمه شديد القوى. ولكن ترى من أي إخوته يبعث ذلك النبي؟. ولم يشأ الله أن يترك رسوله دون أن يوضح له ما شغل باله. إنه يريد أن يعرف من أي إخوته يأتي ذلك النبي فأوحى الله إليه:

ـ جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران.

فاران؟ إنها الأرض التي استقرت بها هاجر وابنها إسماعيل لقد وضح له كل شيء. إن ذلك النبي الذي سينزل عليه الذكر من فاران من أرض هاجر وإسماعيل. إنه من بني إسماعيل. إنه دعوة إبراهيم »[2].

وفي نبوءة أشعيا يقول:

« ... ووحي من جهة بلاد العرب، في الوعر في بلاد العرب يتبيَّن يا قوافل الدادانيين.. هاتوا ماءً لملاقاة العقان يا سكان أرض تيماء. وافوا الهارب (المهاجر) بخبزه، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا. من أمام السيف المسلول،

---

(١) المصدر السابق ـ التذييل ـ ص ٣٥٩

(٢) المصدر السابق ـ الجزء الثالث ـ ص ١٥٤.

ومن أمام القوس المشدودة، ومن أمام شدة الحرب.

واستمر أشعيا في إذاعة ما يوحي إليه علام الغيوب:

هوذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سرت به نفسي وصعدت روحي عليه فيخرج الحق للأمم يصيح ولا يسمع في الشارع صوته، قصبة مرضوضة لا تقصف وفتيلة خامدة لا تطفأ، إلى الأمان يخرج الحق، لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق للأمم، وتنتظر الجزائر شريعته»[1].

وفي تفسير رؤيا بختنصَّر التي رأى فيها كما قال له حنانيا ودانيال وعزير: «رأيت تمثالاً قدماه وساقاه من فخار، وركبتاه وفخذاه من نحاس، وبطنه من فضة، وصدره من ذهب، ورأسه وعنقه من حديد، فبينا أنت تنظر إليه قد أعجبك فأرسل الله عليه صخرة من السماء فدقته فهي التي أنستكها.

- صدقتم فما تأويلها؟

... وكانت الصخرة التي رأيت أرسل الله عليه من السماء فدقته. نبياً يبعثه الله فيدق ذلك أجمع، ويصير الأمر إليه وتستمر مملكة الله في الأرض إلى الأبد»[2].

ويعلق السحار على الرؤيا وتفسيرها بقوله: رأى بختنصر تتابع العصور منذ خلق الله الخلق: عصر الفخار، ثم عصر النحاس ثم عصر الحديد، ثم بزوغ نجم ذلك النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة.

﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون. ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون﴾.

---

(١) «بنو اسماعيل» الجزء الثالث - ص ٢٦٨ - ٢٦٩.

(٢) المصدر نفسه. ص ٣٣١ - ٣٣٥.

٥ - وينقل لنا صوراً متعددة عن دورة التوحيد والشرك في الأرض فيقول :

« عرفت سورية وما حولها التوحيد منذ أيام إبراهيم الخليل بل منذ إدريس ، منذ ذلك الزمن السحيق الذي عرفت فيه مصر الله قبل عهد الأسرات ، وعرفت بلاد ما بين النهرين الله الواحد القهار منذ أن دعا نوح قومه أن يعبدوا الله ما لهم من إله غيره . فلما طال على الناس الأمد قست قلوبهم واتخذوا من أسماء الله الحسنى تماثيل كل تمثال يعبر عن صفة من صفاته ، فآشور : الرحيم،وإيل : الله،وبعل شمين : رب السموات،وآمون : الباطن،وذو الشرى : رب البيت . وتعصبت كل دولة لإلهها وحاربت الدول الأخرى لتكون كلمة معبودها هي العليا ، ونسي الناس جميعاً أنهم يعبدون إلهاً واحداً وإن تعددت أسماؤه وأنه رب العالمين »[1] .

أما ثورة التوحيد التي قادها أخناتون في مصر . فيقدم لنا أخناتون أولاً بقوله :

« كان أخناتون شاباً ضئيل الجسم كبير الرأس برز رأسه من الخلف بروزاً كبيراً . وقد غرست فيه عقيدة التوحيد التي كانت لا تزال منتشرة في قبائل بني إسماعيل وبني إسرائيل وعند بعض الموحدين في الممالك السورية » . ويقول عنه كذلك : « كان أخناتون شاباً مستقيماً وكان يرى في تعدد الآلهة كفراً . فإبراهيم دعا إلى التوحيد في مصر أيام الهكسوس ، وجاء يوسف من بعده ليدعو إلى الله وحده ، ثم جاء موسى في أيام تحتمس الثالث يدعو إلى الله الواحد القهار وما عهد موسى ببعيد ، فتغلغلت دعوة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف والأسباط وموسى في أخناتون حتى النخاع . »[1]

---

(١) المصدر نفسه. ص ٢٢٥ .

ويوضح لنا في جلاء رائع كيف دخلت الوثنية إلى الحنيفية السمحاء عن طريق بني إسماعيل ، ولندْع الحديث له :« وما عاد بنو إسماعيل من مصر إلى أرض النبط حتى كانوا يحملون تمثال امرأة جميلة . وسرعان ما عادت إلى أذهانهم أساطير العرب قبل أن يدعو إبراهيم إلى عبادة الله ، عبادة الإيل . كان العرب قبل أن يعرفوا التوحيد يعبدون الشمس والقمر والنجوم في بابل وفي سيناء وفي اليمن . وكانوا يؤمنون بأن القمر هو رب الأرباب وأن الشمس هي زوجه وأم الآلهة ، وأن عشتار أو عشتر هي ابنتهما أو ابنهما حسب اعتقاد كل قبيلة . فلما جلب النبط تمثال المرأة عادوا إلى أساطير الأولين . إنهم يعبدون الإيل رب الأرباب . فليكن تمثال المرأة الذي جلبوه زوجة الإيل كما كانت الشمس زوجاً للقمر . وأطلقوا عليها الإيلات أي زوجة الإيل وصارت رمزاً للشمس . . وتطور الاسم من الإيلات إلى الليلاي ثم اللات . . . وجلب النبط من مصر فيما جلبوا تمثال إيزيس ووضعوه في معابدهم وسجدوا له ، وأطلقوا عليه العزيزة وجعلوها رمزاً لكوكب الصباح ، ولما كان العرب يميلون إلى تفخيم آلهتهم فقد أطلقوا عليها العزى وجعلوها بنتاً من بنات الله . . . وعرف بنو إسماعيل من البلاد التي جابوها ، التي تعكف على عبادة الأصنام أن للموت إلهاً وللحظ إلهاً وأطلق النبط عليها اسم منوتن التي صارت فيما بعد مناة[1] .

وصارت اللات والعزى ومناة من الأسرة الإلهية الغرانيق العلى ، وصارت شفاعتهن ترتجى .

﴿أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذن قسمة ضيزى . إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾ .

---

(١) « بنو اسماعيل » ـ الجزء الثالث ـ ص ١٧٢ ـ ١٧٤ . (مقتطفات) .

وبذلك يتضح أمامنا بجلاء لا غبش فيه التفسير الإسلامي للتاريخ منذ عهد نوح عليه السلام وإبراهيم وذريته من بعده.

٦ - أما ما لم يستطع أن يصل فيه إلى رأي قاطع حول تحديد زمانه ومكانه. فلم يغمس فيه قلمه، أو يتكلم عن غير علم. فهناك نبيان ورد ذكرهما في القرآن ولم يستطع أن يحدد تاريخهما ومكانهما هما أيوب ويونس عليه السلام. يقول في هذا الصدد: «وكنت قد عزمت أن أكتب تاريخ الأنبياء ما دمت أقص قصة الإسلام منذ إبراهيم الخليل إلى خاتم النبيين، إلا أني وقعت حائراً أمام أيوب فقد اضطربت الروايات في العصر الذي ظهر فيه اضطراباً شديداً لم تضطرب بمثله في شأن الزمن الذي ظهر فيه أي نبي من أنبياء الله. قال بعض مؤرخي التوراة: إنه ظهر في عام ٢٣٠٠ ق.م. أي قبل إبراهيم الخليل الذي قدِّر أنه كان في عام ١٧٥٠ ق.م. وقال آخرون أنه كان في عام ٤٥٠ ق.م. أي في أيام السبي بعد أن حمل نبوخذنصر أسرى بني إسرائيل ويهوذا إلى بابل، وتأرجح مؤرخون وإخباريون آخرون بين هذين التاريخين».

ثم يفند الرأي القائل بجعله قبل إبراهيم قائلاً: «والقرآن الكريم يهدم هذا الرأي فهو يقرر أن أيوب من ذرية ابراهيم.[١] «وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم. ووهبنا له إسحق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل، ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وهارون وكذلك نجزي المحسنين».

ولكن سفر أيوب الموجود في بعض نسخ التوراة مشحون بالصورة المشوهة عن الإله، والفكر المنحرف عنه، فلذلك نأى السحار بنفسه نهائياً عما ورد عنه في هذا السفر. وإن كان قد أشار في تذييل الكتاب الى ناحيتين.

(١) «بنو اسماعيل» - الجزء الثالث - ص ٣٦٣ - ٣٧٣. (مقتطفات).

آ ـ سفر أيوب أقدم ما وصل لنا مكتوباً عن تلك الفترة الموغلة في القدم وقد تناوله النقاد الغربيون بالإعجاب فتوماس كارليل يقول: (إنه واحد من أجل الأشياء التي وعتها الكتابة). وفيكتور هيجو يقول: (إنه ربما كان أعظم آية أخرجتها بصيرة الانسان) ويقول عنه شاف: (إنه يرتفع كالهرم في تاريخ الأدب بلا سابقة ولا نظير).

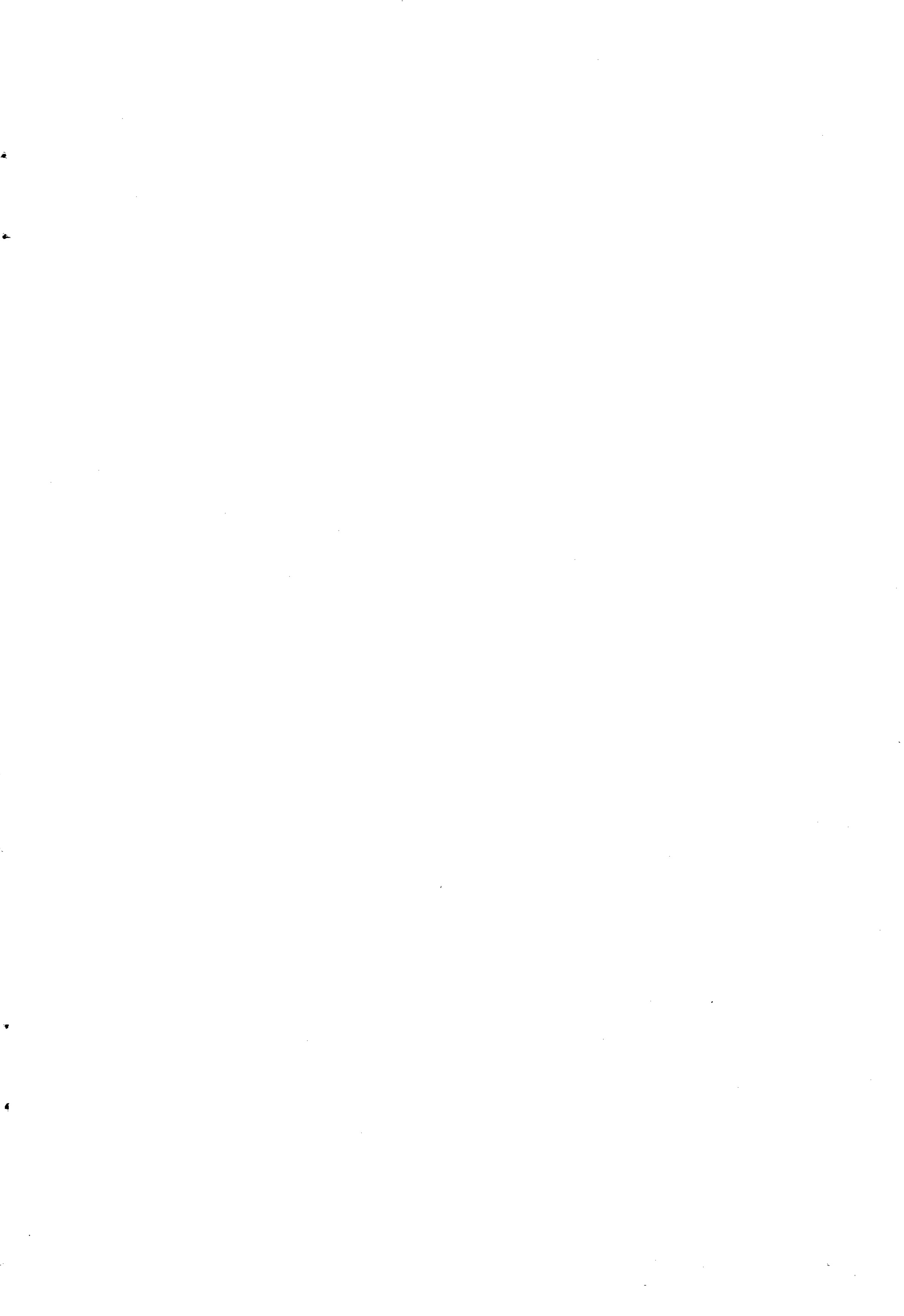
ب ـ يؤكد أن العقيدة السليمة لأيوب لا كما روتها التوراة، بل هي مفهوم إسلامي أصيل عن عبادة الله الغني القدير مع إيضاح جوانب من شريعته حول كون الغني أبَ الفقراء، وأن يستعيذ بالله أن ينظر إنسان إلى امرأة غير امرأته أو مال غير ماله.

ويرجح السحار أنه من نسل العيص أخي إسحق عليه السلام دون أن يؤكد ذلك من غير ترجيح أو تحديد مكاني. وكذلك الرأي لدى الأستاذ السحار بالنسبة ليونس عليه السلام خاصة حول مكان مبعثه بين نينوى وفلسطين، وفي اعتقادي أن نينوى أرجح من فلسطين اعتماداً على ما ورد في السيرة حين التقى عداس مولى شيبة وعتبة ابني ربيعة وهو عائد من الطائف. حين قدم المولى لرسول الله ﷺ قطفاً من عنب فقال عليه السلام: بسم الله. فقال عداس: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد.

- من أهل أي البلاد أنت يا عداس؟
- نصراني وأنا رجل من نينوى.
- قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟
- وما يدريك ما يونس بن متى؟
- ذلك أخي أنا نبي وهو نبي[1].

---

(١) «بنو اسماعيل» ـ التذييل.



الفصل العاشر

شعيب عليه السلام وقومه

ونأتي للصفحة الأخيرة من صحائف الأقوام المكذبة في تلك الحقبة من التاريخ... صفحة مدين وأخيهم شعيب:

(والى مدين أخاهم شعيباً، قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره، قد جاءتكم بيّنة من ربكم، فأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين. ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً، واذكروا اذ أنتم قليل فكثركم، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين. وان كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. قال الملأ الذين استكبروا من قومه: لنخرجنَّك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا او لتعودن في ملتنا. قال: أو لو كنا كارهين؟ قد افترينا على الله كذباً ان عدنا في ملتكم بعد اذ نجانا الله منها. وما يكون لنا أن نعود فيها ـ الا أن يشاء الله ربنا، وسع ربنا كل شيء علماً ـ على الله توكلنا، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين. وقال الملأ الذين كفروا من قومه: لئن اتبعتم شعيباً انكم إذن لخاسرون، فأخذتهم

الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين. الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ، فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم. فكيف آسى على قوم كافرين؟)

* * *

اننا نجد شيئاً من الاطالة في هذه القصة ، بالقياس الى نظائرها في هذا الموضوع ، ذلك أنها تتضمن غير قضية العقيدة شيئاً عن المعاملات ، وان كانت سائرة على منهج الاستعراض الاجمالي في هذا السياق.

« والى مدين أخاهم شعيباً ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره » .

فهي قاعدة الدعوة التي لا تغيير فيها ولا تبديل... ثم تبدأ بعدها بعض التفصيلات في رسالة النبي الجديد : « قد جاءتكم بيِّنة من ربكم » .

ولا يذكر السياق نوع هذه البيِّنة ـ كما ذكرها في قصة صالح ـ ولا نعرف لها تحديداً من مواضع القصة في السور الأخرى ، ولكن النص يشير الى أنه كانت هناك بينة جاءهم بها ، تثبت دعواه أنه مرسل من عند الله ، ويرتب على هذه البيِّنة ما يأمرهم به نبيهم من توفية الكيل والميزان ، والنهي عن الافساد في الأرض ، والكف عن قطع الطريق على الناس ، وعن فتنة المؤمنين عن دينهم الذي ارتضوه :

« فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ، ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً ، واذكروا اذ أنتم قليل فكثَّركم، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين »...

وندرك من هذا النهي أن قوم شعيب ، كانوا قوماً مشركين لا يعبدون الله وحده ، إنما يشركون معه عباده في سلطانه ، وأنهم ما كانوا يرجعون في

معاملاتهم الى شرع الله العادل ، انما كانوا يتخذون لأنفسهم من عند أنفسهم قواعد للتعامل - ولعل شركهم إنما كان في هذه الخصلة - وأنهم - لذلك - كانوا سيئي المعاملة في البيع والشراء ؛ كما كانوا مفسدين في الأرض ، يقطعون الطريق على سواهم ، ظَلَمَةٌ يفتنون الذين يهتدون ويؤمنون عن دينهم ، ويصدونهم عن سبيل الله المستقيم ؛ ويكرهون الاستقامة التي في سبيل الله ، ويريدون ان تكون الطريق عوجاء منحرفة ، لا تمضي على استقامتها كما هي في منهج الله .

ويبدأ شعيب - عليه السلام - بدعوتهم الى عبادة الله وحدهوإفراده ،سبحانه بالألوهية ، والى الدينونة له وحده وافراده من ثم بالسلطان في أمر الحياة كله .

يبدأ شعيب - عليه السلام - في دعوتهم من هذه القاعدة ، التي يعلم أنه منها تنبثق كل مناهج الحياة وكل أوضاعها ؛ كما أنه منها تنبثق قواعد السلوك والخلق والتعامل . ولا تستقيم كلها الا اذا استقامت هذه القاعدة .

ويستصحب في دعوتهم الى الدينونة لله وحده . وإقامة حياتهم على منهجه المستقيم ، وترك الافساد في الأرض بالهوى بعدما أصلحها الله بالشريعة ، يستصحب في دعوتهم الى هذا كله بعض المؤثرات الحية . . . يذكرهم نعمة الله عليهم :

« واذكروا إذ أنتم قليل فكثركم »

ويخوفهم عاقبة المفسدين من قبلهم .

« وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين » .

كذلك يريد منهم أن يأخذوا أنفسهم بشيء من العدل وسعة الصدر ، فلا يفتنوا المؤمنين الذين هداهم الله اليه عن دينهم ، ولا يقعدوا بكل صراط ، ولا يأخذوا عليهم كل سبيل ، مهدّدين لهم متوعدين ، وأن ينتظروا حكم الله بين

الفريقين... ان كانوا هم لا يريدون أن يكونوا مؤمنين:

« وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين ».

لقد دعاهم إلى أعدل خطة ، ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة... نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذى ، وترك كلٍّ وما اعتنق من دين ، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين. ولكن الطواغيت لا يرضيهم ان يكون للإيمان في الأرض وجود ممثل في جماعة من الناس لا تدين للطاغوت. إن وجود جماعة مسلمة في الأرض لا تدين الا لله ، ولا تعترف بسلطان إلا سلطانه ، ولا تحكم في حياتها شرعاً إلا شرعه ، ولا تتبع في حياتها منهجاً إلا منهجه... إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت حتى لو انعزلت هذه الجماعة في نفسها ، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتي موعده. إن الطاغوت يفرض المعركة فرضاً على الجماعة المسلمة - حتى لو آثرت هي ألا تخوض معه المعركة - ان وجود الحق في ذاته يزعج الباطل ، وهذا الوجود ذاته هو الذي يفرض عليه المعركة مع الباطل... إنها سنة الله لا بد أن تجري...

« قال الملأ الذين استكبروا من قومه: لنخرجنَّك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتعودن في ملتنا ».

هكذا في تبجح سافر ، وفي إصرار على المعركة لا يقبل المهادنة والتعايش!

الا أن قوة العقيدة لا تتلعثم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد... لقد وقف شعيب عليه السلام عند النقطة التي لا يملك ان يتزحزح وراءها خطوة... نقطة المسالمة والتعايش - على أن يترك لمن شاء ان يدخل في العقيدة التي يشاء ، وان يدين للسلطان الذي يشاء: في انتظار فتح الله وحكمه بين الفريقين - وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة ،

تحت أي ضغط أو أي تهديد من الطواغيت... وإلا تنازل كلية عن الحق الذي يمثله وخانه... فلما أن تلقى الملأ المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالاخراج من قريتهم أو العودة في ملتهم، صدع شعيب بالحق، مستمسكاً بملته، كارهاً أن يعود في الملة الخاسرة التي أنجاه الله منها، واتجه الى ربه وملجئه ومولاه يدعوه ويستنصره ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله:

« قال: أوَ لو كنا كارهين؟ قد افترينا على الله كذباً! ان عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها، وما يكون لنا أن نعود فيها ـ الا أن يشاء الله ربنا، وسع ربنا كل شيء علماً ـ على الله توكلنا. ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق، وأنت خير الفاتحين ».

وفي هذه الكلمات القلائل تتجلى طبيعة الايمان، ومذاقه في نفوس أهله، كما تتجلى طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه، كذلك نشهد في قلب الرسول ذلك المشهد الرائع... مشهد الحقيقة الإلهية في ذلك القلب وكيف تتجلى فيه.

« قال: أوَ لو كنا كارهين؟ ».

يستنكر تلك القولة الفاجرة. « لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا » يقول لهم: أتجبروننا على ما نكره من ملتكم التي نجانا الله منها؟!

« قد افترينا على الله كذباً ان عدنا في ملتكم بعد اذ نجانا الله منها ».

ان الذي يعود الى ملة الطاغوت والجاهلية، التي لا يخلص فيها الناس الدينونة والطاعة لله وحده، والتي يتخذ الناس فيها أرباباً من دون الله، يقرون لهم بسلطان الله... ان الذي يعود الى هذه الملة ـ بعد اذ قسم الله له الخير وكشف له الطريق، وهداه الى الحق، وأنقذه من العبودية للعبيد ـ انما يؤدي شهادة كاذبة على الله ودينه ـ شهادة مؤداها أنه لم يجد في ملة الله خيراً

فتركها وعاد الى ملة الطاغوت ! أو مؤداها ـ على الاقل ـ أن لملة الطاغوت حقاً في الوجود ، وشرعية في السلطان ، وأن وجودها لا يتنافى مع الايمان بالله ، فهو يعود اليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله... وهي شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدى ، ولم يرفع راية الاسلام. شهادة الاعتراف براية الطغيان. ولا طغيان وراء اغتصاب سلطان الله في الحياة!

وكذلك يستنكر شعيب عليه السلام ما يتهدده به الطغاة من إعادته هو والذين آمنوا معه الى الملة التي أنجاهم الله منها:

« وما يكون لنا أن نعود فيها ».

وما من شأننا أصلاً ، وما ينبغي لنا قطعاً ان نعود فيها ...يقولها ،وأمامه ، التهديد الذي يزاوله الطاغوت في كل أرض مع الجماعة المسلمة ، التي تعلن خروجها عن سلطانه ، ودينونتها لله وحده بلا شريك معه أو من دونه.

ان تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة لله وحده ـ مهما عظمت وشقَّت ـ أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت! وان تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة ـ مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق! ـ انها تكاليف بطيئة طويلة مديدة ، تكاليف في إنسانية الانسان ذاته. فهذه الانسانية لا توجد ، والانسان عبد للانسان. وأي عبودية شر من خضوع الانسان لما يشرعه له انسان!؟... وأي عبودية شر من تعلق قلب انسان بإرادة انسان آخر ، ورضاه أو غضبه عليه؟! وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر انسان بهوى انسان مثله ورغباته وشهواته؟! وأي عبودية شر من أن يكون للانسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء انسان؟!

على أن الأمر لا يقف عند حد هذه المعاني الرفيعة. انه يهبط ويهبط. حتى يكلف الناس ـ في حكم الطواغيت ـ أموالهم التي لا يحميها شرع ولا يحوطها

سياج. كما يكلفهم أولادهم اذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من التصورات والأفكار والمفهومات والأخلاق والتقاليد والعادات، فوق ما يتحكم في أرواحهم وفي حياتهم ذاتها، فيذبحهم على مذبح هواه، ويقيم من جماجمهم وأشلائهم أعلام المجد لذاته والجاه! ثم يكلفهم أعراضهم في النهاية... حيث لا يملك أب ان يمنع فتاته من الدعارة التي يريدها بها الطواغيت، سواءً في صورة الغصب المباشر - كما يقع على نطاق واسع على مدار التاريخ - أو في صورة تنشئتهن على تصورات ومفاهيم تجعلهن نهباً مباحاً للشهوات تحت أي شعار أو تمهد لهن الدعارة والفجور تحت أي ستار... والذي يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه وبناته في حكم الطواغيت من دون الله إنما يعيش في وهم، أو يفقد الاحساس بالواقع!

ان عبادة الطاغوت عظيمة التكاليف في النفس والعرض والمال... ومهما تكن تكاليف العبودية لله، فهي أربح وأقوم حق بميزان هذه الحياة. فضلاً عن وزنها في ميزان الله.

يقول السيد أبو الأعلى المودودي في كتاب - الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية - :

« ... وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحياة الانسانية، لا يخفى عليه ان المسألة - التي تتوقف عليها قضية صلاح الشؤون البشرية وفسادها - انما هي مسألة زعامة الشؤون البشرية ومن بيده زمام أمرها. وذلك كما نشاهد في القطار أنه لا يجري الا الى الجهة التي يوجهه اليها سائقه. وأنه لا بد للركاب أن يسافروا - طوعاً أو كرهاً الى تلك الجهة نفسها. فكذلك لا يجري قطار المدنية الانسانية الا الى وجهة يوجهه اليها من بأيديهم زمام أمر تلك المدنية. ومن الظاهر البيّن ان الانسانية بمجموعها لا تستطيع بحالٍ من الأحوال ان تأبى السير على تلك الخطة التي رسمها لهم الذين بأيديهم وسائل الأرض وأسبابها

طراً ، ولهم الهيمنة كل الهيمنة على أزمة الأمر ، وبيدهم السلطة المطلقة في تدبير شؤون الانسانية . وتتعلق بأذيالهم نفوس الجماهير وآمالهم . وهم يملكون أدوات تكوين الأفكار والنظريات وصوغها في قوالب يحبونها . وإليهم المرجع في تنشئة الطباع الفردية ، وانشاء النظام الجماعي ، وتحديد القيم الأخلاقية . فإذا كان هؤلاء الزعماء والقواعد ممن يؤمنون بالله ويرجون حسابه . . . فلا بد لنظام الحياة بأسره ان يسير على طريق من الخير والرشد والصلاح . وان يعود الخبثاء الأشرار الى كنف الدين ويصلحوا شؤونهم ـ وكذلك تنمو الحسنات ويزكو غراسها ، وأقل ما يكون من تأثير المجتمع في السيئات أنها لاتربو ان لم تمحق وتنقرض آثارها . وأما اذا كانت هذه السلطة ـ سلطة الزعامة والقيادة والامامة بأيدي رجالٍ انحرفوا عن الله ورسوله . واتبعوا الشهوات ، وانغمسوا في الفجور والطغيان ، فلا محالة أن يسير نظام الحياة بقضه وقضيضه على البغي والعدوان والفحشاء ، ويدب دبيب الفساد والفوضى في الأفكار والنظريات والعلوم والآداب والسياسة والمدنية والثقافة والعمران والاخلاق والمعاملات والعدالة والقانون برمتها ، وتنمو السيئات ويستفحل أمرها » .

« والظاهر ان أول ما يطالب به دين الله عباده ، أن يدخلوا في عبودية الحق كافة مخلصين له الطاعة والانقياد ، حتى لا يبقى في أعناقهم قلادة من قلائد العبودية لغير الله تعالى ، ثم يتطلب منهم ألا يكون لحياتهم قانون الا ما أنزله الله تعالى ، وجاء به الرسول ، ثم ان الاسلام يطالبهم ان ينعدم من الأرض الفساد ، وتستأصل شأفة السيئات والمنكرات الجالبة على العباد غضب الله تعالى وسخطه . وهذه الغايات السامية لا يمكن أن يتحقق منها شيء ما دامت قيادة أبناء البشر وتسيير شؤونهم في الأرض بأيدي أئمة الكفر والضلال ، ولا يكون من أمر أتباع الدين الحق وأنصاره الا ان يستسلموا لأمر هؤلاء وينقادوا لجبروتهم . يذكرون الله قابعين في زواياهم منقطعين عن الدنيا

وشؤونها، مغتنمين ما يتصدق به هؤلاء الجبابرة عليهم من المسامحات والضمانات!
ومن هنا يظهر ما للامامة الصالحة وإقامة نظام الحق من أهمية خطيرة تجعلها من غايات الدين وأسسه. والحق ان الانسان لا يمكنه أن يبلغ رضى الله تعالى بأي عمل من أعماله اذا تناسى هذه الفريضة وتقاعس عن القيام بها. ألم تروا ما جاء في الكتاب والسنة من ذكر الجماعة ولزومها والسمع والطاعة، حتى ان الانسان ليستوجب القتل اذا خرج من الجماعة، ولو قيد شعرة، وان صام وصلى وزعم أنه مسلم. وهل لذلك من سبب سوى أن غرض الدنيا الحقيقي، وهدفه انما هو إقامة نظام الحق، والامامة الراشدة وتوطيد دعائمه في الأرض. وكل ذلك يتوقف تحققه على القوة الجماعية، والذي يضعضع القوة الجماعية ويفت في عضدها، **يجني على الاسلام وأهله جناية لا يمكن جبرها وتلافيها بالصلاة ولا بالإقرار بكلمة التوحيد** .. . ثم انظروا الى ما كسب «الجهاد» من المنزلة العالية والمكانة الرفيعة، حتى إن القرآن ليحكم بالنفاق على الذين ينكلون عنه ويثاقلون الى الأرض. ذلك أن الجهاد هو السعي المتواصل والكفاح المستمر في سبيل إقامة نظام الحق، ليس غير. وهذا الجهاد هو الذي يجعله القرآن ميزاناً يوزن به ايمان الرجل واخلاصه للدين، وبعبارة أخرى أنه من كان يؤمن بالله ورسوله لا يمكن أن يرضى بتسلط النظام الباطل، **أو يقعد عن بذل نفسه وماله في سبيل اقامة نظام الحق**. فكل من يبدو في أعماله شيء من الضعف والاستكانة في هذا الباب، فاعلم انه مدخول في ايمانه، مرتاب في أمره. فكيف ينفعه عمل من أعماله بعد ذلك؟» «ان اقامة الامامة الصالحة في أرض الله لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة في نظام الاسلام، فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق، لا ينتهي عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لإفراغ حياته في قالب الاسلام ولا تبرأ ذمته من ذلك فحسب، بل يلزمه بمقتضى ذلك الايمان أن يستنفد جميع قواه ومساعيه في انتزاع زمام الأمر من أيدي

الكافرين والفجرة والظالمين ، حتى يتسلمه رجال ذوو اصلاح ممن يتقون الله ويرجون حسابه ، ويقوم في الأرض ذلك النظام الحق المرضي عند الله الذي به صلاح أمور الدنيا وقوام شؤونها »[1].

إن الاسلام حين يدعو الناس الى انتزاع السلطان من أيدي غاصبيه من البشر ورده كله لله ، انما يدعوهم لانقاذ انسانيتهم وتحرير رقابهم من العبودية للعبيد ، كما يدعوهم الى انقاذ أرواحهم وأموالهم من هوى الطواغيت وشهواتهم ... انه يكلفهم أعباء المعركة مع الطاغوت ـ تحت رايته ـ بكل ما فيها من تضحيات ، ولكنه ينقذهم من تضحيات أكبر وأطول ، كما أنها أذل وأحقر ، ويدع له قياده وزمامه ويعلن خضوعه واستسلامه .

« الا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شيء علماً » ...

انه يفوض الأمر لله ربه ، في مستقبل ما يكون من أمره ، وأمر المؤمنين معه ... إنه يملك رفض ما يفرضه عليه الطواغيت ، من العودة في ملتهم ؛ ويعلن تصميمه والمؤمنين معه على عدم العودة ؛ ويعلن الاستنكار المطلق للمبدأ ذاته ... ولكنه لا يجزم بشيء عن مشيئة الله به وبهم . فالأمر موكول الى هذه المشيئة ، وهو والذين آمنوا معه لا يعلمون ، وربهم وسع كل شيء علما . فإلى علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم .

انه أدب ولي الله مع الله ، الأدب الذي يلتزم به أمره ، ثم لا يتأبى بعد ذلك على مشيئته وقدره . ولا يتأبى على شيء يريده به ويقدره عليه .

وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم ووعيدهم ، ويتجه الى وليه بالتوكل الواثق ، يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق .

---

(١) مقتطفات من مقدمات كتاب « الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية » للمودودي .

« على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق . وأنت خير الفاتحين » .

وهنا نشهد ذلك المشهد الباهر : مشهد تجلي حقيقة الألوهية في نفس ولي الله ونبيه . . .

انه يعرف مصدر القوة وملجأ الأمان ، ويعلم أن ربه هو الذي يفصل بالحق بين الايمان والطغيان . ويتوكل على ربه وحده في خوض المعركة المفروضة عليه وعلى المؤمنين معه ، والتي ليس منها مفر . الا بفتح من ربه ونصر .

عندئذ يتوجه الملأ الكفار من قومه الى المؤمنين يخوفونهم ويهددونهم . ليفتنوهم عن دينهم : « وقال الملأ الذين كفروا من قومه : لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذن لخاسرون » .

إنها ملامح المعركة التي تتكرر ولا تتغير . . . ان الطواغيت يتوجهون أولاً الى الداعية ليكف عن الدعوة . فإذا استعصم بإيمانه وثقته بربه ، واستمسك بأمانة التبليغ وتبعته ، ولم يرهبه التخويف بالذي يملكه الطغاة من الوسائل ، تحولوا الى الذين اتبعوه يفتنونهم عن دينهم بالوعيد والتهديد ، ثم بالبطش والعذاب . . . انهم لا يملكون حجة على باطلهم . ولكن يملكون أدوات البطش والارهاب ، ولا يستطيعون اقناع القلوب بجاهليتهم ـ وبخاصة تلك التي عرفت الحق ، فما عادت تستخف بالباطل ـ ولكنهم يستطيعون البطش بالمصرّين على الايمان ، الذين أخلصوا الدينونة لله فأخلصوا له السلطان . ولكنه من سنة الله الجارية أنه عندما يتمحض الحق والباطل ، ويقفان وجهاً لوجه في مفاصلة كاملة تجري سنة الله التي لا تتخلف . . . وهكذا كان .

« فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا في دارهم جاثمين » .

الرجفة والجثوم ، جزاء التهديد والاستطالة ، وبسط الأيدي بالأذى والفتنة » .

ويرد السياق على قولتهم : « لئن اتبعتم شعيباً إنكم اذن لخاسرون » . . . وهي التي قالوها مهدِّدين متوعدين للمؤمنين بالخسارة! فتقرر - في تهكم واضح - ان الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيباً انما كان من نصيب قوم آخرين :

« الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها . الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين » .

ففي ومضة ها نحن أولاء نراهم في دارهم جاثمين. لا حياة ولا حراك . كأن لم يعمروا هذه الدار ، وكأن لم يكن لهم فيها آثار!

ويطوي صفحتهم مشبعة بالتبكيت والاهمال ، والمفارقة والانفصال من رسولهم الذي كان أخاهم ثم افترق طريقه عن طريقهم ، فافترق مصيره عن مصيرهم ، حتى لم يعد يأسى على مصيرهم الأليم . وعلى ضيعتهم في الغابرين :

« فتولى عنهم ، وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم . فكيف آسى على قوم كافرين ؟ » انه من ملة ، وهم من ملة . فهو أمة وهم أمة . أما صلة الانساب والاقوام . فلا اعتبار لها في هذا الدين ، ولا وزن لها في ميزان الله . فالوشيجة الباقية هي وشيجة هذا الدين ، والارتباط بين الناس انما يكون في حبل الله المتين . . . »[1] .

---

(١) الظلال من ص١٣١٦ الى ١٣٢٢ . ط . دار الشروق .

الفصل الحادي عشر

العـــدنانيّون

إن كان الأستاذ السحار قد عرض لنا في كتابه - بنو إسماعيل - صفحة الأرض العربية. فها هو يبلغ ذروة التوفيق في كتابه - العدنانيون - لأنه يعرض لنا الأرض، كل الأرض بنهضاتها العالمية. حيث صار التاريخ المدوَّن المكتوب واضحاً بين أيدينا، ملقياً الأضواء الكشافة على بواعث هذه النهضات، ومؤكداً بنفس الوقت: التفسير الإسلامي للتاريخ.

يقول في تذييل هذا الجزء: «ذكرت في مقدمة الجزء الأول أني أردت بهذه السيرة أن أفسر التاريخ تفسيراً روحياً وأن أطهر ضمير الانسان من أدران المادية الطاغية، وأن أعيد إليه رفاهيته التي بلغت غايتها في ظل الدين؛ وأننا لو سرنا عبر التاريخ منذ خلق الله آدم لوجدنا أن قمم الحضارة الشامخات قد كونتها نفحات روحية، رفعت الإنسان فوق مطالب الأبدان، وضرورات الغرائز وما تهفو إليه النفوس فأعادت إليه كرامته وسموه، ودفعته في مدارج الرقي لينال خير الدنيا والدين[1]. وبعد أن حدثنا باقتضاب عن التاريخ

---

(١) «العدنانيون» - الجزء الرابع - التذييل ص ٣٣٤.

البشري منذ آدم عليه السلام ، إلى إدريس في مصر قبل عصر الأسرات ، التي نشأت من روحها أقدم حضارة بشرية عرفها التاريخ ، ودعوته إلى عبادة الله وحده واليوم الآخر . انتقل للحديث عن نوح عليه السلام . والحضارة البابلية في العراق التي نشأت من وحي رسالته . ثم كيف ضل الناس فبعث الله إليهم إبراهيم وذريته من بعده فيما نعلم من خلال الكتاب السابق . ليفاجئنا بنقلة بعيدة إلى روابي الهند وهضبة إيران في حديثه عن زرادشت . هذا زرادشت على روابي الهند ، ومن خلال مهنة الرعي التي اختارها ينقطع بعدها للعبادة والتفكر بآلاء الله ثم يهيم على وجهه سائراً على قدميه التماساً للحقيقة في جبال إيران إلى أن جاء إليه - فاهانوما - رئيس الملائكة بالوحي وأمره بالدعوة إلى الله الواحد الخالق إله النور (أهورامزدا) خالق كل شيء بيده الخير وهو على كل شيء قدير[1] ..

ومن المرحلة الفردية إلى مرحلة الدعوة . أتاه الوحي يأمره بالاتجاه إلى ملك إيران لدعوته للدخول في الدين الجديد ، مضى حتى بلغ عاصمة الملك . وبدلاً من أن يصغي قورش ملك إيران إليه ويؤمن معه ، يزجه في غياهب السجن إلى أن يهيء الله الأسباب ثانية لدعوته . ويحدث أن يمرض أخو الملك ، فيبرئه زرادشت بإذن الله مقابل إيمان قورش بالله وحده ، أهورا مزدا . تحرك قورش بالدعوة الجديدة يغزو العالم ، وينتقل من نصر إلى نصر . فيفتح بابل وينقذ اليهود من الأسر وأعادهم إلى القدس ثم أخضع سكان آسيا لسلطان فارس ونشر التوحيد هناك . ويحدثنا السحار عن اتجاهه لغزو الأرض العربية قائلاً : « وتطلع قورش أن يمد سلطانه حتى وادي النيل ولكنه راح يفكر طويلاً فسيطأ بخيله ورجله شعب النبط وشعب قيدار وقبائل بني اسماعيل ، إن وصية زرادشت لا تزال ترن في أذنيه « استمسكوا بماجئتكم به حتى يجيئكم صاحب

(١) المصدر السابق

الجمل الأحمر ». وإن صاحب الجمل الأحمر من هؤلاء وهو يكره أن يسفك دماء قوم سيبعث فيهم ذلك النبي المنتظر، فدعاه فرأى أن يبعث إليهم ليكون بينه وبينهم عهد صداقة ومودة.

تابع قمبيز ابنه، الجهاد بعده، وفتح وادي النيل، وكسر كل الأصنام، داعياً إلى عبادة الله وحده - أهورامزدا - إله النور غير أنه أصابه غرور الانتصار. فقضى منتحراً إثر هزائم وقعت به وأذاقه الله جزاء غروره.

استلم بعد قمبيز دارا (وامتدت الامبراطورية الفارسية بفضل النفخة الروحية التي نفخها زرادشت في الشعب الفارسي إلى بلاد كوش جنوبي مصر، وراح الفرس يحلمون بتحطيم منافسيهم الإغريق والاستيلاء على عاصمة ملكهم أثينا) وتمكن أحشو يرش من اقتحام أثينا عاصمة اليونان. بينما كانت الهند تدفع إلى خزائنه ما يقرب من خمسة آلاف وزنة من الفضة كل سنة. فدعا هذا الرخاء الهائل أحشو يرش للاستسلام للدعة والملذات ضارباً بتعاليم زرادشت عرض الحائط.

أما اليهود الذين كانوا معه، فقد قدّموا له عاهرة اسمها استر استولت على لبه، وامتلأ القصر بالنساء والمغنيات واستطاعت أن تكبح جماح غضبه على اليهود. (وراح مردخاي عم إستر. يقدم إلى الملك أسراباً من العذارى ليشغله باللذة عن المظالم الواقعة في ملكه، فصارت المملكة الفارسية الهائلة الممتدة من الهند وفارس إلى كوش مرتعاً خصباً لليهود. فرضوا عن إستر وقدسوها، ودوّنوا قصتها في التوراة وصارت إستر القديسة)[1].

وبدأت المادية الطاغية تنخر في البنيان الأشم الذي أقامته نفخة زرادشت. الروحية.

---

(١) « العدنانيون » - الجزء الرابع - ص ٣٩.

ولننتقل إلى النهضة العالمية الثانية نهضة اليونان.

(كان أفلاطون على الرغم من تعدد الآلهة في أوليمب يؤمن بإله واحد. وكان يأمل أن لا يفنى في التراب متى شرب كأس الردى، وأثّر أفلاطون في حكام أثينا، فنفخ فيهم روحاً وثّابة تتطلع إلى العدل وتحقيق الحكومة العادلة. فإذا بآمالهم تتسع ليضموا العالم في دولة واحدة، وسرت في اليونانيين نفخة الروح، ولكنها نفخة كالبصيص من أثر الفلاسفة، نفحة ستدفعهم دفعة لن تطول، فتأثر فيليب المقدوني فيه. واتخذ تلميذه أرسطو معلماً لولده الإسكندر. وراح أرسطو يلقن تلميذه الإسكندر أن الله روح العالم فهو المحرك الأول الذي لا يتحرك، يحرك كل شيء وينظمه حسب القوانين الأزلية. وأنه حقيقة العالم الفعلية. فقام الإسكندر الشاب بفضل تلك النفحة الروحية يغزو العالم).

(وقعت المجزرة بين اليونان وفارس ولم يخسر فيها الإسكندر إلا أربعمائة وخمسين رجلاً بينما خسر دارا ألف ومائة رجل قُتل معظمهم وهم يولون الأدبار. ورأى أن يغزو سورية ومصر حتى يقطع على فارس كل إمدادات محتملة فانطلق إلى سورية فقوبل بالترحيب. وغزا مصر وبنى الاسكندرية. وعاد منها إلى بابل وبعد مسيرة عشرين يوماً وصل جيشه إلى السوس واستولى عليها. بينما كان دارا قد حشد جيشاً جديداً عدته ألف ألف مقاتل يتألف من فرس وميديين وبابليين وسوريين. فالتقى معه الإسكندر وعند كواكمبلا صار الفرس حصيد سيوف الإسكندر وجنوده. وتبدد شمل الجيش الفارسي في يوم واحد. واختار دارا مرة أخرى أن يفر من الميدان فنادى الاسكندر أن يؤسر دارا ولا يقتل. بيد أن رجلين من حرس دارا طعناه من خلفه، وقد أرادا بطعنهما إياه الحظوة عند الاسكندر وأتاه الرجلان اللذان وثبا على دارا يطلبان الجزاء فالتفت إلى من عنده وقال: اضربوا رقبتيهما واصلبوهما

ولاحت الدهشة في وجه الرجلين واستولى عليهما رعب شديد فقال لهما الإسكندر: هذا جزاء من غش أهل بلده.

وامتد ملك الاسكندر شرقاً وغرباً فعزم على أن يتخذ بابل عاصمة امبراطوريته. وقبل أن ينفّذ وعيده بغزو جزيرة العرب مات في بابل، ولما يتجاوز الثالثة والثلاثين. وبموت الإسكندر ماتت أحلامه فقد كان يؤمن بفكرة فلسفية، وما كان قواده يؤمنون بها. فلو كان الإسكندر يحمل دعوة دينية لها مؤمنون بها لقام خلفاء الإسكندر بنشر ذلك الدين. ولذلك سرعان ما ذابت امبراطورية الشاب الكبير وقُسّمت بين قواده. وكان منهم من لا يفهم أفلاطون ولا فلسفته بل كان فيهم من يرتاب في الفلسفة ويرى أنها وسيلة شيطانية للقضاء على الأخلاق والتراث)[1].

أما النهضة الرومانية. فيقول السحار عنها:

(وفي ذلك الوقت الذي اشتدت فيه الحرب بين الدين والفلسفة في اليونان كانت تتكون في إيطاليا دولة رومانية متدينة تعيش بالدين وللدين، فقد كان الطفل الروماني يشب في عالم تحف في جنباته الروح، فهو تلقن منذ نعومة أظفاره أن نار الموقد الذي لا تخمد ليست إلا رمز الآلهة فستاومادتها، وأنها هي الشعلة المقدسة التي ترمز إلى حياة الأسرة إلى دوامها. وإن الإله يانوس يحوم حول وصيد الباب وإن كانت الأعين لا تراه، وهو ذو وجهين يرقب الداخلين من كل باب والخارجين منه. وأن الأب رب والأم رب من الأرباب)[2].

ونحب أن نؤكد هنا أن ما سماه السحار ديناً، ونهضة دينية في روما، وهي غارقة في الشرك والوثنية من القمة إلى القدم هي نظرة خاطئة ولا شك.

---

(١) ليس لي الا الجمع والترتيب في الحديث عن نهضة اليونان. فكل النصوص مقتبسة بألفاظها من الكتاب.

(٢) «العدنانيون» - الجزء الرابع - ص ١٤٥.

وحشرها هكذا ضمن التفسير الروحي للتاريخ يعتبر نشازاً فيما اختطه وسلكه. فليس اسم الآلهة أو الأرباب هو الذي يُحرَص عليه لتأكيد النهضة الدينية.

إن الذي نعنيه بالضبط هو ما قام على دين منزلٍ من عند الله مباشرة أو عن طريق التأثير. ونحن نعتقد كمسلمين أن روما في شركها ووثنيتها لا بد وأن تكون انحرفت عن دين سماوي وتأثرت فيه. وكوننا لم نستطع إلى الآن معرفة ذلك لا ينفي هذه المسلمة الإسلامية، التي قال القرآن عنها: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾. ونحن لا نوقف إيماننا على مكتشفات علم أو نتائج حفريات وآثار. ويكفينا عن تلك الفترة الوثنية الطويلة قول الأستاذ السحار نفسه: (وعلى مر الأيام ساد الظلم في الأرض، واستعبد الانسان أخاه الإنسان، ونشر الرومان الفسق واللواط في البلاد التي خضعت لهم، وغرقت الحضارة في ظلمات المادة، ومن خلال ذلك الليل السرمد أشرق نور السيد المسيح)[1].

* * *

ولا بد من وقفة على بني إسرائيل وبني إسماعيل في أتون هذه الحرب العالمية:

يلخص لنا الأديب السحار التطور التاريخي لليهود منذ أن نالهم ذلك الأسر على يدي بختنصر فيقول:

«ونسي اليهود في أرض السبي الحياة الأخرى، واعتنقوا ما كان يعتنقه البابليون من أن الانسان يذهب بعد الموت إلى الأرض التي لا رجعة منها. إلى أرض الظلام وأطلقوا عليها شيول ثم قالوا: إن الانسان يثاب على أفعاله ويعاقب عليها في الحياة الدنيا وراحت التوراة الجديدة تروي تاريخ اليهود

(١) المصدر السابق ـ التذييل ص ٣٣٤.

فرفعت إستر إلى مرتبة القداسة. ولما كان اليهود في ذلك الوقت أذلةً ملطخين في العار فقد ألصقوا بالرسل والأنبياء كل نقيصة، وجعلوهم يعاقرون الخمر ويرتكبون الفواحش ويضطجعون مع بناتهم ولا يتورعون عن الكذب والزنا وإتيان الفسوق. كان اليهود في فلسطين في شوق إلى التوراة. فلما جاءهم العزير بما كتب في أرض‌السبي ،ونشبت مناقشات حامية بين يهود أورشليم ويهود السامرة. قال السامريون: إن كانت التوراة قد نزلت على موسى فعلى من نزلت الأحداث التي تروي تاريخ اليهود بعد موسى؟ ومن الذي روى الآيات الجديدة الواردة في التوراة بعد موسى؟ ومن الذي روى الآيات الواردة في التوراة الجديدة بعد الاصحاحات الخمسة الأولى؟ ومن الذي جعل إستر قديسة)[1]. ونلاحظ التطورات التالية من الناحية التاريخية عقب هذا الضياع والانحراف:

١ - يحيى عليه السلام يأتي مبشراً بالمسيح صلوات الله عليه يهاجم انحراف اليهود وطغيانهم فيسجنه هيرود ملك يهود وكان قد اغتصب - هيروديا - زوجة أخيه وتزوجها من غير أن يطلقها أخوه. فأكل الحقد قلب هيروديا على يحيى. وأوعزت لابنتها سالومي الراقصة الماجنة أن تطلب رأس يحيى في طست من الفضة. وفي ذروة بربريته ومجونه وافق على طلب سالومي ابنة عشيقته هيروديا وذبح يوحنا شهيداً على طريق الاسلام الخالد.

٢ - عيسى عليه السلام ينطلق داعياً إلى الله يجوب الآفاق، ويصطدم بالكفرة اليهود، وتتوالى المعجزات على يديه ويزداد الكفار من بني إسرائيل إصراراً على أنه سحر مبين. بينما يؤمن الحواريون فيه. وتحتدم المعركة بين المؤمنين والكافرين بينما يزداد الناس إقبالاً على

---

(١) «العدنانيون» - الجزء الرابع - ص ٨٥ - ٨٦.

دين الله ، ويزداد الكافرون حقداً على حقد .

٣ - يهوذا أحدَ الحواريين يتسلل الشك إلى قلبه . حتى ليدفعه الشك إلى أن يوغر صدر أعداء المسيح عليه لقتله ويدلهم على مكانه . وكان لا بد أن ينال جزاء جريرته . فرفع الله عيسى إليه ، وأوقع شبهه على يهوذا ، وتقبل يهوذا بصدر رحب وصلابة ما ناله من قتل وصلب جزاء خيانته .

٤ - كما بشر زرادشت بالرسول عليه الصلاة والسلام ، وكما بشرت التوراة على لسان موسى ونبوءات بني إسرائيل ،وكان عيسى عليه الصلاة والسلام لا يني يوجه الأنظار دائماً ويبشر بملكوت الله الذي اقترب . وبقدوم الفراقليط المنقذ . فمما قاله : (إني أذهب إلى الله . فإن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الله فيعطيكم (فراقليط) آخر ويمكث معكم إلى الأبد) . وقوله : « أما قرأتم قط في الكتب : الحجر الذي رفضه البنَّاؤون قد صار رأس الزاوية ، من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا لذلك أقول لكم . إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل ثماره » .

ويعقد مقارنة موفقة بين هذا القول والحديث النبوي الذي رواه مسلم في صحيحه : « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه . فجعل الناس يطوفون به ويعجبهم البناء فيقولون : ألا وُضِعتْ ها هنا لبنة فيتم البناء . فأنا اللَّبنة جئت فختمت الأنبياء » .

٥ - يحدثنا عن بولص الذي كان يضطهد المسيحيين وينزل بهم ألواناً من العذاب ، ثم يؤمن به فجأة ويدعي أن الله قد أوحى إليه ، ويصبح داعية للمسيحية الجديدة . وهي تختلف برمتها عما جاء به المسيح صلوات الله عليه لأنها منتزعة من الأسطورة السورية الوثنية عن بعل الإله وكما يقول

عنها الأستاذ السحار :

« واستمر في دعوته يستمد أقواله من أسطورة بعل التي حضرت في ضميره فقال إن المسيح قام من الأموات كما قام بعل إله الوثنيين قبله. وإنه في السماء يدين الناس ويحكم بينهم. وأقبل الناس عليه يصغون إلى أسطورتهم تروى عليهم بأسلوب جديد، فقد صار بعل المسيح، وصار المجرم الذي أطلق سراحه بعد المحاكمة (باراباس) وصارت المرأة التي شاهدت قيام المسيح من الأموات مريم المجدلية، ولم يجد الناس فيما يقول بولص شيئاً غريباً فقد ردت إليهم معتقداتهم بعد أن كان المسيح وحواريوه يسفهون أحلامهم »[1].

وكان هذا أول انحراف دخل إلى المسيحية قبل كتابة الأناجيل وصدق قول الله تعالى فيهم :

﴿قل يا أهل الكتاب لا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾ - الأنعام.

* * *

أما الجولة في بني إسماعيل فكانت من الناحية التاريخية على الشكل التالي :

١ - عندما دارت المعركة بين بختنصر وعدنان. كان ولداه معد وعك يتجهان صوب مكة بأوامر أبيهم. مركز العبادة الصافية آنذاك والبريئة من الشرك والوثنية. ونجح معد في إعادة الحيوية لدين إبراهيم في البيت الحرام خلواً من الوثنية. وأخذ العدنانيون ولاية البيت بعد بغي مرَّ جُرهم.

٢ - تتالى على مكة من يجدد شباب الإيمان فيها وعلى رأس هؤلاء إلياس بن

---

(١) « العدنانيون » - الجزء الرابع - ص ٢٩٦.

مضر الذي كان يذكّر الناس أبداً بالله واليوم الآخر ثم وكيع بن سلمة بعده. وانتقلت ولاية البيت من الإياديين إلى المضريين.

٣ - أول ما تسلل الشرك إلى البيت الحرام عن طريق عمرو بن يحيى بن قمعة بن إلياس بن مضر. حيث ناله الغرور فراح يشرع للناس ما لم يأذن به الله تحريماً وتحليلاً. وفي بعض أسفاره للشام، أعجبته أصنام النبط فجلبها معه ووضعها في الكعبة. وتطورت التلبية مع الزمن بحيث تحتضن الشرك والوثنية.

لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك.

فكان عمرو بن لحي في الحنيفية كبولص في المسيحية.

٤ - غير أن أصوات الإيمان لم تخفت أبداً. فالحنفاء لم ينقطعوا عن الدعوة إلى التوحيد في مكة وما جاورها كما لم تنقطع أصوات الحواريين الصادقين وأتباعهم تدعو إلى التوحيد كذلك في كل صقع وصلوا إليه.

سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا.

الفصل الثاني عشر

قريش

من اليمن في الجنوب تحركت الكتائب بقيادة تبان أسعد ملك اليمن قاصداً الهند، وراح يقطع الفيافي ويجوب القفار إلى أن وصلها ففتحها. ومن هناك وجَّه جيشاً مع ثابت أحد قواده إلى الصين فأصيب ثابت. مما اضطره أن يمضي بنفسه إلى هناك. وتابع مغامرته الجريئة حتى دانت له أرض الصين. فترك بها اثني عشر ألف فارس في التيبت. وقفل راجعاً إلى بلاده عن طريق العراق. حيث تناهت له الأنباء بمقتل ابنه بيثرب غيلة. فمضى غاضباً إليها، وقد قرر هدمها على رؤوس أهلها. وحين قرر حرق نخيلها جاءه أحبار يهود قائلين:

« أيها الملك إن هذه البلدة محفوظة. فإنَّا نجد اسمها في الكتاب طيبة وأنها مهاجر نبي من بني إسماعيل. يخرج من عند هذه البنية » وأشاروا إلى البيت الحرام في مكة، وأمام دوافع الإيمان العظيم. خشع قلب تبع وسبحت جوارحه بينما دفع هذا الخبر بعض جيشه للاستقرار في يثرب. فشجع رغبتهم وبنى لكل منهم بيتاً ثم بنى داراً فاخرة وقال: « هذه الدار من تبان أسعد إلى النبي المنتظر لينزلها إذا قدم يثرب.

* * *

ولد السيد المسيح في عهد ملوك الطوائف في فارس وقام يدعو إلى الاسلام.

وبعد قرنين من الزمان، قام ساسان في نهضة جديدة بفارس. وراح يحض أبناءه على التمسك بالدين والاستمساك بـ (كتاب زرادشت المقدس) ووجد فيه كما يقول السحار:

« إن زرادشت قد أوصى بالاستمساك بما جاء به إلى أن يجيىء صاحب الجمل الأحمر فراح يحض أبناءه على الاستمساك بالدين، ويؤكد لهم أنه حينما يفعل الإيرانيون الفحشاء سيظهر رجل من العرب يأخذ سرير الملك ويقع المذهب في قبضته ويصير الرؤساء مرؤوسين له. وسيمحق العرب الصور والأصنام وسيطفئون بيوت النيران، ويجعلون مكانها بيوتاً معمورة ليس للأصنام ولا للأوثان فيها مكان. وقد كانت هذه النبوءة حجر الزاوية في سياسة الملوك الساسانيين قبل أبناء الصحراء ».[1]

فقام أردشير ومن بعده سابور ذو الأكتاف بأفظع المجازر في العرب حتى لا يظهر ذلك العربي الذي سيغتصب الملك منهم.

وفي زمن سابور قام ماني ـ يدعي أنه الفراقليط أو المسيح المنتظر تأثراً بما ورد في الانجيل على لسان المسيح عليه السلام (إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم الفراقليط. ولكن إن ذهبت سأرسله إليكم. فإذا جاء ذلك فهو يوبخ العالم على خطيئته). غير أن المجوس كذبوه، وما زالوا عليه حتى صلب وحشي جلده بالقش.

بعد أن جمع النضر بن كنانة العدنانيين حول الكعبة فسمي قريشاً،[1]

(١) اعتمد الاستاذ السحار الرأي القائل بأن النضر بن كنانة هو قرشي وذلك اعتماداً على الحديث النبوي القائل: « نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ولا ننتفي من أبينا ».

وقريش ولده. كانت أنباء المذابح العربية قد وصلت لابنه مالكبن النضر الذي آلت الزعامة إليه بعد موت أبيه، فقرر أن يقوم بزيارة السابور ذي الأكتاف، عله يرفع عن العرب هذه المجازر. وتم اللقاء فعلاً حيث قال فيه مالك لسابور: إذا صدق المنجمون وكان ذلك واقعاً، أيمنع مولاي الملك سفكه لدماء العرب وقوعه: فأطرق سابور في ذهول وقد ملأت نبوءة ساسان عليه وجوده؛ هذه النبوءة التي تقول بانتزاع الملك من إيران حين تسود بينهم الفحشاء فقال ذو الأكتاف الملك الفارسي:

صدقت لا سلطان لي على ما سيكون.

فاهتبل مالك الفرصة وقال: يا أخا الشمس والقمر وسليل الآلهة ترفق بالعرب حتى يترفق بكم الذي سيظهر في العرب ويظهره الله عليكم. وكان القرار الأخير من سابور: لقد وضعت القتل والتعذيب عن العرب.

★ ★ ★

النصرانية تنتشر في الدولة الرومانية. فتشكل تياراً خطيراً على أباطرتها، ويشتد الصراع بين الوثنية والنصرانية هذا من جهة، وبين فرق النصرانية من جهة أخرى. إلى أن تولى قسطنطين الحكم. ومن منام بولص وإحيائه أسطورة بعل الوثنية في سورية إلى منام قسطنطين وتظاهره باعتناق المسيحية. وكان لا بد أن يلم شعث شعبه المتفرق فدعا لمجمع نيقية بعد فشل مساعيه في إعادة آريوس أحد أساقفة الاسكندرية للدخول في تأليه المسيح.

واحتدم النقاش عنيفاً بين آريوس وأتباعه من جهة الذين يتبنون أن المسيح مخلوق لا يرقى إلى منزلة الأب. وبين اثنايوس رئيس شمامسة الاسكندرية وأتباعه دعاة التثليث والتأليه. وحرص قسطنطين على تأييد الطرف الآخر القائل بالتأليه، لأن الوثنية الرومية تجعل الأباطرة أصلاً من سلالة الآلهة وانتهى المجمع إلى القرار التالي:

« نؤمن بالله الواحد الأب مالك كل شيء وصانع ما يرى وما لا يرى وبالابن الوحيد يسوع المسيح ، وتجسد من روح القدس وولد من مريم البتول وصلب أيام بيلاطس ودفن ثم قام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه . وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأحياء والأموات ، ونؤمن بروح الواحد روح الحق الذي يخرج من أبيه وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا ، وبجماعة قدسية مسيحية جاثليقية وبقيام أبداننا بالحياة الدائمة أبد الآبدين »[1] .

وكما يقول السحار : « وأثَّرت الوثنية في المسيحية كما أثَّرت من قبل في اليهودية فقد قال اليهود العزير ابن الله تأثراً بالديانة البابلية أيام المنفى . وقال المسيحيون : المسيح ابن الله متأثّرين بما قاله أثناسيوس رئيس شمامسة الاسكندرية وكانت أسطورة أزريس وحورس وإيزيس متغلغلة فيه حتى النخاع » . وصدق الله القائل :

---

(١) تحدث الاستاذ الشيخ محمد أبو زهرة عن هذا الموضوع في كتابه : ـ محاضرات في النصرانية ـ قائلاً :

« ويقول ابن البطريق المسيحي في وصف المجتمعين وعددهم ما نصه : بعث الملك قسطنطين إلى جميع البلدان مجمع البطاركة والأساقفة ، فاجتمع في مدينة نيقية ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة ، وكانوا مختلفين في الآراء والأديان . . .

اجتمع أولئك المختلفون وسمع قسطنطين مقال كل فرقة من ممثليها فعجب أشد العجب مما رأى وسمع فأمرهم أن يتناظروا مع من الدين الصحيح ، وأخلى داراً للمناظرة ولكنه جنح أخيراً إلى رأي بولس الرسول وعقد مجلساً خاصاً للأساقفة الذين يمثلون هذا الرأي وكانت عدتهم ثمانية عشر وثلاثمائة ويقول في ذلك ابن البطريق : (وضع الملك للثلاثمائة والثمانية عشر أسقفاً مجلساً خاصاً عظيماً وجلس في وسطهم وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه فدفعه إليهم وقال لهم : قد سلطتكم اليوم على مملكتي لتصنعوا ما ينبغي لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين وصلاح المؤمنين ، فباركوا الملك وقلدوه سيفه وقالوا له : أظهر دين النصرانية وذبَّ عنه ، ووضعوا له أربعين كتاباً فيها السنن والشرائع ، منها ما يصلح للملك أن يعمله ويعمل به ، ومنها ما يصلح للأساقفة أن يعملوا به) » ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

﴿وقالت اليهود: عزير ابن الله وقالت النصارى: المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون. اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾[1].

★ ★ ★

كانت أصوات التوحيد لا تنقطع من مكة بعد لوثة عمرو بن لحي - أبي خزاعة - الوثنية. فلقد قام كعب بن لؤي الذي آلت له زعامة قريش يدعو إلى الوحدانية ويبشر بظهور نبي كريم بعد الذي سمعه من أحبار اليهود في يثرب ونصارى العرب الذين يبشرون بالفراقليط ويقول عن نفسه لو أدركه يوم ذلك النبي: «أما والله لئن كنت فيها ذا سمع وبصر لتنصبت فيها تنصب الجمل ولأرقلت فيها إرقال (ضرب سريع من السير) الفحل» وصار يوم العروبة هو يوم الجمعة لأنه اليوم الذي كانت تجتمع فيه قريش إلى كعب بن لؤي. واستطاع حفيده قصي بن كلاب بن مرة بن كعب أن ينتزع ولاية البيت من خزاعة ويحوز أطراف المجد من السقاية والرفادة والحجابة واللواء والندوة ثم وزعها بين ابنيه عبد مناف وعبد الدار[2].

★ ★ ★

دعوة ماني الذي صلب وحشي بالقش من جهة، ونبوءات النصارى عن الفراقليط المنتظر. والتثليث الذي ملأ الأرض من جراء تبني المسيحيين له. والنظر في النجوم والمنجمين الذين يقولون بنبي سيظهر وشيكاً على الأرض، مع نبوءة زرادشت حركت شاباً فارسياً اسمه مزدك، لأن يضع نفسه ذلك

---

(١) سورة التوبة، الآية ٣٠.

(٢) قريش - الجزء الخامس ص ١٦٦.

النبي المنتظر . فقال بثلاثة أركان للنور هي :الماء والنور والتراب . وكذلك ثلاثة أركان للظلمة. ودعا أولاً للزهد فقال : كل سفك للدماء إنما هو عمل يعوق الجهد في سبيل تخليص الأرواح . لكنه رأى بعد ذلك أن الناس لا يستطيعون المعيشة دون لذائذ. فدعا لشيوعية المال وشيوعية النساء . إن الله إنما جعل الأرزاق في الأرض ليقسمها العباد بينهم بالتساوي . بحيث لا يكون لأحدهم أكثر من غيره ، وقد نشأ عدم المساواة بالقوة فكل يريد إشباع رغباته على حساب أخيه . وينبغي أن تكون النساء والأموال شركة بين الناس كاشتراكهم في الماء والكلأ والنار .

« وحدث قحط في فارس فذهب مزدك إلى قباذ شاهنشاه فارس وراح يحاوره وقال له فيما قال : ما حكم من منع رجلاً من الطعام والشراب ،فقال قباذ : ينبغي أن يقتل به . وخرج مزدك من قصر الملك فخف إليه الناس المتجمعين حول القصر زمراً ، فأشار إليهم بيده أن اصمتوا فَسَادَ السكون المكان وأرهفوا أسماعهم وقال لهم مزدك : إن الملك قد أباحكم ما في الأهراء من غلات فابسطوا أيديكم وأينما وجدتم شيئاً فاستبيحوه » .

وانطلق الشعب الجائع ينهب كل ما يقع تحت يده ، وامتلأ الأشراف بالغضب فقد كانت الثروة الفارسية كلها في أيديهم وأوجسوا خيفة من الملك قباذ بن فيروز خشية أن يتحالف الشاهنشاه مع الشيوعية المزدكية لتحطيم قوة الأشراف واستولت المزدكية فترة من الزمن على الحكم في فارس وبعد صراع وحروب انتصر المجوس على خصومهم الشيوعيين المزادك بقيادة كسرى بن قباذ حتى أفنوهم . وآل الملك إليه بعد وفاة أبيه قباذ .

* * *

دخلت اليهودية اليمن مع إسلام بلقيس ملكة سبأ مع سليمان لله رب العالمين . ثم تسللت النصرانية إلى العربية الجنوبية من الشام والعراق وأوربه .

وعندما رأى ذونواس خطر المسيحية، وقد تأثر بقسوة التوراة التي كتبت في بابل أيام السبي فقد أمر بحفر أخدود وأن تؤجج النار فيه وأن يلقى بالنصارى في الجحيم. نصارى نجران الذين كانوا من النساطرة القائلين بربوبية الله ورسالة السيد المسيح كما ذكر القرآن ذلك فيا بعد ﴿والسماء ذات البروج واليوم الموعود، وشاهد ومشهود قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد. الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد﴾[1].

★ ★ ★

تتلاحق الأحداث وتتشابك بعد هذه الفترة على الشكل التالي:

١ - في فارس يعتلي عرشها كسرى بن قباذ بعد هذه المحاورة: أتقبل من الله دين زرادشت الذي قواه كشتاسب بن لهراسب والذي أحياه أردشير بابك. فقال: أقبل وسأعمل على خير رعيتي إن شاء الله.

واشتهر كسرى أنوشروان في عدله الذي طار في الآفاق، وقسوته التي لا ترحم على الطغاة والمستغلين. وعالج الفوضى التي نشرتها الشيوعية المزدكية بإعادة الأولاد للشرعية أو التبني، وأعاد الزواج وبنى المساكن، وراح يحفر الترع ويقيم الجسور الخشبية التي كسرت، ويبني الجسور الحجرية التي انهارت

(١) سورة البروج.

ويقيم الحصون، ويقوي الجيش.

٢ ـ تحرك أبرهة من الحبشة، واستولى على اليمن انتقاماً للمسيحيين الذين قضى عليهم ذو نواس في الفترة التي صادف فيها خراب سد مأرب وانتشار بعض اليمنيين في الأرض.

٣ ـ كان يوسطنيانوس قد اعتلى عرش الامبراطورية الرومانية. وكان من المؤمنين بلاهوت المسيح وناسوته بينما كانت زوجته تيودورا تؤمن بوحدة طبيعة المسيح. غير أن الهزائم كانت تتوالى عليه واستطاع كسرى أن يفتح مدينة هرقل والاسكندرية.

« فلما ماتت الامبراطورة تيودورا دخل زوجها يوسطنيانوس الحزين الى جناحها ليلقي نظرة وداع على ما خلفت من متاع. فإذا به يجد البطريق السابق انثيموس الذي طرده لكفره. إذ كان من المتحمسين لمذهب طبيعة المسيح الواحدة في غرفة من غرفاتها الداخلية. وقد خبأته منذ اثني عشر عاماً. وغضب الامبراطور وأحس أن تيودورا كانت تعصف بأركان ملكه. ولو كان قلب تيودورا ينبض بين جنبيها لقالت لزوجها: لو آمنت يا مولاي بوحدة المسيح لشددت إليك مستعمراتك المؤمنة بوحدة طبيعة المسيح أما وإنك من المؤمنين بلاهوت المسيح وناسوته فأبشر بانفصام وحدة الامبراطورية »[1]

٤ ـ « بينما كانت مكة تشهد قيادات متتالية لهاشم بن عبد مناف. ثم بروز عبد المطلب زعيماً لقريش بلا منازع بعد خلافه مع قومه حول حفر بئر زمزم واحتكامهم لكاهنة بني سعد هذيم. ثم تفجر الماء عند قدمي ناقته إلى أن يضرب الأسياف الذهبية باباً للكعبة وعلق في جوفها الغزالين من الذهب من بقايا ما ردمت جرهم هناك.

---

(١) قريش ـ الجزء الخامس. ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

٥ - وكانت الأرض تنبض بالكراهية. فقد وقعت العداوة بين كسرى أنو شروان ويوسطنيانوس ملك الروم وحارب المنذر ملك الحيرة وحليف الفرس، الحارث بن جبلة ملك الغساسنة حليف الروم، وقد قتل المنذر في المعركة فاشتدت ضراوة نار العداوة بين عرب الفرس وعرب الروم. ووطأت الحبشة بخيلها ورجلها أرض اليمن، وصار أبرهة الأشرم ملك حمير دون منازع... وكانت تلك الدول تعاني من الانقسام في داخلها، وإن كان عواهلها يحاولون أن تبدو أممهم وحدة متماسكة، تقف صفاً واحداً خلف ملكها وقائدها، وصاحب السلطان الديني الذي يزعم أنه خليفة الله في الأرض بفعل ما توحيه له السماء. وإن كانت أبواب السماء قد أغلقت دون الجميع فقد طال عليهم العهد وقست قلوبهم وضلُّوا عن الصراط المستقيم»[1].

---

(١) المصدر السابق - ٢٨١.

الإسلام وحركة التاريخ

كتاب من أنفس الكتب التي تحويها المكتبة العربية والإسلامية. وتأتي قيمة هذا الكتاب من أنه استعرض خط التاريخ الإسلامي من لدن الرسول ﷺ إلى يومنا هذا ودور الإسلام العظيم في رجاله وأحداثه. ومؤلف الكتاب غني عن التعريف وهو الأستاذ أنور الجندي العالم الباحث المؤمن، الذي كرّس حياته لدراسة تراثنا الإسلامي والذود عنه في كل مجال، مجال الأدب والتأريخ والعقيدة وغير ذلك.

وقد تناول مخطط البحث لدى أستاذنا الجندي في تقسيم مراحل التاريخ إلى ستة مراحل هي كالتالي:

١ ـ بناء الجماعة المسلمة خلال ثلاثة وعشرين عاماً ٦٣٠-٦٥٣م
٢ ـ توسع الإسلام وامتداده حتى ١١٤ هـ أو ٧٤١ م
٣ ـ مرحلة بناء الفكر الإسلامي حتى ٤٨٩ هـ أو ١٠٩٦ م
٤ ـ مرحلة أزمة الإسلام والغزو الخارجي حتى ٦٩٩ هـ أو ١٣٠٠ م
٥ ـ مرحلة الوحدات الثلاث حتى ١٢٤٦ هـ أو ١٨٣٠ م
في العالم الإسلامي
٦ ـ مرحلة اليقظة العربية الإسلامية حتى اليوم

أما الخطوط التي كان يتحرك التاريخ الإسلامي فيها فهي:

١ ـ خط التوسع والامتداد ونمو الفكر الإسلامي وتطوره.
٢ ـ خط المقاومة للهجوم الخارجي على الأرض والفكر.
٣ ـ خط بناء الدولة وقادة الفكر.

وسنحاول جاهدين أن نتابع هذه المراحل ضمن الخطوط المذكورة.

الفصل الثالث عشر

أولاً

الإسلام والتاريخ

في مجال صلة التاريخ بالإسلام يقول الأستاذ الجندي :

(والتقى الإسلام بالتاريخ منذ بزغ نوره ، وظل هذا اللقاء ممتداً إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم ، متصلاً مؤثراً بعيد المدى والأثر . فما من حدث من أحداث العالم والإنسانية إلا والإسلام متصل به ومؤثر به ومتفاعل معه) . أما قبل مجيء الإسلام (فكانت البشرية في خلال تطورها الطويل ، ومراحل نموها المتصل تلتقي من خلال موكب التاريخ بالحضارات والأديان ، وبالأنبياء والرسل والهداة على مراحل . وكانت الأديان مصادر للحضارات ، وكانت رسالات السماء ودعوات المصلحين كلها تهدي البشرية إلى الطريق . ولكنها كانت جزئية تقوم في قطر أو أمة أو شعب وتختص به ، وقد يقوم أكثر من هادٍ في وقت واحد في قطرين متجاورين) .

أما عند مجيء الإسلام . فكيف كان حال العالم آنذاك؟

(يجيب ـ داربر ـ على ذلك قائلاً : لما بلغت الدولة الرومية في القوة الحربية أوجها ، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات هبطت في فساد الأخلاق ، وفي الانحطاط في الدين والتهذيب إلى أسفل الدركات . . . أما الفرس فقد كان

الأكاسرة ملوك فارس يدَّعون أن دماً إلهياً يجري في عروقهم. وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة فوق القانون، وفوق البشر، وقد استحوذت على الناس في الامبراطورية الرومانية حياة الترف والبذخ وكان لكسرى أبرويز، ألف امرأة وخمسين ألف جواد). ووضع الجزيرة العربية كان أسوأ حظاً من الجميع وكما يقول الأستاذ الجندي (فإذا ألقينا نظرة على الجزيرة العربية وجدناها قبائل متصارعة ضعيفة تعيش على هامش الحياة، تتطلع إلى الفرس والروم على أنهما مظهر القوة القادرة، والثراء البالغ، والترف الواسع. وهي من دون ذلك معزولة ضعيفة لا تقوى إلا على التجارة في أطراف الجزيرة رحلة الشتاء والصيف، غارقة في الوثنية، مضطربة بين الربا والبغاء والتفكك والصراع القبلي. وإن كانت قريش على قدر من الثقافة والبلاغة والشعر، وتقيم أسواق الجدل وحلبات السجال، ولم تخل من طوائف من الموحدين زهدوا في الوثنية، وأحرار ضاقوا بظلم الطغاة والأثرياء ويترقبون ساعة الخلاص.

أولاً: بناء الجماعة الإسلامية.

وهي فترة الوحي منذ بعثة الرسول ﷺ إلى الوفاة.

يقول الأستاذ الجندي في وصفها وخاصة في المرحلة المكية:

(كانت دار الأرقم بذلك المدرسة الإسلامية الأولى التي جمعت القادة والعلماء وبناة الدول من بعد. وقد علمهم النبي ﷺ في هذه الفترة دروس الصبر والإيمان والثبات والإيثار، فقد بناهم بالقرآن أمة وسطا. فأقاموا مجتمعاً صغيراً بعد أن انقطعوا عن أهليهم، ولم يكن لأغلبهم مورد ولا مال، فكان الرسول يضم الغني إلى الفقير، ويرسل أحدهم هنا أو هناك يعلم القرآن. ومن ثم شهد نظام المؤاخاة أول صورة له في هذا المجتمع ثم تحول إلى نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في مجتمع المدينة. فقد خلط الجميع بين طعامهم وشرابهم وملابسهم وأدواتهم. فلما جهر النبي بالدعوة بعد انضمام

حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب، خرجوا إلى الكعبة فصلوا بها، وفرضوا على مجتمع الوثنية صورة جديدة شابة).

أما عالمية الإسلام فتظهر من خلال (بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي. فتمثل بذلك رمز الطابع الإنساني في دعوة الإسلام. وبدأت نقطة الامتداد من الجزيرة العربية إلى العالم كله من خلال مختلف الأجناس والشعوب، وقد كان هذا الجيل مقدمة لجيلٍ ثانٍ تكوَّن من خلال سنوات استعلاء الدعوة والهجرة وما بعد الهجرة، وقد بُني هذا الجيل في أحضان هذا الرعيل وظل ينظر إليه نظرة الإعجاب بالسبق. وكانت المشاركة في بدر رمزاً للمدرسة الأولى لبذل النفس والاستشهاد. فأعطي أهل بدر درجة متميزة في تاريخ الا سلام. ومن أبرز شباب الجيل الثاني الحسن بن علي والحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن العباس، وعائشة).

أما معقل هذه الجماعة ونقطة انطلاقها فهو المسجد (كان بناء المسجد هو الخلية الأولى للبناء الاجتماعي للجماعة، وبوصفه أداة صهر المؤمنين بالإسلام في وحدة فكرية واحدة، من خلال حلقات العلم والقضاء والعبادة والبيع والشراء[1] وإقامة المناسبات المختلفة. فالمسجد هو مكان الندوة العامة، ومجال المشاورة، ومقر عقد الألوية والجيوش، وإرسال البعوث. فلم يكن المسجد معبداً أو مقراً للصلاة وحدها بل كان شأنه شأن الإسلام نفسه متكاملاً في مختلف جوانب الدين والسياسة والاجتماع).

ثم حدثنا عن العقد السياسي الذي أطلق عليه المؤرخون اسم الصحيفة. (وقد أبرز هذا العقد أمة الإسلام لأول مرة أمة واحدة ـ كما رسم الروابط بين

---

(١) النبع والشراء خارج المسجد إذ قد نهى الاسلام عن البيع والشراء فيه.

المسلمين وبين اليهود... ويعد هذا العقد أول نظام مكتوب قام على أساسه دولة منذ أول تكوينها... على غير نظام القبيلة وعلى غير أساس رابطة الدم).

أما كيف تم البناء. فيحدثنا عنه الأستاذ الجندي بقوله:

(وقد انتظم بناء مجتمع المدينة على مراحل، ونزل التشريع على دفعات دامت على سنوات، وغطى مختلف مسائل الاقتصاد والقانون والاجتماع وأمور البيع والإجارة والربا والقتل والسرقة والزواج والطلاق والميراث، وكان تدرج التشريع في إلغاء الربا والخمر والزنا وغيره يعطي صور الانتقال على مراحل حتى لا يصاب المجتمع باضطراب أو نكسة من جراء الانتقال الفوري أو الطفرة. كما نظم الإسلام أمور المرأة وحقوقها وعلاقتها بالرجل وأمور الزواج والطلاق بما يحقق حماية الأسرة. وصورة المجتمع الإسلامي الأخير عند وفاة الرسول ﷺ. هي كما يقول:

(وفي خلال هذه السنوات العشر في المدينة، تحقق للإسلام أن ينشر ظله على الجزيرة جميعاً فانضوت تحت لواء الإسلام، ثم أتم الرسول الحلقة بإفراد الحج للمسلمين فلا يحج مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. وبذلك قام مجتمع الإسلام الأول منتظماً في الجزيرة العربية، وقد أتم الله الرسالة، وأكملها، وتم نزول القرآن، وكان الرسول ﷺ قد أعلن عموم رسالته بإبلاغ الإسلام إلى الملوك والأمراء على حدود الجزيرة العربية، وأرسل رسله يحملون الرسائل إلى عواهل الفرس والروم والحبشة ومصر معلناً إياهم ومبلغاً. وقد تم التوسع والانتشار وتكوين الجماعة الإسلامية الكبرى... وباختيار الرسول ﷺ للرفيق الأعلى كانت رسالة الإسلام في أيديولوجيتها الكاملة قد تمت واستكملت، ولم تدخل عليها أي إضافات أخرى من بعد، وقد دار الفكر العربي الإسلامي بمختلف مفاهيمه وحركاته وتطوراته من بعد وحتى هذا اليوم، في إطار مفهوم

الإسلام كما رسم القرآن وقام عليه الرسول ﷺ ولم يخرج عنه، وإنما كان الفكر الإسلامي تفسيراً وتحليلاً وتوسيعاً لآفاق الالتقاء بين الإسلام والحياة.

تكامل مفهوم الإسلام[1]

حيث عرضه في اثنتي عشرة فقرة هي: ١ - شرح مفهوم الإسلام.

٢ - الجماعة الإسلامية الأولى محاولة لتطبيق الإسلام في بناء المجتمع والحضارة لتظل صورة مثلى أمام التاريخ كله.

٣ - كل عجب يوجه إلى انتشار الإسلام في أقل من مائة عام من الصين إلى الأندلس يجب أن يرد تفسيره إلى عملية التكوين والبناء والتربية التي قام بها محمد رسول الله لهذه الجماعة المسلمة في مجتمعي مكة والمدينة.

٤ - دور المستضعفين في بناء الدولة الإسلامية.

٥ - الجماعة الإسلامية تنظم نفسها على مفهوم الإسلام ديناً ودولة ومجتمعاً وحضارة.

٦ - عالمية الرسالة.

٧ - تكوين الجماعة التي تقوم على (فكرة) من خلال (رسالة) لأول مرة في التاريخ.

٨ - قوة بناء الشخصية الإسلامية.

٩ - المجتمع الذي يقوم على الإخاء والحب والتسامح والتكافل.

١٠- الإسلام هو إطار الدولة والجماعة.

---

(١) في اعتبار الانتقال على مراحل في المجتمع الاسلامي حتى لا يصاب المجتمع باضطراب أو نكسة، شيء من المغالاة في التصور. لأن هذه المرحلية تحمل سبباً آخر هو عملية التركيز على بناء العقيدة. وهي المرحلة المكية، وما أن ثبتت العقيدة في القلب، حتى كان المجتمع الاسلامي جاهزاً لتنفيذ كل الأحكام التي تأتيه من عند الله. لقد كان الاسلام تغييراً للواقع الجاهلي كله بعد أن تم بناء إنسان العقيدة الذي خلع جاهليته كلها بعد الدخول في الاسلام.

١١ ـ المجتمع الإسلامي في المدينة قام بدعامتين؛ نظام مجتمع، ونظام دولة، والحرب إحدى وسائله للحفاظ على مقاومته ومدافعة خصومه.

١٢ ـ مدرسة الأرقم بن أبي الأرقم في مكة ومدرسة مصعب بن عمير في المدينة كونت تلك الطليعة التي جاهدت ودعت في سبيل الله لنشر الدعوة.

وفي ختام هذا البحث يقول في رقم ـ ١٣ ـ (قبل أن يلحق محمد رسول الله بالرفيق الأعلى كانت القبائل المائة التي تعيش في الجزيرة العربية قد انصهرت في الجماعة الإسلامية تجمعها وحدة فكرة قوامها الإسلام (وقيم أساسية) تستمدها من القرآن، وزعامة واحدة هي زعامة محمد ﷺ، وقد ارتفعت فوق عوامل الصراع والتناحر، وبدا لها اتجاه واضح، وهدف محدد، ونظام سياسي واجتماعي واقتصادي واضح المعالم. لتندفع بعد ذلك إلى مجال التوسع والنمو والممتد في خطين واسعين أحدهما اتجه شرقاً إلى الفرس والثاني اتجه شمالاً إلى الروم، ص٥٢.

الفصل الرابع عشر

ثانياً

بناء الإسلام وتوسعاته

١٢ هـ - ١١٤ هـ .

ينتقل الأستاذ الجندي بنا في الفصل الثاني ليحدثنا عن مرحلة بناء الإسلام وتوسعاته التي امتدت من ١٢ هـ إلى ١١٤ هـ . وذلك ضمن الفقرات التالية :

٥ - بناء الإسلام حيث يلخصها لنا بقوله : سار الإسلام بعد أن خرج من الجزيرة العربية في مرحلتين متتابعتين هما مرحلة الأبعاد والأعماق . كانت مرحلة الأبعاد تعني التوسع والامتداد الجغرافي حيث حمل العرب رسالة الإسلام من الجزيرة العربية فانطلقوا بها إلى آفاق الأرض فأقاموا بناء الدولة الإسلامية في ثلاث موجات :

الموجة الأولى : من ١٢ - ٢٢ هـ إلى العراق ودمشق ومصر وفارس والقدس وطرابلس الغرب .

الموجة الثانية : من ٤٠ - ٥٠ هـ في شمال أفريقية .

الموجة الثالثة : من ٨٣ - ٩٣ هـ إلى الأندلس غرباً والسند شرقاً .

ولم تلبث المنطقة كلها من حدود الصين إلى حدود فرنسا أن رفعت راية

الإسلام . لكن حركة الإسلام لم تتوقف منذ اقتحمت قارة أوروبا من الأندلس حينما كانت تلح على نفس القارة من الشرق بحصار القسطنطينية . أما حركة الأعماق فتتمثل في بناء المجتمع الإسلامي والفكر الإسلامي .

الأولى : وفي صدد حديثه المفصل عن حركة التوسع يقول بعد هذا العرض السريع : (تبدو معارك المسلمين مع الروم والفرس ، وقد كللت كلها بالنصر ، وكان المسلمون فيها غاية في الكفاية والجدية والبطولة والقدرة على الاستشهاد والانتصار بالعدد القليل . وكانت نتيجة هذه المرحلة أن دانت امبراطوريتان كبيرتان وساد حكم الإسلام العراق وفارس والشام والقدس ومصر . . ثم اتصل التوسع الإسلامي مرة أخرى في عهد عثمان . وكان أبرز ما اتسمت به هذه المرحلة بناء الأسطول الإسلامي وتولي معاوية بن أبي سفيان أمره وفي خلالها (أي الموجة الأولى) انضم إلى الكيان الإسلامي برقة وطرابلس وجزء من بلاد النوبة ، وبلاد أرمينية ، وأجزاء من بلاد طبرستان وجنوبي قزوين ، وتخطت جيوش المسلمين نهر جيحون ، ودخلت بلاد ما وراء النهر فاستولى المسلمون على بلخ وهراء وكابول وغزنة من بلاد الترك . وعن طريق البحرية الإسلامية دخلت قبرص في إطار الدولة الإسلامية ، ثم توقفت هذه الاندفاعة لتعود مرة أخرى في حكم معاوية الذي أولى اهتمامه النافذة الشمالية بينه وبين الروم . فقد كانت هذه الثغرة من أخطر ما واجه المسلمون في تاريخهم كله . وقد أولى معاوية هذا الميدان اهتمامه في موالاة حصار القسطنطينية سبع سنوات متتالية وغزو بعض جزر البحر الأبيض .

الموجة الثانية : (وتجددت موجة التوسع مرة أخرى في عهد عبد الملك بن مروان ، والوليد بن عبد الملك في امتداد جناحي الإسلام ، وإحداهما استكملت الامتداد الغربي فيما يلي برقة حتى الأندلس ثم بلغ قلب فرنسا ، والأخرى استكلمت الامتداد الشرقي فيما يلي فارس وما وراء النهر وانقسم

إلى قسمين: إحداهما سار إلى الشمال تجاه ما وراء النهر، والثاني مضى إلى الجنوب حيث بلغ السند واخترق الهند وبلغ حدود الصين).

ويحدثنا عن سمات هذه الموجة من خلال أربع سمات: ١ ـ كانت أقل كفاءة من الأولى. ٢ ـ اندفع الإسلام ذاتياً ليحقق توسعات جديدة، في أرض لم يكن للإسلام عليها دولة أو كيان سياسي. ٣ ـ كان الاعتصام بتعاليم الإسلام وقيمه أقل درجة من السابق. ٤ ـ نشر الإسلام كان أدنى، والقدوة كانت أقل ـ ما عدا عمر بن عبد العزيز ـ الذي مثل القدوة والانتشار. ومن أسماء الفاتحين في هذه الموجة: (طريف بن مالك وطارق وموسى) «الأندلس والمغرب». قتيبة ابن مسلم الباهلي «ما وراء النهر إلى حدود الصين». عقبة بن نافع «فتح أفريقية إلى المحيط الأطلسي». محمد بن القاسم الثقفي «السند» يزيد بن المهلب «جرجان وطبرستان» معاوية «حصار القسطنطينية».

تفسير نجاح التوسع الإسلامي: وخير ما يشرحه هو المؤرخ ـ لورد ستروب ـ إذ يقول: وعندنا أن العامل الأول في نجاح التوسع الإسلامي لم يكن هو التطلع إلى السلطان والثروة كما يظن بعض المؤرخين الأجانب. ولم يكن مصدر النصر الوحيد هو ضعف هذه الدول. ولكن العامل الأول في الحقيقة إنما هو عمق مفهوم الإسلام وسلامته، وقربه من الفطرة الإنسانية، ومطابقته للواقع. هذا المفهوم هو بناء حضارة جديدة في إطار التوحيد. وكانت القوة الدافعة هي إيمان هذه الجماعة إيماناً لا يتزعزع بالاستشهاد في سبيل دفع لواء الإسلام إلى كل أرض. أما السلطان والثروة، فقد كان الإسلام في أعمق مفاهيمه جامعاً بين الدنيا والآخرة والمادة والروح لا يفرق بينهما ولا يفصلهما. ولم تكن الوسائل الحربية التي اتخذها المسلمون هي وحدها سبب النصر، فقد كان هناك دوماً فارق بعيد في العَدَد والعُدَد بين المسلمين وخصوم الإسلام وإنما كان مصدر

النصر الحقيقي هو ذلك الإيمان بالقاعدة الذهبية: احرص على الموت توهب لك الحياة.

٧ ـ الإسلام والحرب: ويفرد فصلاً عن الحرب الإسلامية أهم ما فيه قوله: (وقد رسم الرسول ـ ﷺ ـ قاعدة الغزو في كلمات حاسمة وقلقة ظلت دستور الإسلام في الحرب: «اغزوا باسم الله في سبيل الله. لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، ولا امرأة ولا شيخاً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه. ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تهدموا بناءً، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً لمأكلة، وسوف تمرون على أقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا له، أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً»).

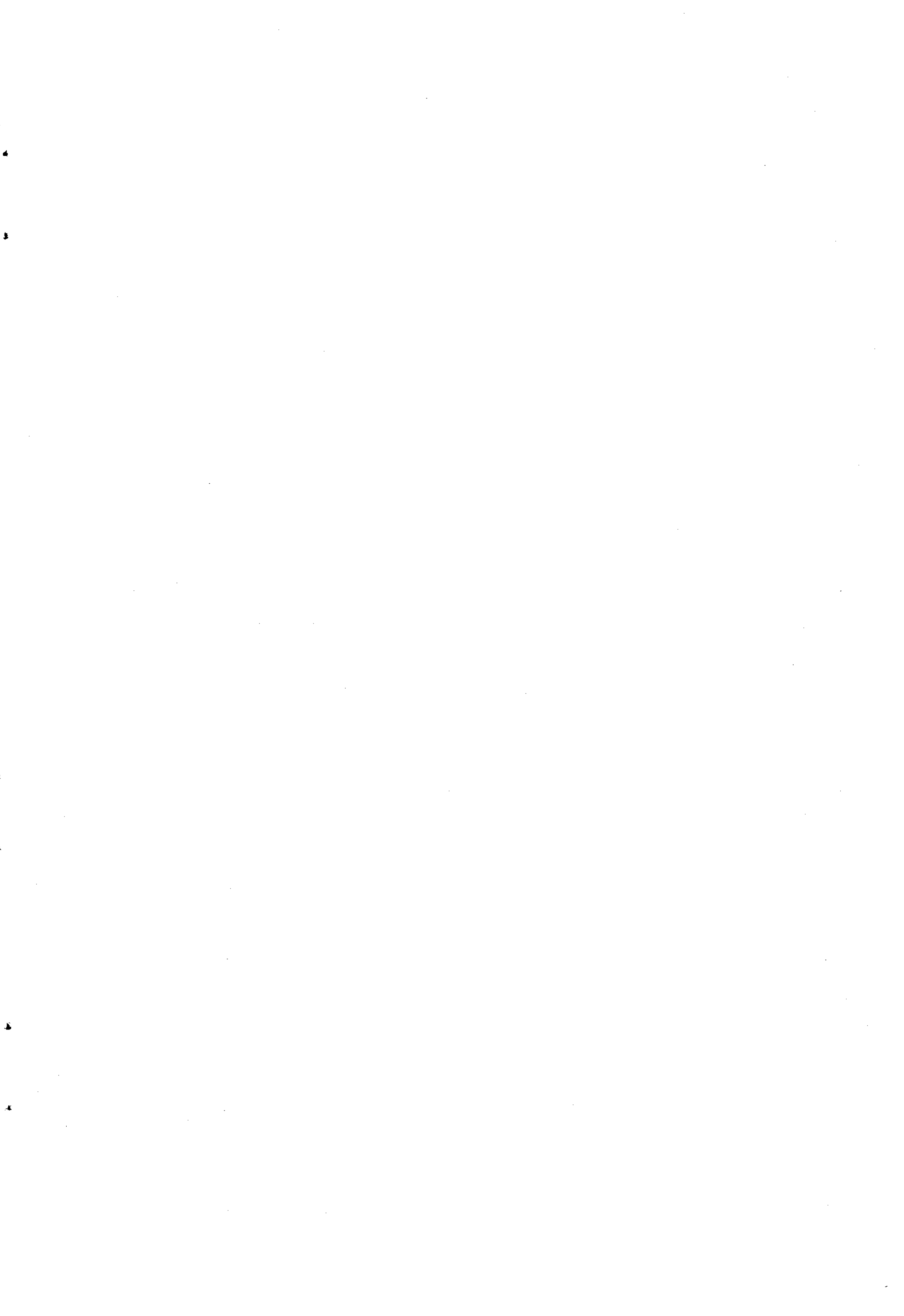
كما يحدثنا عن مبادىء مستقاة من الحروب التي خاضها النبي ﷺ هي:

١ ـ تقسيم مواجهة الهجوم. ٢ ـ القضاء على القوة الرئيسية للعدو. ٣ ـ تخصيص قوة حارسة تحمي مؤخرة الجيش. ٤ ـ السيطرة على ممر في جبل لمنع العدو من المرور فيه. ٥ ـ دراسة شخصيات قادة العدو. ٦ ـ الاستعداد لمواجهة طباع وعادات وأساليب الحرب لكل قائد. ٧ ـ تطبيق مبدأ الوقاية. ٨ ـ مبدأ المبادأة.

ولا ينسى أن يحدثنا عن القرآن رفيق المحاربين، ودور المرأة في الجيش الإسلامي، وطابع الاستقامة الخلقية في معاملة أهل المدن المفتوحة. لينتقل الحديث عن بعض القواعد العسكرية لقادة المسلمين الأفذاذ؛ القعقاع وإرساله المدد عشراً بعد عشر، وخالد وطريقته في مبارزة قائد العدو وقتله، مع الاعتماد على عنصر المفاجأة، والتمويه على العدو بقلة العدد، واستبقاء العدد الأكبر كميناً عند الضرورة، ليسوق لنا في نهاية البحث قول ـ لين موتيرز ـ في

كتابه «الحرب على مر العصور»: (لقد كان من القواعد العسكرية المتفق عليها ألا يحارب قائد في جبهتين، وإذا كان لا بد من حرب خصمين فليقدم أحدهما على الآخر. ولكن العرب لم تأخذ بهذه القاعدة. ففي الوقت الذي كانوا يحاربون الفرس أرسلوا جيشاً إلى سورية لمحاربة الروم. وظفر العرب في الحربين. فقضوا على جيوش الدولتين، وهذا من عجائب الدنيا).

أما الفقرة، استراتيجية الحرب والمعارك فيسوقها لنا في عشر نقاط، ويحدثنا فيها عن نماذج خالدة في الحروب الإسلامية لم يعرف لها التاريخ مثيلاً من قبل.



الفصل الخامس عشر

ثالثاً

مرحلة الانصهار والبلورة

(١١٤ هـ - ٤٨٩ هـ):

٨ - هذه المرحلة يحدثنا عن جانبين فيها: الجانب السياسي، والجانب الفكري والاجتماعي.

أما الجانب السياسي، فقد ظهر فيه تحول الخلافة على الملك على يد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وصادف هذا التغيير وجود ثلاثة تيارات في صفوف المعارضة:

التيار الأول: تيار العدل الإجتماعي. وابتدأ على يد أبي ذر رضي الله عنه.

التيار الثاني: تيار المثل الأعلى، ومثله حزب الخوارج طيلة العهد الأموي والعباسي.[1]

---

(١) قد نوافق أستاذنا أنور الجندي على هذا التقسيم للتيارات. فاعتبار تيار العدل الاجتماعي من أبي ذر رضي الله عنه يعني أن الظلم الاجتماعي هو الذي كان سائداً أيامه. لكننا نعلم أن هناك من استغل دعوة أبي ذر رضي الله عنه للزهد في إثارة الفوضى في المجتمع الاسلامي للإطاحة بالاستقرار فيه. كما أن تسميته دعوة الخوارج بتيار المثل الأعلى نود أن يكون فيه شيء من التحفظ. فعلي رضي الله عنه كان قمة من قمم المثل الأعلى في تاريخ البشرية، ومع هذا فقد حاربه الخوارج وقتلوه.

التيار الثالث: تيار العاطفة، ومثله الحركات المساندة لآل البيت طيلة هذه العهود.

بالإضافة إلى تيار رابع كان خلف هذه التيارات هو تيار المؤامرة على الإسلام الذي مثله أصحاب الديانات المعادية، والجنسيات المبادة، وعلى رأسهم الفرس.

أما في الجانب الفكري والاجتماعي فيقول عنه: (وقد نهض الفكر الإسلامي وتعمق، ووسع آفاقه في مواجهة المؤامرة على الإسلام، وظهر دعاة للدفاع عنه تحت أسماء المعتزلة والأشعرية والفقهاء والمحدثين وأهل السنة. وفي هذه المراحل مضت حركات ثلاث في خط واحد هي: ١ - نمو الحضارة. ٢ - انصهار المجتمع. ٣ - بلورة الفكر. وقطعت في ذلك الطريق خطوات واسعة في عالم الإسلام كله في المشرق والمغرب والأندلس، وساعد على ذلك ودفعه إلى الأمام دفعات قوية، بروز السلطات الاستقلالية في كل قطر ووطن، وظهور القوى القومية الخالصة في مواطنها، يحمل لواء الحكم فيها بناة الدول الذين كانوا في الأغلب قادة مبرزين يجمعون بين الفقه والحكم، فقربوا العلماء وشجعوا الشعراء ووطدوا الحضارة، وأقاموا العمارة، وفي خلال ذلك اتسع نطاق التجارة، وبلغ الثراء مبلغه بعالم الإسلام، وامتد بين الصين والأندلس في طريق ممهد أمين يستطيع أن يتحرك فيه المسافر دون أن يصده شيء. وقد استطاع المجتمع الإسلامي أن يترابط ويتبلور وتنصهر فيه كل القوى، وأن تجمعها روابط مفهوم الإسلام، وتعلو على روابط الجنس والدم والقوميات الإقليمية.. والحق أن مرحلة الانصهار والبلورة قد استطاعت بعد توقف حركة التوسع وحتى أوائل الغزو الخارجي أن تصل إلى مداها في مجالات نمو الحضارة وانصهار المجتمع وبلورة الفكر، بالرغم مما واجه هذه الحركات من صراع المعارضة والقوى المختلفة.

٩ ـ **حركة البلورة**: تتمثل في هذه المرحلة عدة ظواهر قوامها: ١ ـ محاولة التبلور في فكر إسلامي عربي[١] موحد. ٢ ـ محاولة الانصهار في مجتمع إسلامي متكامل. وأبرز معالم هذه الفترة الالتقاء بين العرب والفرس والبربر والأتراك بوصفها العناصر التي جمعها لواء الإسلام وحدة فكرية، وعالم الإسلام جغرافياً في وحدة سياسية. ثم ينتقل بنا ليذكر لنا أربع ظواهر برزت في هذه الفترة. الأولى: قيام عدد منوعٍ من الدول المستقلة في مختلف أقطار الإسلام. الثاني: حركة التدوين والتقنين والترجمة والتأليف. الثالث: مقاومة حركات الانقضاض من الداخل وأبرزها حركة البرامكة وحركة بابك والقرامطة، الرابع: مقاومة حركات الانقضاض من الخارج مثل: مقاومة البيزنطيين ٣٣٣ هـ، سقوط طليطلة ٤٧٨ هـ، الحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس ٤٨٩ هـ.

ويسمي الأستاذ الجندي هذه المرحلة، مرحلة بناء الحضارة والفكر، فيتحدث عنها قائلاً: (لم تكن هذه المرحلة مرحلة تراخ وترف فحسب، إذ انتهى المسلمون من أعمال الفتح والتوسع ومن هنا بدأ عهد الكلام والصراع الفكري كما يقول بعض كتاب الغرب. ولكن الحقيقة أن الإسلام الذي توسع في الآفاق على هذا النحو في مرحلة الأبعاد. كان لا بد أن يمر بمرحلة تالية في طريق نموه هي مرحلة الأعماق، وهي مرحلة طبيعية لا شك فيها. فقد التقى الإسلام الذي أقام دولة بتراث ضخم وقضايا ومعضلات في مجال الفكر والقانون والاجتماع، كان عليه أن يواجهها وفق مفهومه. ومن هنا بدأت تظهر أبرز معالمه ومقوماته، وهي الأصالة المتجددة القادرة على إيجاد حلول لقضايا

جديدة، ليس لها سابقة في القرآن والحديث، والانفتاح بالقدرة على تقبل الثقافات والحضارات، وامتصاص التراث العقلي السابق على وجوده وتمثله وإذابته في كيانه كقوة جديدة دافعة إلى الحياة. وقد واجهته في هذين المجالين أعظم تجربة. فقد استطاع قادة الفكر أن يجددوا ويمتصوا في تجربة ضخمة من تراث اليونان والرومان والفرس والهنود والفراعنة على نحوٍ من القدرة والعمق والحرية. فأخذوا ما زادهم قوة ورفضوا ما لا حاجة لهم به، أو ما يختلف مع جوهر فكرهم ثم صاغوا هذا التراث مرة أخرى صياغة جديدة في إطار قيم الإسلام ومقوماته، واتخذوا منه سلاحاً ماضياً في مقاومة خصوم الإسلام) ص ٩٨.

١٠ ـ أزمة الحضارة. أما أزمة الحضارة فيحدثنا فيها عن مؤامرة اليهود والفرس التي انتهت بقتل الخلفاء الثلاثة عمر وعثمان وعلي، والتي انتهت بتحول الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض. بينما يعرض علينا في فقرة ـ حركة المعارضة للملك ـ دور الفقهاء في إصلاح المجتمع الإسلامي والذين أسماهم دعاة النقد الإجتماعي إذ يقول عنهم:

(وقد كان العلماء والأئمة والمفكرون على طول التاريخ الإسلامي قادرين على رد المسلمين إلى المفهوم الصحيح للإسلام، ومقاومة الانحراف الفكري والاجتماعي، هؤلاء الدعاة والمجاهدون ونقاد المجتمع الذين عارضوا دائماً الانحراف، ومنعوا العامة أن يجرفها الترف أو النفاق. وقد كانوا عاملاً أساسياً في بناء الإسلام والحفاظ على إيديولوجيته من أن يضاف إليها ما يغير مضمونها، أو يحول طابعها. فقد بذلوا جهداً في المحافظة على خصائص الأمة، واتصال حياتها الروحية والخلقية، ولقد ظل تيار الإصلاح الاجتماعي قادراً على مواجهة خطر الجارفة، والانحطاط الخلقي والروحي، وإذا كان قد عرف الحسن البصري ومدرسته: سعيد بن جبير، ومحمدبن سيرين، والشعبي. فقد

حفل تاريخ الإسلام بهؤلاء الدعاة في كل عصر ومكان في عالم الإسلام. وكان منهم كثيرون يؤمنون بالعمل الخالص المبرّأ من الدعاية والشهرة). كما يحدثنا الأستاذ الجندي عن جماهير الأمة الإسلامية التي يطلق عليها اسم ـ الواقعيون ـ فيقول: (يتمثل الواقعيون المسلمون في تلك الجموع العامة التي أولت القيادة السياسية للإسلام ثقتها، ورأت في الحفاظ على وحدة الجماعة ضرورة، والتجمع حول القيادة أهمية كبرى في بناء الإسلام نفسه ونموه واستمراره وقبلوا بالولاء، لنظام الدولة بوصفه قوة قائدة للمسلمين، هؤلاء الذين تمثلوا التطور ونتائجه، والتقدم وآثاره). ويعطينا في نهاية هذا البحث تعميماً شاملاً عن الواقعيين والمعارضة فيقول:

(إن كل هذه الحركات والدعوات تلتمس من الإسلام بسبب وتتصل به بنسب، وهي الآن حصيلة فكرية وثقافية وتاريخية لا سبيل إلى الرضا عن بعضها، ومعاداة بعضها الآخر. ولكننا نراه اليوم عصارة فكر حي متجدد. وعندما ننفي عنها ما ارتبطت به عوامل السياسة ودوافع الصراع نكشف عن مدى حرية الإسلام وسعة أفقه التي كانت قادرة على أن تعطي انطلاقة الفكر والرأي).

١١ ـ النظام السياسي: أما رأيه، في الدولة الأموية فيجمله بما يلي:

(إن هذا النظام المتمثل في حكم عربي خالص قد أمضى دورة كاملة من دورات الدول بين الأبعاد الأربعة: نشوء ونمو ونضج واكتهال، استطاعت أن تحقق فيه رسوخ الإسلام وامتداد نفوذه، وتحول غالب المستظلين بظله إلى الإسلام، واستقرار اللغة العربية وقيامها محل اللغات التعليمية، وانتشار كلمة الإسلام إلى أبعد مدى مستطاع، وقيام حضارة ضخمة واسعة الآفاق بعناصرها المختلفة من فكر وعمارة وتجارة واقتصاد، وبرز عدد كبير من الأعلام والقادة وبناة الدول، وإذا كان العرب هم الذين حملوا لواء الإسلام وشقوا به الطريق

إلى هذه المنطقة الواسعة من حدود الصين في آسيا إلى حدود إيطاليا وفرنسا في أوروبة عبر شمال أفريقية، فقد تعددت العناصر القومية التي شاركت العرب في حمل لواء التوسع، وفي بناء الحضارة، وفي الثقافة ومختلف جوانب الفكر. هذه العناصر التي كانت تتأهب بدخولها الإسلام لتحمل لواء السيادة والقيادة في أفكارها. وأكبر هذه العناصر وأكثرها نفوذاً هم الفرس والترك والبربر).

أما عوامل انهيارها عنده فهي: (وعندنا أن انغلاق الدولة الأموية على السيادة العربية كان ضرورة، ولكنه بلغ في بعض مراحله درجة عالية من التعصب. وما كان من طبائع الأمور ونواميس الحياة أن يستمر نظام مغلق. ومن هنا فقد استطاعت القوى الإسلامية غير العربية أن تتجمع للانتقاض من هذا النظام السياسي والقضاء عليه جرياً على سنة الحياة في ضرورة مشاركة هذه العناصر من ناحية، واتجاهاً مع مفهوم الإسلام الذي يرفض سيطرة الطبقة أو العنصر ولو كان هذاالعنصر هو العنصر العربي الذي نزل فيه الإسلام. وكان له دوره الخالد في بناء دولة الإسلام وتوسيع آفاقه. وفي كل دولة في تاريخ الإسلام عناصر بقائها، وعوامل انهيارها. فهي كلما اقتربت من مفهوم الإسلام، وحاولت تحقيق إيديولوجيته في العدل الاجتماعي والمساواة استطاعت إطالة بقائها.

الدولة العباسية: التغيير الأكبر الذي تحقق هو قيام دولة لا يسيطر على قيادتها أصحاب السيادة العربية، وإن كان خلفاؤها وقادتها من العرب. فقد قامت بنفوذ الفرس، ومن هنا فقد انصهرت القطاعات العربية في الحكم، وكل ما تحقق هو أن العناصر الإسلامية قد سيطرت، وأن السيادة العربية في المجتمع الإسلامي قد تراجعت... وكان أبرز معالم هذه المراحل الرخاء والترف وبلوغ الحضارة الإسلامية قمة عالية، وتوسع نطاق الفكر الإسلامي نماء وترجمة وانصهاراً ووضوحاً لإيديولوجيته في مجال الفقه والفلسفة والعلوم.

ويمكن القول أن مرحلة الحكم الأموي كان مرحلة التوسع الإسلامي في الأبعاد، وأن مرحلة حكم العباسيين كان مرحلة البناء الثقافي والحضاري في الأعماق. وكل البذور التي ألقيت في التربة خلال فترة حكم الأمويين، كانت قد آتت ثمارها في العصر العباسي... ويقول الثعالبي: «إن لبني العباس فاتحة وواسطة وخاتمة. فالفاتحة المنصور، والواسطة المأمون، والخاتمة المعتضد». والحق أن الدولة العباسية منذ قيامها عام ١٣٢ هـ إلى أول حملة صليبية على العالم الإسلامي عام ٤٩٨ هـ تمثل مرحلة متكاملة هي مرحلة قيام البناء الحضاري والفكري والأساسي في مجال الانصهار والتبلور وهي مرحلة تتمثل في ثلاثة قطاعات متشابكة: ١ - الانصهار في المجتمع. ٢ - التبلور في مجال الفكر. ٣ - نمو المؤامرة على الإسلام وانتقالها إلى مرحلة التنفيذ..) حيث يشرح هذه الفقرة، ويحدثنا عن الدول الاستقلالية بقوله:

(لعل من أبرز ما تتسم به المرحلة التي تلت نهاية الدولة الأموية.. خلال البقاء السياسي العباسي ظهور دول كثيرة ونظم سياسية ذات طابع قيادي باسم الخلافة في مصر والأندلس. ظهرت ثلاث دول كبرى السلجوقية في فارس والعراق، والأموية في قرطبة، والفاطمية في مصر والمغرب. كما ظهر نفوذ آخر غير نفوذ الخليفة في مقر السلطة السياسية العليا هو نظام السلطنة وأمير الأمراء. وظهرت دول استقلالية في فارس: الزيدية والصفارية والسامانية والبويهية، وفي مصر: الطولونية والإخشيدية والفاطمية. وفي أفريقية: الأغالبة، الادارسة، الفاطمية، المرابطون، الموحدون... ولعل هذا التطور الذي حدث في خلال الفترة التي تلت الدولة الأموية يسمح لنا بأن نقول أن هذه المرحلة هي مرحلة الدول الاستقلالية؛ هذه الدول التي كانت لها أبعد الأثر في توسيع نطاق الحضارة والثقافة).

١٢ - **المؤامرة على الإسلام**: بعد توقف أعمال التوسع كان الخطر يتمثل في

مقاومة ذات واجهتين:

١ ـ مقاومة خارجية تتمثل في أوروبا والغرب وتتمثل في دائرتين:

آ ـ مقاومة الفرنجة في الأندلس ومن حولها. ب ـ مقاومة البيزنطيين في حدود عالم الإسلام من الشمال، وهي مقاومة لم تتوقف طوال القرون الأربعة عشرة إلى اليوم.

٢ ـ مقاومة داخلية تتمثل في القوى التي سقط نفوذها السياسي والديني من الفرس والمجوس واليهود... وكانت أغلب هذه الحركات تحمل طابع الدعوة إلى العدل الاجتماعي كالزنج والقرامطة لإسقاط دولته).

ثم يعرض لنا بشكل سريع نماذج من هذه الحركات:

حركة الإفشين: الذي نقل عنه أنه (كتب إلى مازيار ملك أشروسنة يقول: «إن هذا الدين (يعني الإسلام) إن اتفقنا أنا وأنتم محونا أثره، ونعود إلى دين آبائنا العجم» وقد قاوم المعتصم هاتين الحركتين مقاومة شديدة، وأنفق في عام واحد على ذلك ألف ألف دينار.

الخرمية: حركة فارسية حاولت أن تعتصم ببرامج اقتصادية لتخفي هدفها الأساسي وهو التخلص من حكم العباسيين ومن الإسلام وإرجاع مجد فارس والدين المجوسي.

ثورة الزنج: ٢٥٦ هـ واستمرت حتى ٢٧٠ هـ وقد دمرت كثيراً من المدن الهامة كالبصرة والأبلة.

ثورة القرامطة: ٢٧٧ هـ التي كانت مرحلة تالية لثورة الزنج. فقد انتشرت الدعوتان في صفوف الفلاحين. غير أن هاتين الثورتين لم تصدرا عن منهاج إسلامي أساسي يتيح لهما صفة البقاء. وقد اتخذت كل منهما أساليب غاية في العنف والتدمير. إذ قام الداعون بفظائع لا حد لها. وقد بعدت

حركتهم عن مفهوم الإسلام بعداً شديداً. بل حاولت أن تفهم الإسلام بأنه مصدر استعباد الجماهير. ولم يكن ذلك في الواقع هو مفهوم الاسلام ولم يكن تطبيقه هو مصدر الظلم. بل على العكس من ذلك كان التخلف عن أيديولوجيا[1] الإسلام التي قامت على العدل الاجتماعي والمساواة هو مصدر قيام مثل هذه الثورات. فلقد صاغ القرامطة دعوتهم على مفاهيم المجوسية والوثنيه والثنوية.

الحركة الاسماعيلية: وكان أبرز وسائلها إذاعة السخط على الدولة العباسية بالدعوة إلى حق العلويين الشرعي في الحكم بينما كانوا يهدفون أساساً إلى القضاء على الإسلام نفسه وذلك بمزج مبادىء الأديان والفلسفة، واستغلالها لخلق روح التذمر الاجتماعي مستغلة بذلك الطوائف والعناصر غير العربية.

١٣ ـ حركة الدفاع عن الإسلام:

وكان لا بد للمسلمين من علماء وفقهاء بعد أن هدأت حركة التوسع للدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة. فقد كان عصر العباسيين هو العصر الذي ترسبت فيه قيم الاسلام ومفاهيمه في هذه الجماعة الضخمة التي تنوعت أديانها، وتنوعت لغاتها وتنوعت أجناسها. فبدأت تنصهر في بوتقة واحدة هي بوتقة الإسلام حيث أخذت ثقافاتها وفلسفاتها وعاداتها وقوانينها ونظم مجتمعها تتبلور في إطار الإسلام، وتخضع لمفاهيمه وقيمه الأساسية (ص١٥١).

أما الذين حملوا لواء الدفاع عن الإسلام فيفرض لنا تسلسلاً تاريخياً لهم ضمن المنظومة التالية:

---

(١) لا أدري لماذا يعدل الأستاذ العلامة الجندي إلى كلمة ـ إيديولوجيات عوضاً عن (العقيدة) أو أي كلمة عربية تؤدي هذا المعنى، فما أحوجنا ان نحافظ على أصالتنا حتى في الكلمة العادية: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظُرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم﴾ البقرة: ١٠٤.

آ ـ **المحدثون**: وقد استعان المحدثون بالقرآن والسيرة والحديث النبوي والمغازي يعرضون تاريخاً مليئاً بالعزة والشجاعة والبطولة والإيمان والعدل والمساواة.. وقد أسلم على يد المحدثين كثيرون ممن بهرتهم القدوة والخلق والمثل الأعلى.. فلقد أسلم يوم مات أحمدبن حنبل عشرون ألفاً من النصارى واليهود والمجوس.

ب ـ **المعتزلة**: وكان لهم فضل الدفاع عن العقيدة بالحجة العقلية، وهم أول من أدخل الفلسفة في الإسلام محاولين التوفيق بين الدين والفلسفة، وقد أدار أبو هذيل العلاف مجالس المناظرة التي كان يعقدها المأمون مع أهل الديانات الأخرى. فقد قرأ بدقة مختلف هذه الديانات وكان مقتدراً على توجيه الجدل والرد على كل الشبهات والانتصار في النهاية وذلك لمحض قدرته على تعمق آراء الفرق المخالفة للإسلام، وعلمه بالشبه التي تثار حول القرآن والإسلام، وإفحام مثيريها. وكان ذلك الجدل الحر المنطلق هو أروع ما عرف عن سماحة دين يسمح في مجال حكمه، وفي ظل دولته بالجدل، وتتيح لأصحاب الأديان والمذاهب المختلفة حرية الدفاع عن معتقداتهم ومن قبل أظلهم بظله دون أن يفرض على هذه الطوائف الانتقال إليه قسراً. بل سمح لهم بأن يقيموا شعائرهم في حرية. وكان من المسموح به أن يتحدث حبر عن يهوديته وقسيس عن مسيحيته، وبلغ من أمر هذه الحرية أن ألَّف يحيى الدمشقي كتاباً يعلم فيه المسيحي الدفاع عن دينه، وعلمه، عن طريق السؤال والجواب.

ولا شك أن الاعتزال هو الجناح الثاني للتصوف والزهد. وكان كلاهما يستمد من مقومات الإسلام ولذلك كان لا سبيل أن يسرف أحدهما فيستأثر بمفهوم الإسلام دون الآخر.

الأشعرية: بلغ أمر الاعتزال غايته في الإسراف والانحراف حين فرض نفوذاً سياسياً له في عهد المأمون، ووضع الناس موضع الامتحان بخلق القرآن.

وأثار أزمة سياسية وفكرية بعيدة المدى ، تصدر للوقوف على رأس معارضيها الإمام أحمد بن حنبل بوصفه أبرز رجال الحديث والفقه وكان ذلك كله مقدمة لتحولٍ خطير في صفوف المعتزلة ومفاهيمها ، وهو ظهور أبي الحسن الأشعري كقوة دافعة جديدة بتصحيح مفاهيم الإسلام ، والقضاء على الانحرافات التي انتهجها فحول المعتزلة.

وكان الأشعري من المعتزلة أصلاً ، ولكنه آمن بالسنة. وكانت السنة قد بلغت درجة التقليد والجمود. بينما بلغت المعتزلة درجة الانحراف. هنالك كانت صيحة الأشعري يقظة جديدة تمزج الاعتزال بوصفهما رمزاً لمفهوم الإسلام الذي يتسم بالشمول والتكامل والوسيطة. فقد أعاد صياغة الفكر الإسلامي على النحو الذي يعطي السنة أسلحة الاعتزال لتجددها وتدافع بها عن جوهرها ، وتنشىء للفكر الإسلامي أفقاً مجدداً يقضي على الجمود والانحراف معاً.

١٤ ـ بلورة الفكر: في مجال الحديث عن بلورة الفكر يقدم لنا مقدمة رائعة يقول فيها:

(أما وقد اتسع المجتمع الإسلامي ، وأخذت العناصر المختلفة تنصهر فيه: عرب وترك وفرس وبربر ، كما أخذت الثقافات والفلسفات والأديان تتبلور فيه. فقد كان من الضروري أن يبرز تحدٍ خطير في مواجهة مفهوم الإسلام ذلك هو موقف الفكر الإسلامي من القانون الروماني والفلسفة اليونانية ، ومن الحكمة الفارسية ، ومن مفاهيم اليهودية والمسيحية ، ومن أهداف الوثنية والمجوسية والمانوية.

فمن خلال الانصهار والتبلور جرت حركة التزاوج في مجالي الأجناس والأفكار ، وعملية الإنصهار الاجتماعي والعقلي فكان ضرورياً في خلال هذا البحر الخضم الذي يقذف بالثقافات والعادات والفلسفات والأديان أن يبرز

الفكر الإسلامي واضح المعالم والحدود، كاشفاً عن خطوطه العامة ومقوماته الأساسية لتكون الإطار الذي تلتقي فيه الثقافات جميعها وتنصهر، وقد زاد هذا التحدي قوة توسع حركة الترجمة الفارسية واليونانية. هذا التحدي هو الذي فرض تدوين السنة والفقه، وتحقيق الحديث وتقنين الفقه، وتنسيق مصادر التشريع الإسلامي. وهناك قضية هامة جداً هي أن إيديولوجية الإسلام قد تمت قبل اختيار الرسول للرفيق الأعلى وأن أمر تحقيق الحديث والسنة على النحو الذي قام به البخاري ومسلم ومالك والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة.

وجعل الإسلام الاجتهاد والاستنباط في مقدمة أسسه العامة حرصاً منه على مواجهة التطور، ولم يمنع في حدود هذه المفاهيم من الاستفادة من مختلف النظم الرومية والفارسية والثقافات اليونانية والهندية، ما دامت لا تمس هذه القيم، ولا تخرج عن هذا الإطار. وبذلك أبان عن طابعه الإنساني العالمي الشامل بوصفه الحتمية التاريخية التي تتطلع الإنسانية إلى بلوغها مهما وقفت العقبات في طريقها على مسار البشرية الطويل، ومن هنا تفتت الأسس التي استطاعت أن تلقي الضوء الكاشف على محاولات تحويل الإسلام عن مجراه، أو تجزئة مفهومه، أو إعاقته عن طريقه، أو انتقاض شموله وتكامله. على النحو الذي بدا في حركات التآمر على الإسلام التي توالت في هذه المرحلة، واستطاع الفكر الإسلامي أن يحقق نتائج هامة:

أ - القدرة على استمرار إيديولوجية الإسلام مع استطاعته المرنة على معايشة الحضارات والثقافات المختلفة ٢ - مواجهة الصراع الفكري والرد على المؤامرات الموجهة للإسلام ٣ - استمرار انتشار الإسلام وتوسعه ٤ - نقد المجتمع الإسلامي ومقاومة الانحرافات من ترف وإباحية ٥ - مناصحة الحكام والولاة لتصحيح المفاهيم ومقاومة الانحرافات الفكرية

التي تحاول تجزئة الإسلام وإقصائه عن مفهوم التكامل والوسطية.

١٥ - انصهار المجتمع الإسلامي: وقد واجهت عملية الانصهار خطوات بالغة الدقة. فقد كانت الجماعات المختلفة في العراق والشام ومصر وبرقة تحمل عناصر مختلفة وديانات مختلفة، وقد تداولت عليها حضارات ومدنيات متعددة. ولم يمض إلا فترات قليلة خلال نظام الأمويين الذي قام على السيادة العربية حتى انصهرت القوى العربية مع العناصر الأخرى. وفي حكم العباسيين الذي أصبح طابعه إسلامياً شاملاً تعمق الانصهار، وأتيحت الفرص لكل العناصر أن تقيم دولاً أو حكومات. غير أن هذا الانصهار الاجتماعي قد حفظ أمرين أساسيين له، اللغة العربية والإسلام. فقد انسحبت هذه العناصر من أديانها كما انسحبت من لغاتها. ولذا كان طابع الإسلام واضح البروز في هذا المجتمع الجديد الذي امتزجت فيه هذه العناصر المختلفة. فقد ظهرت حركات النقد الاجتماعي ومناصحة الولاة والزهد كرد فعلٍ على الانحرافات التي اضطرب بها المجتمع في مواجهة حركة اللهو والانحراف، وقد حملت بعض هذه الفرق لواء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... وعندما ظهرت حركة الزندقة والشك والإلحاد قاومها العلماء والخلفاء. يقول المسعودي: إن المهدي أمعن في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين، وأمر رجال الكلام بالبحث والكتابة في الرد على الملحدين، واقتفى الخليفة الهادي نفس الطريق الذي سلكه المهدي. فقاوم أصحاب ماني، كما تعقب الرشيد الزنادقة، وواجه العلماء والفقهاء كل فرقة ظهرت تقاوم الإسلام وظل تاريخ الاصلاح والتجديد لم يتوقف ولم ينقطع. فلم تمر فترة دون ظهور مصلح أو مجدِّد يعارض التيار المنحرف، ويكافح الفساد الشامل. ويرفع صوت الإسلام الحق، كما يفتح نوافذ جديدة أمام اتصال الإسلام بالحياة، وما من مجدد أو عالم أو مصلح إلا وقد أضاف إضافة جديدة مهما كانت صغيرة فقد كانت ضرورية في عصرها

وجديدة ، وبذلك بنى المصلحون لبنات هذا البناء الضخم كشفاً لجوهر خصائص الإسلام ، وتحديداً لاتصاله بالحياة ، وفتحاً بطريق الإسلام إلى غايته في حتمية التاريخ ، ونظاماً للإنسانية كلها .)

ثم يقرر فصلين بعدها ليحدثنا عن دور الإسلام في العالم ، ومستوى العلماء المسلمين. كما يحدثنا في فصل آخر عن انتشار الإسلام بسبب عدالته وقربه من الفطرة .

وفي مجال حديثه عن التصوف يقول : (برزت الصوفية التي تحمل طابع الزهد أول الأمر . وكانت رد فعلٍ للترف والانحراف الذي أصيب به المجتمع الإسلامي ، وقدمت روحاً جديدة إلى الفكر الاسلامي تخفف من جفاف الطابع العقلي الذي سيطر على دعوات الفلسفة والاعتزال والفقه. غير أنه ـ أي التصوف ـ لم يلبث أن دخل في متاهات فلسفية أذهبت عنه أصالته وسماحته المستمدة من جوهر الإسلام . غير أن الإمام الغزالي في نهاية هذه المرحلة قد استطاع أن يقضي على هذا التمزق الذي أصاب الفكر الإسلامي بانقسامه إلى فقه وتصوف . فأعاد صياغة الفكر الإسلامي من جديد فامتزج التصوف بالفقه ، وأعاد للإسلام وحدته . وكان هذا مفهوم الوحدة الإسلامية التي استطاعت من بعد أن تواجه الغزو الصليبي .

الفصل السادس عشر

رابعًا
مرحلة الغزو الخارجي

تعتبر حركة الغزو الخارجي لعالم الإسلام من أبرز صفحات تاريخ الإسلام. فقد واجه الإسلام غزواً مزدوجاً من خارجه؛ عن طريق حملات التتار والمغول الوثنية، القادمة من المشرق، وعن طريق حملات الفرنجة والغرب.. كان الهجوم على عالم الإسلام من طرفيه حدود بيزنطة وحدود الأندلس. أما هجمات القوى العسكرية المغولية فقد توالت وامتدت خلال قرن ونصف قرن من الزمان. وكان أبرز موجاتها ثلاث حملات كبرى هي:

حملات جنكيزخان، وهولاكو، وتيمورلنك. غير أن الإسلام استطاع أن يغزو هذه القوة من داخلها، ويحولها من الوثنية إلى التوحيد.

أما القوة التي حاربت الإسلام بعنف وإصرار وشراسة فهي القوة التي أطلق عليها: القوى الفرنجية الغربية الأوروبية؛ هذه القوى التي أحست منذ اليوم الأول لظهور الاسلام أنه قد سيطر على مناطق كانت داخلة تحت نفوذها كالشام ومصر وأفريقية. ثم كانت اندفاعة الاسلام إلى أوروبا من خلال معارك القسطنطينية في آسية الصغرى، ومعارك شبه جزيرة إيبريا في اسبانيا مصدراً لقيام فكرة استعمارية صليبية في عالم الغرب تهدف إلى خنق تيار الإسلام،

والحيلولة بينه وبين النفاذ إلى قلب أوروبا . وقد استمرت هذه الحركة ، وزادت على الأيام قوة وعنفاً ، وتشكلت في صورة مختلفة . وطبع هذا الموقف عالم الغرب من خلال مفاهيم السياسة والاجتماع والاقتصاد بطابع التحدي ، الذي أطلق عليه الحروب الصليبية ، والتي اشتعلت فعلاً وبقيت مشتعلة طوال القرون لا تتوقف منذ بلغ الإسلام الأندلس والقسطنطينية ، حتى جاء اللورد اللنبي على رأس قوات الغرب الغازية إلى القدس عام ١٩١٨ . فقال الكلمة التي عبرت عن ضمير الغرب وفكره إزاء الاسلام وعالمه حين قال : اليوم انتهت الحروب الصليبية .) ص ١٨٤ .

الروم وعالم الإسلام : يسير بنا الأستاذ الجندي الهوينى ليحدثنا عن الصراع بين المسلمين والروم منذ أيام عثمان رضي الله عنه ومعاوية . هذا وإن لم يتمكن الإسلام من دك أسوار القسطنطينية في محاولاته الأولى . فقد نظف الأرض حولها ، باحتلال كريت وصقلية وأرواد وقبرص ورودس . وبقيت القضية بين شد وجذب انتهت بدك كثير من الحصون على يد الخلفاء العباسيين : الرشيد والمأمون والمعتصم . أما الذي أشعل فتيل الحروب الصليبية فهو المعركة التاريخية الحاسمة على يد السلاجقة : الأمة الفتية التي استلمت اللواء من العباسيين وهي المعركة التي أسر فيها الامبراطور رومانوس . وقد خاض المسلمون المعركة بقيادة - ألب أرسلان - في عدد لا يتجاوز ربع قوة عدوهم . وتقول الرواية أن قائد المسلمين اختار الاشتباك مع الروم يوم الجمعة . فصلى بجنده ظهراً ولبس البياض وتحنط استعداداً للموت ، وأعلن أنه إن هزم فإن ساحة الحرب تغدو قبره ، وزحف على رأس قواته نحو الروم ٤٦٣ هـ . ونقل الامبراطور الأسير إلى حيث التقى بالسلطان ألب أرسلان ، وعاتبه على رفضه طلب الهدنة الذي تقدم به المسلمون وعفا عنه .(وكان لمعركة -ملاذ كرد - وقع في أوروبا . فقد بدا للغرب أن سيل الغزو الإسلامي ينذر باقتحام الدولة

الرومانية الشرقية والاندفاع إلى أوروبا . وهنالك تعالت الصيحات ، وجرى إعداد مخطط الغزوات الصليبية التي امتدت بجناحها إلى المشرق والمغرب . واندلعت في أواخر القرن الخامس ، واستمرت خلال القرنين السادس والسابع ، وانتهت بهزيمة ساحقة في المشرق . وبتصفية الأندلس كجزء من عالم الإسلام في الغرب . غير أن الحروب الصليبية نفسها كانت مقدمة لموجة جديدة قوية شابة في عالم الإسلام هي موجة الوحدة الإسلامية العثمانية ، التي استطاعت أن تتوغل في أوروبا ، وتسيطر على أقدارها خلال خمسة قرون كاملة . كرد فعل على الحروب الصليبية ـ والتي استولت على القسطنطينية ، وأقامت في آسية الصغرى امبراطورية ضخمة امتدت ستة قرون (٦٩٩ ـ ١٣٣٦ هـ) . وإذا كان لنا أن نستعرض النتائج التاريخية والثقافية والاجتماعية لهذه الفترة التي سبقت الحروب الصليبية. قلنا إن الإسلام كان بعيد النفاذ إلى قلب الدولة البيزنطية ، والتأثير في مفاهيم الغرب الفكرية. كما استطاعت إيديولوجية الاسلام أن تتمثل في كثير من الحركات الثقافية والاجتماعية التي عرفتها أوروبا بعد ذلك ، قال ـ ريبو ـ : إن لم يأخذوا الإسلام ، وقاوموا عالمه بعنف وشراسة ، فإنهم أخذوا منهجه التجريبي في العلم ، ومقوماته في الفكر والاجتماع والفروسية .) ص٢١٤ .

ويمكن القول ان الحروب الصليبية هي صراع بين حضارتين وعقليتين ، وأسلوبين في الحياة ، وأنه بعد مائتي عام اتضح للغرب عجزه عن تكرار محاولة الإسكندر الأكبر . ذلك أن الإسلام قد أقام أيديولوجية جديدة عميقة الجذور . وأن الغرب نفسه قد جاء في أفواج همجية مشردة ليواجه عالماً من الحضارة والمدنية ؛ يستطيع أن يعطي في مجال القيم الخلقية والفكرية والحضارية ص٢١٦ . وقد وصلت الحملة الصليبية الأولى القدس عام ٤٨٩ هـ . وسقطت آخر معاقل المملكة اللاتينية في القدس ٦٩٠ هـ .

وتوالت خلال هذه الفترة ثمان حملات صليبية. منها أربع حملات على بيت المقدس، وحملتان على مصر، وحملة على تونس. ومن خلال الحروب الصليبية، كانت حملات التتار التي انتهت بسقوط الخلافة في بغداد ٦٥٦ هـ.

وقد بدأت مقاومة عالم الإسلام للغزو منذ وطئت قوات الفرنجة القدس. ولم تتوقف خلال قرنين كاملين، برز خلالها عدد من الأبطال والقادة والمجاهدين. واستشهد عدد لا حد له من المحاربين، وواجه المسلمون والعرب هذا التحدي برد فعل متصل، ويمكن القول أنه وإن كانت حطين معركة فاصلة في سبيل استرجاع بيت المقدس. وكانت هزيمة لويس في المنصورة حاسمة في فشل الحملات وعودتها خاسرة. غير أن ذلك لم يكن هو النهاية لموقف أوروبا من مقاومة توسع الإسلام والعمل على دفع موجة نفوذه. فإن فشل هذه الحملات قد أغرى قوى الفرنجة بالضغط على اسبانيا وتكتيل القوى الأوروبية في سبيل تصفية الإسلام والعرب من شبه جزيرة إيبريا وفقاً لخطة مؤداها تحرير أوروبا من شرقها وغربيها من دفعة الإسلام. وقد واجه الفرنجة حضارة أرقى من حضارتهم فأفادوا منها. بينما ترك الأوروبيون آثاراً بعيدة المدى لصور الجشع والتعصب والحرب والتدمير. ما زالت تتمثل حتى اليوم بالرغم من محاولة الغرب رسم صورة أقل عنفاً في حملته الثانية (الاستعمار الحديث) التي تفصلها عن الأولى ثمانية قرون هي عمر الدولة العثمانية.

غزو الفرنجة للمغرب:

يقول العلامة عبد العزيز الثعالبي: لقد استمر نجم الإسلام صاعداً في أوروبا بعد هذه الواقعة العظيمة، والأمراء الأغالبة لا ينفكون عن تعزيز المسلمين في ولايتهم الأوروبية، ومراقبة حركات الصليبيين مراقبة عنيفة تحبط كل مسعى في الانتكاس. إلى أن قامت الدولة العبيدية (الفاطمية) هنالك توقف التوسع الإسلامي (أواخر القرن الثالث) ومعنى هذا أن المسلمين

ظلوا من عام ١١٤ هـ إلى ٢٩٨ هـ تقريباً ، وهم يوسعون عالم الإسلام في فرنسا وإيطاليا ، وقد اقتحم المسلمون بعض ولايات إيطاليا الجنوبية،واشتبكوا في معارك بحرية في مياه أوسيتا (ثغر روما) وهددوا مدينة روما بالحصار حتى اضطر البابا يوحنا الثامن أن يدفع لهم جزية قدرها ٢٥ ألف مثقال من الفضة. ولم يلبث الإسلام أن دعم وجوده في الأندلس. ولكنه كان وجوداً محفوفاً بالخطر الذي كان يجتاحه من أطرافه. فلم تلبث أن قامت الدولة الأموية راسخة البنيان استمرت ٢٧٥ عاماً ثم اعتورها الضعف والتمزق. وكان المسلمون قد تركوا إبان وصولهم إلى الأندلس جيباً به مجموعة من الفرنجة اعتصمت بالجبال ، وظلت تكبر وتنمو حتى أصبحت قوة كبيرة وخطراً مهدداً ، ولم تلبث الأندلس أن تعرضت للغزو الصليبي الذي كان ينقصها من أطرافها. لولا موجتين متتاليتين إحداهما للمرابطين ، والأخرى للموحدين . وهاتان الموجتان اللتان قادهما يوسف بن تاشفين ، وعبد المؤمن بن علي قد أجلتا تمزق الأندلس فترة من الوقت. وكانت قوة البربر التي ظهرت على مسرح الأحداث في المغرب ، إحدى القوى الإسلامية الثلاث البدوية الخشنة التي نصرت الإسلام في إبان أزمته ، وهي ثالثة السلاجقة والمماليك) ص٢٢٦ .

الغزو المغولي التتري :

يمثل الغزو المغولي والتتري موجة من الموجات العاصفة التي واجهت عالم الإسلام ، واستمرت تجتاحه بعنف على دفعات متوالية خلال قرنين ونصف. جنكيزخان امبراطور المغول ٦٠٠ هـ هولاكو في بغداد ٦٥٦ هـ تيمورلنك في خراسان وما وراء النهر وفتوحاته ٧٧١ - ٧٩٥ هـ ، تيمورلنك على سورية ٨٠٤ هـ وحملته على الدولة العثمانية.

وقد اقترنت غزوات التتار لعالم الإسلام بغزوات الصليبيين ، وارتبطت بها وفق مخطط عسكري في محاولة وضع عالم الإسلام بين فكي الكماشة ، قوامها

الصليبيون والتتار الذين كانوا على صلة بالقوى الأوروبية التي تدعم الحملات الصليبية، كما حاولت القضاء على الدولة العثمانية كقوة شابة من قوى الإسلام. وكان للمغول والتتار في كلي الموقفين من غزو بغداد لإسقاط الخلافة دحر القيادة الإسلامية السياسية ٦٥٦ هـ بقيادة هولاكو ٦٩٥ و٧٩٥ بقيادة تيمورلنك. ثم غزو آسية الصغرى لإسقاط الدولة العثمانية الشابة التي تمثل قيادة الإسلام الجديدة.

غير أن الإسلام شأنه دائماً مع كل القوى المواجهة له. كان دائماً قادراً على التأثير فيها فقد استطاع بقوته العقلية والروحية الفاعلة أن يحول التتار إلى الإسلام. فلم يكد ينقضي على ظهور التتار أكثر من ثمانين عاماً حتى أعلن الامبراطور - تاجدار أوغل - الذي تولى السلطة عام ٦٨١ هـ اعتناق الإسلام. وأطلق على نفسه اسم السلطان أحمد. وكان نص المنشور الذي بعثه إلى ولي عهده يقول:

لقد جلست على عرش أجدادي فخذوا علماً أننا معشر المغول مسلمون، وأن حقوقكم الموروثة من عهد العباسيين ستظل محترمة مقدسة. وقد أمرت أن ترد إلى الشعب العراقي جميع التكايا والمدارس والمؤسسات الدينية والشخصية التي كانت ملكاً لهم. واغتصبها عمال ووكلاء أجدادي، وبلغت نائبي لديكم أن يمشي في جميع أحكامه على مقتضى تعاليم الشرع الإسلامي لأن محمداً ﷺ بشرنا بالقرآن الكريم، وأن الدين الإسلامي هدانا لهذا. والسلام سيظل قائماً وأبداً إلى يوم القيامة...

أما سقوط بغداد فيحدثنا عنه قائلاً:

زحف هولاكو على بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية، فدمرها، وقتل الخليفة المستعصم، وجلة العلماء والفقهاء. ووضع السيف في بغداد أربعين يوماً حتى زاد عدد القتلى عن ٨٠٠ ألف (عدا الأطفال ومن هلكوا في السراديب

والقنى والآبار) وبدد مظاهر الحضارة من كتب وفنون وتراث ، ونهب أكثر من أربعمائة ألف مجلد ملأ بها خزانة كبيرة نقلها إلى عاصمته من بغداد والشام والجزيرة . وكانت هزيمة التتار في عين جالوت هي رد الفعل الحاسم بعد عامين على تدمير بغداد ،بعد سنوات طويلة من الاندفاع المغولي والانتصار التتري . دون أن تقف في وجههم قوة تحسب حسابها . وكانت قوة الدفاع عن الإسلام إذ ذاك تركزت في وحدة مصر والشام لمواجهة الغزو الصليبي . وتجدد خطر التتار على يد تيمورلنك الذي وصل إلى هضاب دمشق الذي كان مسلماً وتغلب على امبراطورية المغول . وتُمثل غارات التتار سنة الكون وحركة التاريخ التي لا تتخلف. فإذا انحدرت الحضارة ، وغلب الترف ، ووقع التفكك ، وتراخت الأيدي من المقاومة ، والحفاظ على الثغور ، وضعفت الجيوش ، وتخلفت الأمة عن مقومات فكرها وقيمها الأساسية ، فكان لا بد أن يسقط هذا الملك . ص٢٣٧ .

القوى التي هددت شباب الاسلام:

بعد أن ضعفت قوة الحضر الفارسية العربية ، وظهرت القوة البدوية في أجزاء العالم الإسلامي الثالث؛ السلاجقة (وأتباعهم الأتابكة والكرد) في العراق وفارس وآسيا الصغرى ، والبربر في المغرب (الموحدون) والمماليك في مصر والشام . كانت خشونة هذه القوات الثلاث بعد إسلامهم قوة ضخمة للإسلام ، ردت عن الإسلام عادية القوى الثلاث التي انقضت على عالمه ، الصليبيون في الشام ، والفرنجة في المغرب والأندلس ، والتتار القادمون من شرق سمرقند مجتاحة عالم الإسلام . وقد ظلت هذه القوى تتفاعل وتتكون حتى أتيح لها أن تشكل ظاهرة الانتعاش الإسلامي منذ القرن الخامس إلى القرن السابع . بل إن بعض هذه القوى لم تقف عند حماية الإسلام والرد على عدوان الغرب عليه ، بل استطاع أن يحقق مهمة أخرى هي توسيع دائرة عالم الإسلام

بالدعوة والقدوة. فقد حمل البربر الاسلام إلى قلب أفريقية ص٢٤٤.

موجة السلاجقة:

امتدت قرابة قرنين كاملين. وقد أظهرت عدداً كبيراً من رجالها بناة الدول والمحاربين أمثال: طغرلبك، ألب أرسلان، ملك شاه والوزير نظام الملك، ثم أظهرت عماد الدين زنكي، ونور الدين وصلاح الدين الأيوبي. وقد جدد السلاجقة شباب دولة الإسلام، وأعادوا للخلافة العباسية نفوذها الروحي وسلطتها السياسية، واستطاعوا قهر خصوم الإسلام طوال مرحلة طويلة، فاستطاع عماد الدين الزنكي أن يزحف نحو إمارة الرها الصليبية ٥٣٩ هـ حتى استنفذت كل وسائل التسليم السلمي، هناك نصب عليها آلات الحرب، وضربها بالمجانيق، وانتصر بعد حصار عنيف، وكانت هذه أولى معارك الانقضاض الإسلامي على المملكة اللاتينية. وكان النصر فيها قوياً للمسلمين. وكانت مقدمة للخطوات التي حققها نور الدين وصلاح الدين. غير أن أثره الواضح العميق وتألق شخصيته في معركة المقاومة للحملة الصليبية، وبروزه في صورة القديسين والشهداء؛ إنما يرجع إلى إنكار للذات. فقد جمعت شخصيته بين البسالة والزهد والإيمان والقوة. فكانت بذلك بعيدة المدى في تحقيق وحدة المسلمين، وكان اقترابه من مفاهيم الإسلام في محاولته لدعم الوحدة الإسلامية لمواجهة الخطر الصليبي هو أقوى العوامل التي حققت له النصر، حتى ليمكن القول بحق أن نور الدين قد التمس ثلاث قوى من مواد الاسلام في سبيل عمله هي القوة والوحدة والايمان، وكان لا يتوقف عن مهاجمة الإمارات الصليبية التي تكونت في نهاية القرن الخامس الهجري في أربع وحدات. مملكة بيت المقدس، وإمارات أنطاكية، طرابلس الشام، الرها. وقد استطاع أن يوقف زحف الصليبيين في الشام. وكان أبرز ما خططه في نجاح خطة المقاومة هو استيلاؤه على دمشق ٥٤٩ هـ. وعلى مصر. وكان من أهم ما أولاه نور الدين

بالغ الاهتمام بناء القاعدة الفكرية للمقاومة عن طريق نشر الثقافة الإسلامية الموحدة البعيدة عن الخلافات بوصفها جوهر المقاومة، وتأريث الجهاد في النفوس. وكان أعدل ملوك زمانه، عارف بالفقه يجلس إلى العلماء كل أسبوع، وسمح لمن يشاء أن يحضر مجلسه، وقد كان لهذا التكوين الثقافي، بالإضافة إلى ما عرف من عدله وإيمانه، فكانوا يتطلعون إلى دعوته للنفير العام، وتنثال الجموع من مختلف الأقطار واثقة بالنصر بقيادته. وفي الوقت الذي لم تكن الامدادات الصليبية تتوقف من أوروبا وصقلية عاماً واحداً. كانت قوات المسلمين والعرب تتدفق على معسكرات الجهاد المقدس، وتلتئم في معارك المقاومة وقد تميز نور الدين عن أفراد أسرته من السلاجقة والأتابكة، تميزاً كبيراً. فهؤلاء الذين سبقوه قد نصروا الإسلام وأعزوه كملوك وأمراء. أما نور الدين فقد أعزه كمجاهد عسكري وقائد سياسي، وعابد زاهد. فلقد امتلأت نفسه بالإسلام وتمثل به روحه، على نحو لا نكاد نجد له شبيهاً إلا عند الأوائل من أعلام صدر الإسلام. وكان الصليبيون يقدرون عمق إيمانه في الإسلام في مقاومتهم فيقولون: إن ابن القيم (أي نور الدين) له مع الله سرحاته، ما ينتصر علينا بكثرة جنوده وعسكره. إنما يظهر علينا بالدعاء وصلاة الليل. وإذا كان عماد الدين الزنكي قد استطاع أن يستعيد الرها أولى الإمارات الصليبية. فقد حقق نور الدين محمود الوحدة الفكرية والروحية في المنطقة كسلاح للمقاومة الصليبية. وبذلك استطاع صلاح الدين أن يحقق أعظم نصر في معركة المقاومة في موقعة حطين التي مكنته من استرجاع بيت المقدس. وما كاد صلاح الدين يوحد مملكته، ويؤمن مواقعه حتى يبدأ معاركه مع الصليبيين عشر سنوات كاملة. تحقق على يديه أعظم نصر مع معركة حطين ٥٨٣ هـ وهو الاستيلاء على بيت المقدس. وهناك شبه إجماع على أن صلاح الدين لم يكن قائداً بارعاً فحسب، أو محارباً شجاعاً أو حاكماً عادلاً بمقدار ما

كان إنساناً ممثلاً للأخلاق الإسلامية فإن هذا المفهوم وحده هو الذي جمع حوله جميع العناصر والقوى التي كانت تهدف إلى توحيد الإسلام في وجه الغزاة.

يقول هاملتون جيب:

إنه لم يستعمل في تحقيق الأمر شجاعته وعزمه الذاتيتين في غالب الأحيان. وإنما حقق ما حققه من ذلك بإنكاره للذات، وتواضعه وكرمه، ودفاعه المعنوي عن الإسلام ضد أعدائه، وضد من ينتمون إليه انتماءً إسمياً على حدٍ سواء.. كما يقول: (كان يعرف أن المشكلة التي يواجهها لم تكن سياسية فحسب. بل هي إلى حد كبير أخلاقية ونفسية. وأنه إذا عالجها على المستوى السياسي والعسكري سيعجز عن حلها. وأنه إذا شاء أن يصل إلى نتائج فعالة فعليه أن يدعم الولاء السياسي بحوافز وروادع أخلاقية ومعيشية.

موجة البربر

أوجز العلامة الجندي علاقة البربر بالإسلام إيجازاً محكماً يحسن أن ننقله بنصه:

١) قاوم البربر توسعات الإسلام، ونفوذه حين دخل المغرب، واستمروا في هذه المقاومة طويلاً. بحسبانه نفوذاً غريباً. كما قاوموا من قبل نفوذ الدولة الرومانية التي امتد ألف عام. فلما تحققت عدالة الإسلام وسماحته، وإتاحته الفرصة لأهل كل وطن في حكم وطنه. أقبل البربر على الإسلام باندفاعة قوية. فاعتنقوه وجاهدوا في سبيل نشره جهاداً مشرفاً. وأصبحوا أكثر أنصاره إيماناً به ودفاعاً عنه.

٢) البربر هم فاتحو اسبانيا أصلاً. وهم القوة الإسلامية التي عبرت إلى بحر الزقاق، فأسست الأندلس أول دولة للإسلام في أوروبا. فلما تم الفتح اندفعت جماعات كبرى من البربر إليها فانصهرت في مجتمعها مع العرب

شركائهم في التوسع، ومع القوط أصحاب البلاد الأصلية.

٣) ساهمت قوى البربر بالاشتراك مع القوى العربية في مختلف أعمال التوسع التي امتدت في اسبانيا، واستمرت طويلاً إلى أن وصلت في ظل عبد الرحمن الغافقي إلى مدينة بواتيه التي لا تبعد عن باريس أكثر من مائة كيلو متر. ومن ثم أصبحت ضفاف أنهار الرون والغارون واللوار تحت نفوذها.

٤) قاد المرابطون والموحدون والمرينيون أضخم معركة مقاومة مع الفرنجة والاسبانيين هي إحدى شقتي معركة الغزو الصليبي. وذلك بعد أن ضعفت القوى العربية المسيطرة في الأندلس بفعل الترف والتمزق. وكان للمغرب أضخم دورٍ في حماية الأندلس من القوى الغربية المتجمعة للقضاء عليها.

٥) كان البربر أقوى القوى الإسلامية الشابة في المغرب في مواجهة أزمة الإسلام في القرن الخامس، ومن بعده حين بدأ الغرب تنفيذ مؤامرة الغزو الصليبي مجتاحة المشرق والمغرب، وكانت أبرز دولهم دولتي المرابطين والموحدين. وقد أدى البربر مهمتين خطيرتين؛ الأولى: نشر الإسلام في أفريقية، وتوسيع آفاقه إلى أبعد حد ممكن. الثانية: الدفاع عنه في مواجهة الغزو الصليبي الخارجي للإسبان والفرنجة في الأندلس فقد عبر الموحدون إلى الأندلس في خلال قرن واحد ثلاث مرات، ثم عبر بعد ذلك المرينيون.

وقد ظهرت قوتا البربر متواليتين: المرابطون والموحدون. أما المرابطون فقد ظهرت قوتهم في وقتها وإبانها حين اندلعت نيران الحروب الصليبية بالمشرق الإسلامي، وحين ضعفت الدولة الأموية في الأندلس، وتوقفت غزوات عبد الرحمن الناصر، والمنصور بن أبي عامر، الذي غزا الفرنجة خمسين غزوة. فلما تقسمت الدولة الأموية إلى إمارات الطوائف في نفس الوقت الذي توحدت فيه أرجونة وقشتالة مملكتي الفرنجة في مملكة واحدة، واستأسدت وأخذت

تديل من أرض الأندلس ريثما تقسم المسلمون وتصارعوا، مما مكن لاذفونس ملك أرغونة من الاستيلاء على سرقسطة ثاني معقل إسلامي (٥١٢ هـ) بعد طليطلة، ومضى في محاصرة غرناطة، وتهديدها وبلوغ مالقة، هنالك لا بد لحركة التاريخ الإسلامي أن تعطي قوة جديدة في مواجهة الغزو العنيف موازنة للموقف، وإنقاذاً للإسلام[1] من الانحدار. وكما كانت قوة السلاجقة وحلفائهم في المشرق والمماليك من بعدهم هي عنصر الموازنة ورد الفعل والتحدي إزاء الحملات الصليبية كذلك كان المرابطون والموحدون في المغرب ص٢٦٢ - ٢٦٣.

موجة المماليك

حقق المماليك عملاً ضخماً في مجال المقاومة الإسلامية. فاستطاعوا أن يردوا الهجوم المغولي والغزو التتري الذي تعرض له عالم الإسلام من سمرقند إلى حلب في موقعة (عين جالوت) بقيادة قطز وبيبرس بعد سقوط بغداد بعامين. وكانت هذه أول هزيمة تواجه القوات المغولية التترية في زحفها الطويل خلال أربعين عاماً. وتوقف اندفاعها نحو البحر المتوسط ومصر. ثم استطاع الظاهر بيبرس أن يحقق انتصارات أخرى على معسكرات الصليبيين وحصون التتار، وقلاع الباطنية. وأتم تصفية هذه القوى الغازية من بعده قلاوون وصلاح الدين، وكان المماليك بحق قوة من أكبر قوى الإسلام ذات الفاعلية في مجال الجهاد، ودفع العدوان الذي تعرض له عالم الإسلام خلال القرنين السادس والسابع فقد عاشت دولتا المماليك (البحرية والجراكسة) ٢٢٧ سنة، تولى الحكم فيها خمسون سلطاناً وإذا كان الغزو الصليبي على عالم الإسلام قد أبرز القوى الإسلامية المتمثلة بالسلاجقة وحلفائهم عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين،

---

(١) الاسلام لا يمكن أن ينحدر. ولكن يمكن أن ينحدر المسلمون. لأن الاسلام هو رسالة الله تعالى الى خلقه. وكتابه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

فإن الغزو التتري قد أبرز المماليك: قطز وبيبرس وقلاوون والناصر. كذلك أبرز غزو الفرنجة والإسبان قوى البربر والمرابطين والموحدين؛ يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي. وقد كان اجتياح المغول لبغداد حدثاً طبيعياً ونهاية محتومة إذا ما نظرنا إلى تطور القوى في العالم آنذاك، مع ضعف القيادة السياسية الاسلامية في مقر الخلافة في بغداد. حتى ليمكن أن يقال أن العبارات التي وجهها جنكيزخان وتيمورلنك إلى أمراء المسلمين إنما تمثل الواقع المحتوم في هذه الفترة حيث وصفهم بأنهم (ملوك وحكام ظلمة قد أشبعوا أنفسهم، وأجاعوا أمتهم، وأنهم غفلوا عن مفهوم الإسلام في عدالته ووحدته في المساواة والحق. ولذلك فإن الله قد سلط التتار عليهم لينتقموا منهم، وأنهم آية الله على هذه القيادات الظالمة.).

هذه العبارات التي أوردها التتار في رسائلهم إلى أمراء الاسلام إنما تمثل مفهوم التطور وحركة التاريخ. فما من قوة تضعف، إلا ولقوة أخرى مجددة أن تسيطر عليها، وأن تحل محلها، وأن الدول تمر بمراحل من القوة والضعف. فإذا شاخت كان لا بد لها أن تنهار. وكذلك كانت الدول الممثلة بالإسلام من سمرقند إلى بغداد في هذه الفترة (٦١٦ - ٦٥٦ هـ) بين سيطرة جنكيزخان وهولاكو قد أصابتها الفرقة والضعف، واستسلمت إلى الترف والانحلال، وانطوت على نفسها فكان لا بد أن تطيح بها قوة جديدة شابة حتى يستيقظ المسلمون من غفلتهم.

وقد جاءت موجة المغول الأولى ٦١٣ هـ بقيادة جنكيزخان في جيش قوامه ستون ألفاً اجتاح هراة وبخارى وسمرقند وبلخ وخوارزم وتدفق ما بين الصين والأدرياتيك.

ثم كانت موجة المغول الثانية (٦٥٦ هـ) بقيادة هولاكو. فاجتاح عالم الإسلام حتى بلغ بغداد فدمرها وأسقط الدولة العباسية، وقتل الخليفة

المستعصم، وبلغ الشام واستولى على حلب. وكانت معركة عين جالوت هي الرد الحاسم من القوة الإسلامية الجديدة التي برزت في مصر وهي قوة المماليك التي حملت لواء الدفاع عن الإسلام. غير أن التتار لم يلبثوا بعد نصف قرن من حكم هولاكو أن طواهم الإسلام. فاعترف بركة خان سابع الخانات وزعيم القبيلة الذهبية بالإسلام ديناً لدولته. وكان بركة خان معاصراً لركن الدولة الظاهر بيبرس سلطان المماليك. ومن ثم قامت محالفة بين الرجلين على مقاومة بقايا الصليبيين والتتار والوثنيين. وكان لهذه المحالفة أثر بعيد في انتصار الإسلام والإدالة من خصومه. وفي ظل محالفة بيبرس لبركة خان، استطاع أن يكبد المغول خسائر فادحة، وأن يوقف زحفهم نحو الشام ومصر، والأجزاء القريبة من عالم الإسلام ولم يلبث أوزبك خان أن انضم إلى الأميرين وعرف بتحمسه للإسلام. والدعوة إليه، وكان أول من جدّ في نشر الإسلام في أنحاء روسيا. وكان لبيبرس تاريخ قديم قبل معركة عين جالوت، فهو الذي هزم لويس التاسع في معركة المنصورة، وقد أتيح له بعد سيطرته على مقدرات الحكم أن يبني جيشاً وأسطولاً قويين. وقد كللت مختلف اشتباكاته مع الصليبيين بالظفر والنصر. ومن أجل هذا يعده المؤرخون ثالث العلمين هارون الرشيد وصلاح الدين. وقد عرف بجولاته الرائعة، وتنقلاته من حصن إلى حصن ومن ميدان إلى ميدان حول المملكة اللاتينية الممتدة من شمال سورية إلى حدود مصر وداخلها. وقد كانت هذه المنطقة مجال جهاد المماليك العنيف المتصل ضد الصليبيين، فامتلأت بجيوشهم وزهرة فرسانهم، حتى انتزعوا منهم آخر معاقلهم، واستخلصوا آخر حصونهم (أي الصليبيين) كما استأصلوا شأفة الباطنية والحشاشين ص٢٦٧.

انتشار الإسلام في مرحلة الغزو الخارجي

كان ابن هولاكو (أباقا خان) قد تزوج من ابنة امبراطور القسطنطينية. وكان يرسل السفراء إلى القديس لويس ملك فرنسا وشارل ملك صقلية، وجيمس ملك أرغونة يطلب إليهم التحالف على المسلمين. غير أن ذلك لم يحقق نتيجة ما على النحو الذي كان يرجوه ملوك أوروبا. فإن أخوه تكودار ٦٨١ هـ. الذي اعتلى العرش من بعده. كان قد اعتنق الإسلام منذ صباه عن طريق اتصاله بالمسلمين. فلما تولى السلطة رغب في تحويل كافة التتار إلى الإسلام. وأرسل نبأ إسلامه إلى سلطان المماليك في مصر (قلاوون) قال في رسالته:

لقد ابتدأنا بتوفيق الله بإعلاء أعلام الدين وإظهاره في إبرام كل أمر. وإصداره تقديماً لناموس الشرع المحمدي على مقتضى قانون العدل الأحمدي إجلالاً وتعظيماً. إن الاسلام يجب ما قبله، وأنه تعالى ألقى في قلوبنا أن نتبع الحق وأهله، عفا الله عما سلف. فقد قمنا بإصلاح المساجد والمشاهد والمدارس، وعمارة بقاع الدين والربط الدوارس. وأمرنا بتنظيم أمر الحجاج، وتجهيز وفدها، وتأمين سبلها، وتسيير قوافلها، وإنَّا أطلقنا سبل التجار المترددين على تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم. توقيع تكوادور أحمد.

كما حقق الإسلام توسعاً ذاتياً في هذه المرحلة في قلب الصليبيين أنفسهم. فإن روح الإسلام وعدالته التي لمسها الغربيون عن قرب، وما أدهشهم من شمائل صلاح الدين ونور الدين قد شدهم إلى الاسلام. وقد أدى اختلاط علماء اللاهوت المسيحيين بالإسلام إلى تغيير مفهومهم عن الاسلام ودينهم، وبدا رأيهم أقرب إلى الإنصاف، بل لقد انجذب كثيرون منهم إلى حظيرة الإسلام.

واستطاعت حركة عبد الله بن ياسين أن تحقق توسعاً في قلب أفريقية

حيث أسلمت قبائل كثيرة من البربر الوثنيين، ثم كانت حركة الموحدين، ومن قبل حركة المرابطين من حيث جذبت قبائل أخرى كانت بعيدة عن الإسلام. وقد استطاع ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين أن يكسب الكثير للإسلام عندما كتب رسائل التوحيد باللغة البربرية. وشرح قواعد الإسلام.

الفكر والثقافة في مرحلة الغزو الخارجي

مر الفكر الإسلامي في مرحلة الانصهار والبلورة بعدة مراحل: المعتزلة (لسان الدفاع عن الإسلام)، تحقيق الحديث والسنة، مدارس الفقه، إعادة صياغة مفهوم الإسلام بالعودة إلى مفهوم القرآن بوصفه حجر الأساس للفكر الإسلامي جامعاً بين العقل والقلب في مواجهة انحرافات الاعتزال والباطنية.

أما الفكرة الباطنية فكانت خلاصة الفلسفات المجوسية واليونانية الوثنية مصاغة في قالب ظاهره إسلامي، تدعو إلى إسقاط التكليف في العبادات، وتعطيل ظاهر الشريعة... وذلك عن طريق تأمل الكلمات الشرعية الإسلامية المتواترة تأويلاً لا يقوم على اللغة والقياس والمنطق، مع إنكار الغيبيات، وإنكار عقيدة ختم النبوة، ومتصل بالباطنية إخوان الصفا ودعوتهم خليط من الفلسفة اليونانية والعقيدة الباطنية، ومزيج من الإسلام والإلهيات اليونانية مستهدفة خلق دين آخر.

وكان الغزالي هو حامل لواء إعادة صياغة مفهوم الإسلام بالاتجاه نحو القرآن نفسه، وإعطائه الإسلام تكامله وشموله بالجمع بين العقل والقلب في مواجهة انحراف الباطنية والفلسفات القديمة، وفي الوقت نفسه قامت القوة السلجوقية القيادية الشابة المحاربة في المجال السياسي لسيطرة وحدة الجماعة. فهم حملة علم السنة، وأصحاب اللواء المرفوع في وجه الغزو الخارجي. وإذا كان علم الكلام هو محاولة إيقاف الإسلام في فلك العقل فإن الصوفية هي

إيقاف الإسلام في فلك القلب. وكلاهما شطري الإسلام. ولا يستطيع مفهوم منهما أن يستقل بالإسلام. والإسلام في تكامله وشموله ووسطيته. يلتقي بهما منصهرين فيه، والإسلام دين العقل والقلب معاً. ص٢٨١.

الحركة الموسوعية

كان هجوم الصليبيين والتتار والفرنجة من خارج الإسلام عليه في ثلاث اتجاهات متلاقية يربطها خط واحد هو القضاء على الإسلام دولة وفكرة وهي حملة عاتية يمكن أن توصف بأنها أزمة الإسلام الكبرى، كان يمكن أن تقضي على أية حضارة يحمل لواءها فكر ودولة غير الإسلام. وفي هذه المرحلة برزت حركة فكرية وثقافية بعيدة المدى لم تشهدها المرحلة السابقة من حيث عمقها واتساعها وشمولها... ونظرة إلى مؤلفات الغزالي أو ابن تيمية أو ابن القيم. نجد أنها محاولة تقديم عصارات شاملة شريعة للفكر الإسلامي كله. فقد اتسمت مرحلة الغزو بظاهرة عجيبة في مجال الفكر هو وجود إنتاج ضخم في مختلف مجالات الثقافة: فقه ونحو ولغة وعروض وحديث وتفسير وبلاغة وأدب وتاريخ وجغرافيا ومنطق وفلسفة وسياسة ورياضة وفلك وتنجيم. غير أن هذا العصر يتسم بظاهرة أشد عمقاً هي أن الجدل الفكري الإسلامي قد انتهى، حيث تقاربت مفاهيم الكلام والسنة والتصوف وأهل البيت، وبدأت تلتقي في وحدة فكر إسلامي له وسطيته وشموله. ذلك أن حكام هذا العصر كانوا علماء وأئمة على قدر كبير من الثقافة. وكان من حولهم دوماً نخبة ممتازة من أعلام المثقفين.

وقد رحبت القاهرة ودمشق وحلب بالعلماء من مختلف أجزاء العالم الإسلامي. وساهمت الأميرات المسلمات: زوج الملك الأشرف، وأختا صلاح الدين في إقامة المدارس. وبرز علماء متعددون في مقدمتهم: الشاطبي، والسخاوي، والقرطبي، والنووي. ويجمع الباحثون المثقفون على أن الحياة

الفكرية في مرحلة الغزو الخارجي الصليبي والتتري في القضاء على الثقافة الإسلامية كانت متقدمة. ص ٢٥٩ .

الفكر الإسلامي يقاوم تحديات الغزو

بمراجعة مرحلة الغزو الخارجي من وصول الحملة الصليبية الأولى عام ٤٨٩ هـ إلى نهاية الحملة الصليبية ٦٩٠ هـ نستطيع أن نسجل ظاهرة بعيدة الأثر في حركة التاريخ الإسلامي. هذه الظاهرة هي الدور الكبير للعلماء والفقهاء في مجال المقاومة للغزو الصليبي التتري. ومن ألمع شخصيات الفكر الإسلامي في هذه الحقبة: الغزالي وعبد القادر الجيلاني، وفخر الدين الرازي، ومحمد بن تومرت وابن رشد، ويوسف بن تاشفين، وعبد المؤمن بن علي، وأبو الفرج الجوزي، وعز الدين بن عبد السلام ونصر الدين الطوسي وتقي الدين بن تيمية ومحيي الدين النووي، وابن دقيق العيد، ومحيي الدين بن عربي وجلال الدين الرومي. وأبرز ما توصف به آثار هؤلاء العلماء وكتاباتهم أنها كانت تهدف إلى القضاء على الدعوات والنزعات والمذاهب المنحرفة التي كانت من عوامل التخذيل. وكانت هذه الآثار من ناحية أخرى تحاول أن تصوغ إيديولوجية الإسلام على نحو جديد جامع موحد شامل، وكان إيمانهم بأن مقاومة هذا الغزو تتطلب تحرير الإسلام من البدع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحرير القيادة السياسية والعسكرية من الظلم والطغيان. ومن هنا كانت مواقف ابن تيمية والعز بن عبد السلام وابن دقيق العيد في مواجهة الأمراء. كانوا يوصون السلاطين بالعدالة في جمع الضرائب والمكوس. ويطلبون أن يقدموا ما لديهم ولدى مماليكهم أولاً من حياصات الذهب والحلي. فإذا أنفقوا هذا في مجال الجهاد، أفتى لهم الفقهاء بأخذ مزيدٍ من مال الرعية. وقد عزفوا جميعاً عن المناصب المرموقة واستعلوا عن عطايا السلاطين.. ولم يتوقف هؤلاء العلماء عند حدود النصح بل شاركوا بسيوفهم في الجهاد،

وشارك ابن تيمية في مقاتلة التتار. واشترك العز بن عبد السلام في مواجهة الصليبيين في دمياط. وكان ابن تيمية يقود الفقهاء في ميدان التدريب الحربي على أعمال الفروسية والجهاد ص٢٨٧.

الفكر لا الأدب هو أداة المقاومة:

حاول بعض المؤرخين والكتاب أن يصفوا الفترة من ٦٥٦ بعد سقوط بغداد إلى ١٢١٣ هـ وهو تاريخ قدوم نابليون إلى الشرق بأنها فترة انحطاط. والحق أن هذه القرون الستة لا يمكن أن تدرس على أنها مرحلة واحدة، ولا يمكن أن يصدر عليها حكم واحد، فضلاً عن أن علامات اليقظة في عالم الإسلام سبقت قدوم نابليون بوقت طويل. وقد انبعثت من الأعماق، ولم تكن بفعل مؤثر خارجي. وأعتقد أن هذا الحكم ربما قصد القائلون به قطاعاً معيناً هو الأدب العربي ثم انسحب على الفكر الإسلامي كله. ذلك أن الدلائل المؤكدة تثبت أن الفكر الإسلامي قد واجه مرحلة ضخمة من مراحل التحدي خلال فترة الغزو الخارجي. وأنه استجاب استجابة واضحة فكان على مستوى المعركة. وقد استمر هذا الفكر قوياً إلى مرحلة عصر الوحدة الإسلامية العثمانية. وأن فترة ضعفه لم تزد على مائة عام قبل ظهور دعوة التوحيد على لسان الامام محمد بن عبد الوهاب. ولعل الادعاء بأن هذه المرحلة جميعها فترة ضعف - ولا نقول انحطاطاً - قد جاء نتيجة ما لوحظ من توقف حملات الصراع بين المذاهب.. وهذه ظاهرة طبيعية فإن المذاهب التي نشأت نتيجة اختلاف مفاهيم المعتزلة والسنة، ودعاة الكلام والفلاسفة والتصوف، كانت قد تقاربت بعد أن زال الصراع السياسي الذي كان يحمل لواءها ويستخدمها.

ومن أبرز ما تتسم به هذه المرحلة منذ الغزو الخارجي للعالم الإسلامي هو غلبة طابع التصوف على الجماعات الإسلامية، وتغلغل هذه الظاهرة في المجتمع الإسلامي... وقد كان لسمة التصوف الظاهرة الواضحة في هذه المرحلة أثرها

البعيد المدى في معركة المقاومة للغزو الأجنبي . فقد كانت عوامل القوة الدافعة لمجموعات ضخمة من الشباب بالفتوة والمرابطة في سبيل الله ، والانصراف إلى الجهاد والمقاومة والاعتصام بالثغور ، والانضواء تحت لواء القوات الإسلامية المندفعة بقيادة عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس ، ويوسف بن تاشفين ، وعبد المؤمن بن علي ، وغيرهم من قادة مقاومة الغزو الخارجي لعالم الإسلام .

وفي هذه المرحلة كانت المعاهد الإسلامية القائمة في أنحاء العالم الإسلامي هي العامل الأكبر الذي حافظ على اللغة العربية والفكر الإسلامي . الأزهر في مصر ، والقرويين في المغرب ، والزيتونة في تونس ، والأعظم بالقيروان ، والأموي في دمشق ، ومعاهد النجف وكربلاء وسامراء . وكلها استطاعت أن تحتضن الفكر الإسلامي واللغة العربية في هذه المرحلة الدقيقة وتزود عنهما عادية الغزو . وقد ظلت هذه المعاهد من حلقات المساجد والكتاتيب وإلى الجامعات قائمة بدورها التاريخي خلال فترة اجتياح المغول والصليبيين والفرنجة لعالم الإسلام . وكان دور المرأة في مجال العلم خلال هذه الفترة مضطرد النماء . فقد ظهرت أسماء لها شهرتها في هذه المرحلة من المسلمات المتفقهات اللاتي يعلمن ويتحدثن في مجالس القاهرة ودمشق . . .

ولعل من أهم ظواهر هذه المرحلة ظهور الثقافة العربية مقام الأدب العربي الذي لم يكن في كل هذه المراحل ممثلاً للفكر الإسلامي . أما الثقافة العربية في مرحلة الغزو الخارجي ، فقد كانت قد تحررت من خلافات المذاهب ومعاركها . كما تحررت من أهواء الشعراء ، والنظامين الواقفين على أعتاب الأمراء . ومن ثم كان العلماء (وهم القادة في هذه المرحلة أشد الناس عزوفاً عن عطايا الحكام أو قبول مناصبهم ؛ تحرراً لفكرهم ، واستعلاءً على قبول الظلم وكتمان الحق . . .) وكان للثقافة الإسلامية في هذه المرحلة أثرها الواضح في التخلص من

المحسّنات البلاغية، مع جمع الفنون المختلفة والمزج بينها. وكان التأليف الموسوعي الجماعي المنوع في هذه المرحلة، يهدف إلى تقديم المعرفة بصورة شاملة وسريعة. وكان ذلك في واقعه يمثل أكبر رد فعلٍ للغزو الصليبي الفرنجي المغولي، وما دمر من مكتبات وآثار، وقضى على معاهد وجامعات. فهو عصر خوف وسرعة ومقاومة استهدف جمع حصيلة ضخمة من التراث الإسلامي وحفظها وتنسيقها في موسوعات ما تزال حتى الآن من الأعمال التي قامت عليها النهضة الحديثة في مجال التراجم والفقه واللغة.

أما توقف الاجتهاد، وغلبة النقل والتقليد فيرجع ذلك إلى طابع العصر نفسه فإن عصور المقاومة والجهاد لا تتيح فرصة العمل العقلي المنظم الذي يحقق الإبداع والاجتهاد... ففي عصر المقاومة فمن الحق أن ينصرف الفكر الإسلامي كله إلى شحذ أسلحة المواجهة والجهاد، وإعادة صياغة الفكر على نحو من الشمول والتكامل حتى لا يفقده الغزو المتصل مقوماته الأساسية، وآية ذلك أن النشاط العقلي لم يتوقف، وإن ضعف فن الابتكار الذي هو ثمرة حياة الدعة والسلام. ويمكن القول بأن هذه الفترة ليست فترة موت. ولكنها فترة بناء على نحو يتفق مع تحديات العصر في مجال حياطة وحماية الفكر الإسلامي وتنسيقه على نحو جديد. وأبرزت هذه المرحلة عديداً من الأعلام كالقزويني وابن منظور (صاحب لسان العرب) وابن نباتة، وابن قيم الجوزية، وابن بطوطة، وصاحب صبح الأعشى والمقريزي المؤرخ. ولسان الدين الخطيب وابن خلدون، صاحب المقدمة والتاريخ. (ص ٢٩٠ - ٢٩٥) مقتطفات.

مرحلة الوحدة الإسلامية العثمانية

بعد أن أدت القوى الثلاث البدوية الشابة: السلاجقة والمماليك والبربر - دورها في مواجهة قوى الغزو الصليبي والفرنجة والتتار، لم تلبث أن انبثقت

مرحلة الغزو الخارجي ومقاومة عالم الإسلام له عن مرحلة قوة ووحدة.

أما القوة العسكرية الضخمة فقد تمثلت في ظهور الدولة العثمانية التي استطاعت أن تقيم وحدة عربية عثمانية، فتضم إلى الأناضول وآسيا الصغرى والبلقان أكبر قوة في عالم الإسلام هي الأمة العربية من الحجاز والعراق والشام ومصر والمغرب.

أما الوحدة فقد تمثلت في قيام ثلاث دول كبرى في عالم الإسلام: الدولة العثمانية، والدولة الصفوية في فارس، والدولة المغولية في الهند. وكانت الدولة العثمانية ضامة إليها الأمة العربية هي كبرى الوحدات جغرافياً.

وقد حملت هذه الدول الثلاث لواء الإسلام، وامتد بها الزمن حتى واجهت الاستعمار الغربي الذي جاء في أعقاب اليقظة العربية الإسلامية[1].

---

(١) الكتاب ص٢٩٨.

الفصل السابع عشر

خامساً
الوحدة الإسلامية العثمانية

إن كانت أوروبا قد استطاعت أن تصد الإسلام كقوة سياسية عنها من ناحية الأندلس وفرنسا حتى نهر اللوار، ومن ناحية البلقان حتى أسوار فيينا. فإنها لم تستطع أن تصد الإسلام كفكر، وإذا كان العثمانيون قد استطاعوا أن يواجهوا الغرب بالقوة العسكرية منتصرين ثلاثة قرون كاملة ومدافعين ثلاثة قرون أخرى. فإن هذا كان رد فعلٍ للحملات الصليبية على المشرق، وحملات الفرنجة على الأندلس. وكان في نفس الوقت مصدر تلك الخصومة العنيفة التي ظلت أوروبا والتاريخ الغربي يحملها للدولة العثمانية وللوحدة الإسلامية ممثلة في هذه الفترة.

لقد استطاعت القوة العثمانية الإسلامية أن تخلف الموجات الإسلامية السابقة على سيادة البحر الأبيض، واستطاعت أن تحيل البحر الأسود إلى بحيرة إسلامية، كما بسطت سيادتها على البحر الأحمر وخليج فارس. وإثر انتصار أسطولها على أساطيل الدول الأوروبية المتحدة والبابا وقد عاشت القوة الإسلامية العثمانية خلال القرون الستة بين صراع القوة والغلبة والنصر ثم في صراع الدفاع والمقاومة.

وكانت مرحلة من مراحل الإسلام استعاد فيها قوته، ورفع راياته في قلب أوروبا، وأكد وحدة شعوبه. وكانت فكرة الجهاد من أبرز العوامل التي دفعت العثمانيين إلى اكتساح الأمبراطورية البيزنطية، والتوسع في ممالك أوروبا. وإذا كان العثمانيون لم ينشروا دعوة الإسلام على نحو تربوي وعلمي كما فعل المسلمون من قبل، فإن الإسلام قد اتصل بأوروبا وأثّر في أسلوب الفكر والحياة والحضارة، وأثّر في جذور الفكر الأوروبي نفسه. كما ترك العثمانيون في قلب أوروبا هيبةً للإسلام وتقديراً له، حين استطاعت قوتهم أن ترد قوى أوروبا المتجمعة مرة ومرة ومرات، وفي هذه المرحلة لم يكن العثمانيون متعصبين، ولكنهم كانوا يعاملون العناصر المختلفة على أساس أحكام الإسلام. وقد ظل شبح الإسلام مرجعاً للسلطة في الأمور الشرعية والمدنية على السواء.

وكان ظهور الدولة العثمانية كقوة إسلامية جديدة شابة بدوية مقاتلة، تطوراً تاريخياً طبيعياً على النحو الذي تطور إليه تاريخ الإسلام في مراحله المختلفة، وكظاهرة اعتيادية موافقة لناموس حركة التاريخ الإسلامي، وعلى طريق حتميته إلى غايته الكبرى.

وأبرز ما تمثله تلك الظاهرة أنها حققت مظهرين أساسيين من مظاهر القيم الأساسية للإسلام: هما الوحدة والقوة وإن لم تحقق المظهر الثالث وهو العدل... وعلى يد القوة الإسلامية عرفت أوروبا - بعد تصفية المملكة اللاتينية الصليبية - على ساحل الشام لسبعين عاماً قوة إسلامية جديدة، لم تقتصر على إيقاف توسعها في أرض الإسلام، بل زحفت إلى قلب أوروبا، وظلت تهددها بالغزو حتى حاصرت أسوار فيينا. وكان دور العثمانيين طبيعياً بحكم أنه دور قوة إسلامية استطاعت أن تنمو بعد أن ضعفت القوى الإسلامية التي توالت (العرب والفرس والبربر والسلاجقة). ولقد كانت القوة العثمانية أشد حماسة للإسلام، واندفاعاً في سبيل نشره. ولما برزوا في ميادين الجهاد،

وظهرت بوادر انتصاراتهم في حروبهم ضد الأمبراطورية البيزنطية التي وقفت أمام موجة الإسلام المندفعة إلى أوروبا سبعمئة عام. هنالك علق المسلمون عليهم الآمال واتجهوا بقلوبهم إليه، ووجدوا فيهم المنقذ والحامي. وكان هذا هو مصدر النجاح السريع الذي حققه العثمانيون في حركة توحيد عالم الإسلام. حيث لم تقف في وجوههم إلا قوة الفرس، التي أقامت دولة ضخمة هي الدولة الصفوية التي حملت لواء الثقافة الشيعية، واتخذتها شعاراً لها في نطاق الإسلام السمح المتمثل للثقافات المختلفة.

وكان فتح القسطنطينية من الأحداث الضخمة القليلة في تاريخ العالم كله، وفي تقدير أوروبا والغرب. فقد أتاح للقوة الإسلامية العثمانية أن تزحف إلى رومانيا وبلغاريا واليونان ويوغسلافيا وألبانيا وبلاد المجر. وبذلك قلبت القوة الإسلامية العثمانية ميزان القوى بعد أن كان عالم الإسلام في موقف الدفاع. وعالم الغرب في موقف الهجوم، أصبح العكس فقد وقفت أوروبا بعد ذلك التاريخ إلى ثلاثة قرون متصلة موقف الدفاع في وجه الهجوم العثماني، ص٣٠٧. وعندما احتل العثمانيون القسطنطينية (٨٥٧ هـ) كان ذلك قمة الموقف بالنسبة للغرب، فقد بدأت حركة إجلاء المسلمين عن الأندلس، ولم يمض أكثر من أربعين عاماً (٨٩٨ هـ) حتى سقطت الأندلس وانطوت صفحة الإسلام فيها. وبالرغم من تجمع القوى الغربية وتوحدها في وجه الزحف الإسلامي. غير أن أوروبا لم تقف موقف المقاومة في وجه القوة الإسلامية العثمانية، بل عمدت إلى فتح جبهة أخرى عن طريق إسبانيا والبرتغال في الكشف الجغرافي لتطويق عالم الإسلام، والاتجاه نحو إفريقية الاستوائية والهند وأندونيسيا. ومنذ ضعفت مقاومة الأندلس كانت فكرة الغزو الإسباني البرتغالي لعالم الإسلام قد خطت أولى خطواتها فلم تمض إلا سنوات قليلة حتى بدأ ـ ڤاسكو دي جاما ـ طوافه

حول رأس الرجاء الصالح إلى الهند (٩٠٤ هـ) وذلك لاستقطاب مراكز جديدة تحقق إحكام الحصار الاقتصادي لعالم الإسلام بصرف مجرى التجارة العالمية عن البحر الأبيض وموانئه الإسلامية (ص٣٠٨).

سجل عام ٦٥٦ هـ اجتياح التتار لبغداد وإسقاط الخلافة، كما سجل عام ٦٩٠ هـ تصفية الإمارات الصليبية، وطرد الصليبيين نهائياً من ساحل الشام وبيت المقدس. وسجل عام ٦٩٩ ظهور أول خيط في بناء الدولة العثمانية التي أصبحت فيما بعد قوة إسلامية ضخمة استمرت تحكم ستة قرون حتى صفاها الاستعمار الغربي بالقضاء على آخر الأجزاء العربية التابعة لها (١٣١٦ هـ - ١٩١٨ م) وقد مرت الدولة العثمانية في طورين كبيرين:

الطور الأول: طور القوة.

والطور الثاني: طور الضعف.

وكان طور القوة مرتبطاً بمفهوم الإسلام، ودائراً في إطاره من حيث الوحدة والقوة. فلما تخلف العثمانيون عن هذا المفهوم، وحل الصراع والضعف العسكري تحولوا من مركز الهجوم والتوسع، إلى الدفاع والانتقاض.

وقد امتدت توسعات العثمانيين في ثلاثة اتجاهات:

١ - أوروبا.

٢ - العالم العربي.

٣ - الفارسي.

أوربا: تحقق للدولة العثمانية النصر في الميدان الأوربي... ووالى السلاطين غزو أوروبا حتى استطاع محمد الفاتح أن يحقق أعظم نصر في تاريخ الإسلام بالسيطرة على القسطنطينية. وبسقوطها في يد عالم الإسلام انتهت الامبراطورية الرومانية الشرقية، وامتد التوسع إلى بلاد القرم وجزر

الأرخبيل، وخفق العلم الإسلامي العثماني على قلعة أوترانتو في إيطاليا نفسها، ومضى التوسع إلى بلغراد حتى أصبحت المجر في يد العثمانيين. وبدأ حصار ڤيينا، ومضت الانتصارات الباهرة متعاقبة، حيث اكتسحت أساطيل القوة الإسلامية العثمانية شواطىء البحر المتوسط (بحر الروم) وجزائره إلى سواحل إسبانيا، ونشر رجالها أمثال بربروسة ودراغوت الهيبة على سواحل أوربا وشمال إفريقيا، واستطاعوا طرد الإسبان من بلاد الجزائر، وقهر العثمانيون الأسطول البابوي، وامتدت راياتهم إلى بودابست على نهر الطونة.

غير أن هذا التوسع الذي ظل ممتداً ومستمراً حتى ١٥٧١ م بدون هزيمة أو توقف، بدأ يصاب بضربات وهزائم منذ موقعة ليبانتو البحرية.

أما في المشرق: فقد قامت الوحدات العربية في الشام ومصر وكردستان وديار بكر ومكة والمدينة، ثم توالى انضمام المغرب العربي في تونس والجزائر والمغرب إلى الدولة العثمانية.

أما بالنسبة لفارس: فقد استطاعت فارس أن تحتفظ بسلطانها، وأن تقيم دولة عظمى هي الدولة الصفوية.

أما بالنسبة للهند الإسلامية: فقد نجت من حملات العثمانيين، وأقامت دولة المغول الكبرى التي ظلت قائمة حتى أزالها الاستعمار البريطاني للهند.

وقد بهر العثمانيون العالم بالقوة الحربية، وبالبطولة العسكرية التي عرفت لسلاطينهم، عثمان وأورخان ومراد الثاني وبايزيد ومحمد الخامس وسليم الأول وسليمان، وهم السلاطين الذين شهدوا مرحلة التوسع والانتصار...

وقد كانت مصادمة التتار للعثمانيين ٨٠٤ هـ - ١٤٠٢ م من الضربات القاتلة التي تلقتها الدولة العثمانية بصمود عجيب، واستطاعت بعد قليل أن ترتفع على جراحها، وأن تعيد تكوين جيشها، وأن تعود مرة ثانية أشد قدرة على

التوسع ، وأن تستطيع بعد قليل أن تحقق أكبر نصر لها في فتح القسطنطينية .

العرب والدولة العثمانية : وقد رحب العرب بالدولة العثمانية بعد أن ضعفت قوة المماليك والبربر ، وأصبحوا هدفاً لحملات صليبية جديدة . وقد وجدوا في الدولة العثمانية منتعشاً جديداً للإسلام ، وقوة شابة بدوية مقاتلة رفعت راية الإسلام خفاقة عالية وأعادت ذكرى الأبطال الأوائل في سبيل إعزاز الإسلام ونشره .

ويشهد المؤرخون بأن العثمانيين قد اقتفوا أثر الخلفاء في العدل والتسامح وتمثَّلوا أعمالهم واتخذوه قدوة ، وعملوا على جمع القلوب إليهم بتقدير العلماء والأتقياء ، وإنشاء الجوامع والمدارس ، وكان عثمان مثلاً أعلى على ذلك ، فقد أطعم الفقراء وأكرم العلماء . وظلت مفاهيم القرآن بوصفه الكتاب المقدس والسنة أساس التشريع الإسلامي ، وهو طابع الإسلام نفسه لغة وتقاليد وقيماً ، وكانت جامعة الإسلام بطبيعتها تمتص الكثير من خلافات العناصر والأمم والأقطار على النحو الذي حققه الإسلام في تاريخه كله ، وبالنسبة للفرس والترك والبربر كانت وحدة الثقافة وتقاربها في ظل مفهوم السنة ، والوسائط التي جمعت بين السنة والتصوف وكانت تمزج بينهما عاملاً أساسياً في الالتقاء السياسي الاجتماعي . كما حرص الحكام الأتراك على تقدير العرب ـ وتأكيد معنى الرابطة الإسلامية .

وقد حرصت القيادة السياسية الإسلامية في هذه الفترة على رعاية الأديان المختلفة وأوليائها على النحو الذي رسمه الإسلام . . . وقد سجل كثير من المؤرخين المنصفين ذلك . . . ومن بينهم المؤرخان لافيس ورامبو (من مؤرخي فرنسا) حيث قالا : إن محمداً فاتح القسطنطينية كان كأكثر سلاطين الأتراك والمغول بعيداً عن كل اضطهاد ديني ، وكانت حكومة الأتراك لا تعارض أحداً في دينه وكان الأتراك لا يمسون امتيازات الكنيسة الأرثوذوكسية) . بل إن

البعض ذهب إلى أبعد من ذلك فرأى أن هذه الحرية الدينية كانت من بعد مصدر ضعف الدولة العثمانية، فيقول ـ دوفارا ـ: إن من أعظم أسباب انحلال الدولة العثمانية هو مشربها في إعطاء الحرية المذهبية والمدرسية الثابتين للأمم المسيحية التي كانت خاضعة لها. لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحريتين، كانت تبث دعايتها القومية وتتماسك، وتسير سيراً فاصلاً في طريق الانفصال عن السلطة العثمانية...) وقد أشار العلامة جميل بيهم في كتابه فلسفة التاريخ العثماني، إلى أنه لما استتب الأمر لآل عثمان عادوا إلى سياسة الخلفاء الراشدين في الفقه والحكم، وكانوا يخيرون الخصم بين الإسلام والجزية والحرب. وإن السلطان محمد الخامس قلد بطريق الروم الرئاسة على قومه. وإن هذا العدل لم يكن قاصراً على الذين يرضون بدفع الجزية طوعاً... وعندما اعتُرض على محمد الفاتح لعدم تخييره رعيته من النصارى بين الإسلام والقتل قال: كم هو فوق الواجب الادعاء بالحرص على الإسلام زيادة على حضرة الشارع (يقصد الرسول ﷺ). وكذلك فعل أور خان... وإذا كان العثمانيون قد مدوا سلطانهم باسم الإسلام إلى قلب أوروبا وحقق ذلك دخول عدد كبير في الإسلام ولا سيما في آسيا الصغرى، وكانت سياسة العثمانيين إزاء هذه العناصر من العوامل المشجعة لهم على دخول الإسلام. بالرغم من هذا فإن الدولة العثمانية قد قصرت تقصيراً لا حد له في الدعوة الإسلامية بين العناصر التي ضمتها الدولة خلال ستمائة عام. وإنها لو فعلت لتركت في أوروبا قوة إسلامية فاعلة.

القوى الإسلامية الثلاث: ١ ـ الأمبراطورية العثمانية وتضم بلاد الأناضول والعالم العربي.

٢ ـ الدولة الصفوية في فارس: والتي استطاعت أن تقاوم العثمانيين، وأن تقيم دولة قومية على أساس الثقافة الشيعية الإسلامية.

٣ ـ الدولة المغولية في الهند فقد ظلت بعيدة عن صراع العثمانيين

والفرس. فوصلت بالحكم الإسلامي في هذه البلاد إلى أقصى صوره. وبلغ نفوذ الإسلام أوسع مداه، ونشرت الوحدة الإسلامية إلى أقصى درجات الذيوع، واستطاعت بنشر الإسلام في ربوع الهند أن تحول ملايين عدة من أهل الهند عن معتقداتهم القديمة إلى الإسلام. وازدهرت على أيديهم الحضارة الإسلامية، وظلت تحكم البلاد أكثر من ثلاثة قرون حتى انتزع نفوذها الاستعمار البريطاني.

الإسلام والأندلس

يمكن تعريف تاريخ الإسلام في إسبانيا في ثمان حلقات:

١ - عصر الولاة (٩٢ - ١٣٨ هـ).

٢ - العصر الأموي (١٣٨ هـ - ٤٢٢ هـ).

٣ - حلول الطوائف (٤٢٢ - ٤٨٤ هـ).

٤ - عصر الموحدين (٤٨٤ - ٦٤٠ هـ).

٥ - الحروب الصليبية بالأندلس (٦٢٥ - ٨٩٨ هـ).

٦ - سقوط غرناطة.

٧ - عصر العرب الأخير - مرحلة الاضطهاد والتنصير - (٨٩٩ - ١٠١٧ هـ).

٨ - ترحيل المسلمين نهائياً من الأندلس (١٠١٨ هـ).

المقاومة والمعارك مع الفرنجة:

حين سيطر المسلمون على الأندلس غفلوا عن منطقة جبلية كانت من بعد مصدر الخطر والمقاومة فلما انحلت الدولة الأموية إلى ولايات، احتاطت الدول بالأندلس العربية الإسلامية على هيئة هلال. وقد هددت هذه الحركة الدولة

الإسلامية ، فبدأت معركة المقاومة والإدالة . واستمرت فترات طويلة ، بل إنها لم تتوقف في الأغلب . فقد أمضى عبد الرحمن الناصر سنوات حكمه في الغزو والمقاومة ، وواصل أبو عامر المنصور حركة المقاومة والإدالة من الفرنجة ففي خلال فترة حكمه (٢٣ عاماً) انتصر عليهم في خمسين موقعة ، وقضى حياته شهيداً . وقد استمر هشام بن الحكم الثاني حكمه على تعبئة قواه خلال اثنين وعشرين عاماً في مواجهة ممالك ليون ونوارة وقشتالة وقطلوبة . غير أن الفرنجة استطاعوا أن يجتاحوا ثلث الأندلس حين انهارت الدولة الأموية ، وقامت الإمارات الأربع لملوك الطوائف . وقد تنازع الأمراء فيما بينهم تنازعاً شديداً ، واستعان كل منهم بالإسبان الفرنجة على خصومه . وبرزت للفرنجة مملكة كانت نواة حركة استرداد الأندلس هي قشتالة . ثم تلاقت مع دولة ليون في اتحاد عام (٤٢٩ هـ) فانتظمتا ، تمثلان مملكة ضخمة لم تلبث أن حملت لواء المقاومة والإدالة من المسلمين . وبدأ تهديد عنيف لأمراء المسلمين دفع المعتمد بن عباد إلى مناداة المرابطين في مراكش . وكان يوسف بن تاشفين (٤٥٣ ـ ٥٠٠ هـ) قد جاء على رأس موجة جديدة جددت شباب الإسلام ، واستجاب للنداء فعبر إلى الأندلس وهزم الفرنجة في موقعة حاسمة هي ـ الزلاقة ـ ثم لم يلبث الموحدون وهم موجة أخرى من البربر أن حلت محل المرابطين . وكان لهم دور ضخم في مقاومة الزحف الفرنجي على مملكة الأندلس . فقد ألقوا الرعب في أوروبا فتنادت للتجمع لمقاومة الموحدين ، وللقضاء على الأندلس المسلمة العربية . . . ومن ثم بدأت مرحلة من مراحل الحروب الصليبية في الأندلس عنيفة عاصفة حملت لواء الدعوة إلى إخراج (الهراقطة) أي المسلمين من أوروبا . وقد واجه المسلمون هذه الحركة بصلابة ، وإصرار غير أن الموقف كان في صف القوى المجتمعة على أرضها . حتى انهزم المسلمون في موقعة العقاب (طولوز) عام ٦٠٩ هـ ـ ١٢١٢ م ولم يلبث بنو مرين وهم موجة من موجات

البربر الذين نصروا الإسلام أن سيطروا على المغرب ، وجازوا إلى الأندلس ، واشتبكوا مع الفرنجة في معارك عدة ، غير أن الصراع لم يلبث أن وقع بين الأمراء بعضهم البعض ، وبين أمراء الأندلس والذين عبروا إليهم من المغرب ، واستند بنو الأحمر - آخر أمراء المسلمين في الأندلس - على خصومهم في الانتصار على أشقائهم وجيرانهم . ولم يلبث الفرنجة أن استولوا على هذه الإمارات واحدة بعد أخرى .

لقد سقطت الأندلس بعد أن تخلت عنها الدول الإسلامية القوية كالعثمانيين والمماليك وكان حكام الإسبان قد أحكموا الحصار البحري عليها حتى لا تتسرب إليها أي معونة أو مدد من عالم الإسلام . وفي عام ١٠١٧ هـ وضعت نهاية المسلمين في إسبانيا حيث تقرر نفيهم وإجلاؤهم نهائياً ، وحشدت لهم السفن فذهب بعضهم إلى فرنسا وإيطاليا وإلى الهند وإلى مصر والآستانة . وذهبت الأغلبية الساحقة إلى المغرب وتونس ، ويقرر الطاهربن عاشور أن عدد المخرجين ٣٠٠ ألف . ويرد قول بعض المؤرخين بأنه ربما بلغ نحو المليون سافر منهم إلى فارس وتطوان والرباط وتلمسان ووهران وتونس مائة وثلاثون ألفاً ومات منهم في الطريق ما يقرب من تسعين ألفاً من الجوع والتعب . وخرج منهم إلى فرنسا مائة ألف ، فاشترط عليهم الإفرنج أن يتدينوا بالديانة الكاثوليكية . فرفضوا فردوا من حيث أتوا . . . وتكشف هذه الصفحة ولا شك عن الصمود الذي عرف به المسلمون في إبان الأزمات والأحداث الكبرى مع القدرة على التضحية والاستشهاد . ذلك أن المسلمين لم يسلموا في أي جزء من أجزاء وطنهم إلا بعد أن بذلوا آخر ما في مقدورهم من قوة على التضحية والاستشهاد ، كما تكشف عن أقسى صور الظلم والغدر التي واجهتهم .

ولقد استطاعت أوروبا فعلاً أن ترفض الإسلام ، وأن تجلي العرب عن أرضها ، ومن مداخلها الشرقية والغربية . ولكنها عجزت عن أن ترفض فكر

الإسلام وعقلية العرب، وأن تبدأ من حيث توقف المسلمون وإن صاغت ذلك على نحو آخر محاولة أن تفضي إغضاء الناكر للجميل بالدور الإسلامي في الحضارة.

الثقافة الإسلامية في عصر الوحدة العثمانية

١ ـ **الثقافة التركية**: لا شك قد لعب الإسلام دوراً هاماً في تكوين الثقافة التركية، والتي كانت في الأساس من الثقافة الإسلامية مطبوعة بطابع السنة بالإضافة إلى التقاليد والعادات واللغة العربية. حيث ظلت اللغة العربية سائدة، وظل الإسلام بوصفه ثقافة عربية يفرض طابعه على بلاد الأناضول والبلقان. بل إن اللغة التركية تأثرت باللغة القرآنية العربية حتى وصفت بأن نصفها عربي، يقول فون هامر برحستال:

(عرف الترك الذين لم يكن عندهم مثل ما عند العرب والفرس من عبقرية شعرية فطرية أن يجمعوا ذخائر ثقافة هاتين الأمتين. فبدوا تجاه العرب والفرس من هذه الناحية وغيرها كما بدا الرومان تجاه اليونان)، كما برع العثمانيون في التاريخ. فلم يكونوا رواة فحسب بل محللين. وقد قدموا في مجاله بحوثاً مستفيضة (مادة وتحليلاً) ومن أهم مؤرخيهم سعد الدين صاحب تاج التواريخ.

٢ ـ **السلاطين والدولة العثمانية**: وكان أوائل السلاطين إلى ذلك أدباء وشعراء ناصروا الأدب وأهله، وقدموا للعلماء والأدباء كثيراً من الهدايا والمكافآت الجزيلة التي أعانت على تقدم العلوم والفنون، وكان منهم شعراء لهم دواوين مطبوعة، وقد اتخذ أورخان بن عثمان من العلماء أهل شوراه، وعهد إليهم إدارة المدارس التي فتحها، ومن العلماء اللامعين في حاشيته، عربشاه السوري وأما محمد الفاتح فكان يتكلم خمس لغات، وكان ملماً بالعلوم

الرياضية. وقد أحيا في القسطنطينية ما وصف بعصرها الذهبي بما أنشأ من المدارس ودار الفنون. وكان السلطان سليم الأول شاعراً وله آثار في اللغات التركية والعربية، وقد نقل إلى بلاده المؤلفات العربية واستقدم العلماء والأدباء. وأما السلطان سليمان القانوني، فقد كان عالماً بالفقه والقانون وهو الذي وضع قوانين الدولة.

٣ ـ المظاهر الهامة للفكر والثقافة:

أ ـ نمو البحث العلمي الإسلامي في مجال الفلك والعلوم الطبيعية: فقد هاجر إلى المشرق كثير من علماء المغرب والأندلس الذين كانت جامعاتهم وأبحاثهم العلمية قد التهمها الغرب حين أضاف مدنهم الحافلة بمعامل الأبحاث والدراسات إلى نفوذه. كما حدث في طليطلة وبلنسية وقرطبة.

ب ـ حفلت هذه المرحلة بأعلام لهم دور كبير في بناء الفكر الإسلامي وتطويره: لعل من أبرزهم ابن تيمية (٧٢٨ هـ) وابن القيم (٧٥١ هـ) وابن خلدون (٨٠٨ هـ) وابن نباتة (٧٦٨ هـ) وابن بطوطة (٧٧٩ هـ) والقلقشندي (٨٢١ هـ) والمقريزي (٨٤٥ هـ). والشاطبي والبلقيني والسيوطي. وقد اتصل تطور العلم في مجال الطب والطبيعيات. فقد كان ألمع أطباء هذه الحقبة ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية.

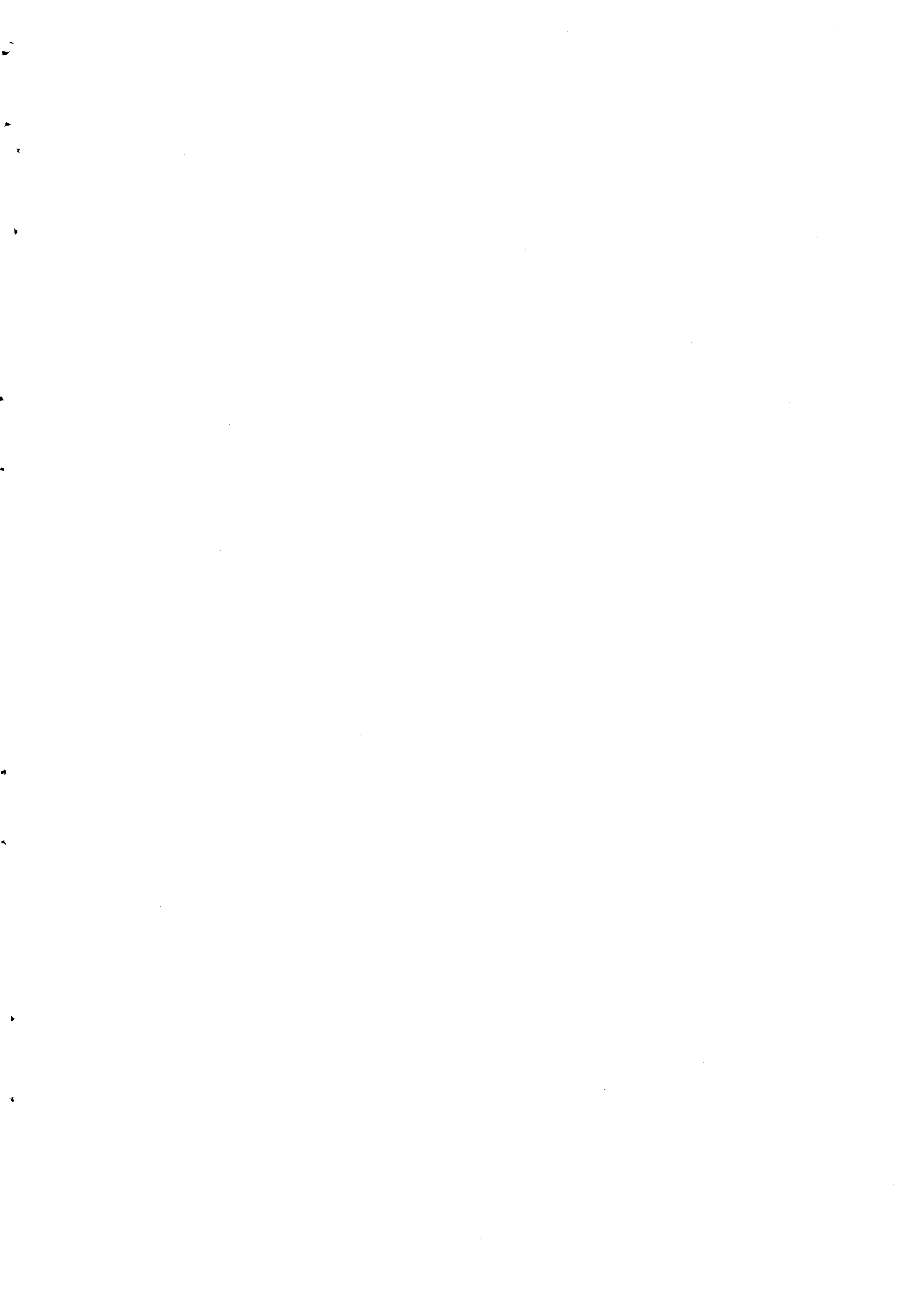
جـ ـ ظلت معاهد وجامعات الفكر الإسلامي تقوم بدورها: الزيتونة والأموي ومدارس النجف والأزهر، وظلت هذه الجامعات منارات للثقافة العربية والإسلامية، ومرجعاً للدولة العثمانية في شؤون الفقه واللغة العربية. وفي خلال القرن التاسع حفل الأزهر بأعلام وفي مقدمتهم ابن حجر العسقلاني والقلقشندي والمقريزي وابن تغري بردي وشمس الدين السخاوي، وجلال الدين السيوطي.

د ـ بدأت في هذه المرحلة إرهاصات اليقظة. فقد نال الشيخ حسن

الجبرتي - والد الجبرتي المؤرخ - حظوة عند الوزير لبراعته في العلوم الهندسية والرياضية، وقام الوزير بتصميم عدة مزاول لبيان الوقت وأهدى إحداها إلى الجامع الأزهر.

هـ - دارت في هذه المرحلة مساجلات فكرية ضخمة.

٤ - **ظاهرة التصوف**: كان جلال الدين الرومي قد ظهر في الأناضول وتوفي (٦٨٨ هـ) وعرف بأنه أعظم شعراء الصوفية، وله كتاب المثنوي بالفارسية وهي منظومة صوفية في نحو ٣٠ ألف بيت. وقد قال المؤرخون أنها موضع نظر الصوفية من سور الصين شرقاً إلى شاطىء البحر المتوسط غرباً. وأنها مرجع لكل من أراد إلماماً بقصائد الصوفية... فقد تأثر الأدب العثماني بالتصوف تأثراً كبيراً. ويرى حيدر بامات أن التصوف جاء من آسيا الوسطى. ويمكن القول بأن الصوفية كانوا يمثلون معسكرين منفصلين، الصوفية المجاهدون الذين عزفوا عن السلطان، وهاموا في الأرض يدعون إلى الله، والذين أسلم على يديهم كثير من الأمراء والحكام، والصوفية التقليديون الذين اتصلوا بالولاة فاتخذ منهم الآخرون وسيلة لتثبيت ملكهم. ولم يكن الانحراف في مفهوم الصوفية إلا جزءاً من الانحراف الذي أثارته الباطنية والشعوبية وخصوم الإسلام، وأصحاب دعوات الهدم والتدمير، وكانت كل جهود هذه الدعوات تهدف إلى الانحراف بالإسلام عن مفاهيمه الأصيلة. أو الاستغناء بالجزء عن الكل. بينما يتمثل الإسلام في مفهومه الحقيقي في خاصتي الشمول والتكامل والوسطية قلباً وعقلاً وفقهاً وتصوفاً، روحاً ومادة. غير أنّ كثيراً من أعلام الصوفية كأبي الحسن الأشعري، والشعراني، وأحمد البدوي. قد حملوا السلاح في معارك مقاومة الغزو الخارجي، ولا شك كان التصوف رد فعل خطير في مواجهة التحلل والانحراف والترف الذي غزا المجتمع الإسلامي، وفي مواجهة طغيان الحكام والولاة والأمراء.



الفصل الثامن عشر

سادساً

اليقظة العربية والإسلامية

جرى تاريخ الإسلام على سنة الانبعاث من الداخل، وأقر في مختلف مراحل حركته قانوناً ثابتاً لا يتحول، وهو تفجر الطاقات الجديدة من قلب الطاقات القديمة، وبناء الخلايا الشابة بمجرد عجز الخلايا العاملة عن الحركة. وقد أتاح الإسلام بقيمه القادرة على الحياة والحركة والنماء لتاريخ الإسلام، هذه الخاصية من النمو والتحول موجة بعد موجة من خلال دورة كاملة. ومن هنا فقد كان ضعف الدولة العثمانية الإسلامية عن حمل أمانة الإسلام إيذاناً ببروز قوة جديدة تحمل هذه الأمانة؛ هذه القوة هي الأمة العربية[1] التي انبعثت من أعماقها الدعوة الإسلامية الأولى. فحملتها إلى آفاق العالم، وكانت لغتها هي لغة القرآن.

---

(١) نحن لا نوافق الاستاذ الجندي على رأيه في أن الأمة العربية هي التي حملت الأمانة في العصر الحديث. فالقيادات العربية. الآن كلها متخلية عن الاسلام، وتحارب حركات البعث الاسلامي في كل مكان. والحركة الاسلامية ليست عوالاً في العصر الحديث على الأمة العربية. بل هي تحمل لواء الكفاح في كل مكان من الأرض الاسلامية. ولم يتقدم أحد لحمل اللواء بعد. وكيف يمكن أن نسمي الأمة العربية حاملة اللواء. واليهود يتحكمون في أرضها ومقدساتها وأعراضها ودينها. وتركع الأمة العربية لهم تطلب منهم المفاوضات والصلح؟؟!!

تركيا العثمانية بين الرفعة والانحدار:

يقول ـ دو جوفارا ـ الوزير الروماني في كتابه ـ مائة مشروع لتقسيم تركيا:

(مدة ستة قرون متتابعة كانت الشعوب المسيحية تهاجم الدولة العثمانية. وكان الوزراء ورجال السياسة وأصحاب الأقلام يهيؤون برامج تقسيم هذه السلطة بما يناهز مائة برنامج. كانت المصالح الاقتصادية تفرق بين الملوك. فإذا جاء الوقت الذي يتكلمون فيه عن تركيا ـ الرجل المريض ـ اتفقوا.). إن السلطة العثمانية لم تسقط دفعة واحدة، ولكنها تساقطت قطعة بعد قطعة في مدة الأعصر الطوال التي كانت أوروبا تناصبها العداء. فما السبب؟.

الأسباب كثيرة منها السبب الذي نشأ عنه سقوط أكثر الممالك العظمى في العالم.

١ ـ سعة الممالك المفتوحة الخارقة للعادة. ٢ ـ اختلاف الأمم الخاضعة. ٣ ـ مساوىء الإدارة وإرتجال النظم. ٤ ـ ضعف القوة العسكرية. ٥ ـ اختلاف الأديان من سكان السلطنة).

بينما يحدثنا الأستاذ الجندي عن أسباب أعمق غوراً في انهيار الدولة العثمانية أجملها بما يلي: ١ ـ كانت السلطة العثمانية عسكرية محضة مستندة على شرع سماوي. وكان التسامح هو الذنب العظيم عند الأتراك. فقد أعطت الدولة العثمانية المسيحيين حريتهم الدينية التامة، وخولتهم أيضاً الحرية المدرسية. هذه الحرية التي كفلت نموهم وترقيهم. ٢ ـ ومن خطط تمزيق تركيا ما قدمه الرهبان ومستشارو الملوك من مشروعات يجعلون التجارة أساساً للسيطرة، وعمل البابا كسيمان على دعوة الملوك والأمراء على مقاومة سلطان الدولة العثمانية مجتمعين تحت زعامة البابا، وتم التحالف في ٢٥ مايو ١٥٧١م على إعلان الحرب الهجومية والدفاعية على الأتراك لاسترداد جميع المواقع التي

سيطروا عليها. وفي موقعة ـ ليبانت ـ فقد المسلمون ٣٠ ألف قتيل و ١٣٠ سفينة و ١٠ آلاف أسير، ووصفت بأنها علامة انحدار أكيد للقوة الإسلامية العثمانية.

ويرى الأستاذ الجندي أن عامل الانفصال عن جوهر الإسلام ومفهوم فكره كان بعيد الأثر إضافة إلى ضعف القوة العسكرية. ٣ - ويرى من علامات الضعف تخلف الثقافة الإسلامية. ٤ - وعجز الدولة العثمانية عن تذويب الشعوب المختلفة في جسم الدولة الكبرى. ٥ - وإغضاء العثمانيين عن تصفية الغرب للدولة العربية في الأندلس.

حركات اليقظة والتجديد:

استيقظت روح الإسلام في كل رقعة من رقاع عالم الإسلام. فهب اتباع محمد ـ ﷺ ـ من مراكش إلى الصين، ومن تركستان إلى الكونغو هبوب العاصفة الزعزع لا يعرف مستقرها. قُدِح الزناد في صحراء شبه الجزيرة، ثم أخذ الشرر يتطاير إلى كل جانب من جوانب العالم الإسلامي[1] كانت حركة التجديد واليقظة الإسلامية تعمل في عدة مجالات في وقت واحد:

تجديد الإسلام نفسه، وازالة عوامل الضعف والجمود، ومجال مقاومة نفوذ الاحتلال بالحرب وحركات المقاومة، ومجال بناء حركات إصلاحية في مصر والهند والمغرب والسودان. وصحراء ليبية، ومجال العمل الوطني الخالص في نطاق التنظيمات السياسية الحديثة، ومجال الوحدة العربية بنفس مضمون الوحدة الإسلامية.

وقد بدأت اليقظة العربية الإسلامية كقوة حية بديلة للقوة العثمانية الإسلامية جرياً على حتمية التجدد وتصحيح المفاهيم. وهي الظاهرة التي لم

(١) المستشرق لوثروب

تتخلف خلال تاريخ الإسلام كله سواءً بالدعوة الفكرية على يد المصلحين، أم بالحركة السياسية على يد القادة وبناة الدول وقد برزت ظاهرة التجديد هذه المرة في قلب الأمة العربية، وفي محورين في وقت واحد. محور قاهرة الأزهر، ومحور الجزيرة العربية حيث انبعث الإسلام.

أما في القاهرة: فكانت تحمل طابع التحرر من ظلم الأمراء والولاة وهو من أبرز مفاهيم الإسلام كان ذلك على أيدي العلماء، الذين برزوا لأول مرة كقوة قائدة، بعد أن كان النفوذ الاجتماعي كله في يد زعماء المتصوفة.. وفي الجزيرة: كانت الدعوة تحمل طابع التحرر من الجبرية الصوفية بإبراز مفهوم الإسلام الأصيل، التوحيد. وقاد حركة التوحيد الإمام محمد بن عبد الوهاب وكانت أبرز أهدافه:

١ - صياغة شعار الإسلام في كلمة التوحيد دون سواها.
٢ - تنقية الإسلام من البدع والأدران التي علقت به.
٣ - التحرر والاستقلال ورفع الاستغلال والظلم عن ديار العرب.
٤ - إيجاد وحدة سياسية إسلامية...

وكان أعمق ما أبرزته دعوة التوحيد أمرين هامين هما جماع مفهوم الانبعاث في الإسلام:

أولاً: باب الاجتهاد مفتوح، وأن لكل مسلم الحق في أن يجتهد لفهم دينه.
ثانياً: ضرورة القيام بفريضة الجهاد.

وقد ركز الإمام محمد بن عبد الوهاب على اعتبار الكتاب والسنة هما دستور الإسلام الوحيد، ونادى باتخاذ أسلوب الفطرة في فهم الإسلام بعيداً عن تعقيدات المتكلمين والفلاسفة والصوفية. وبالجملة فإن دعوة التوحيد كانت ثورة على الاستبداد والضعف والانحلال الذي آل إليه عالم الإسلام، وأول

مواجهة عربية حقيقية لحمل لواء الدعوة الإسلامية بعد ضعف الدولة العثمانية عنها، وقد استمدت مفهومها من نفس الأسس التي أقام عليها ابن تيمية وتلميذه ابن الجوزية، دعوتهما قبل أربعة قرون... وقد كان أثرها واضحاً في حركات ـ شريعة الله[1] ـ وسيد أحمد ضد سلطة المغول والسيخ والبريطانيين، وحركة أحمد خان (الهند) والسنوسية (طرابلس الغرب) والمهدية (السودان)، وحركة جمال الدين ـ الأفغاني ـ في الهند وفارس ومصر، وحركة محمد عبده وصحيفة المنار ورشيد رضا، كما امتد نفوذ حركة التوحيد إلى قلب الأقطار البعيدة مثل نيجيريا وسومطرة، وكان لها دورها في تأريث الحركات الثورية.

السنوسية: تمثل السنوسية الحلقة الوسطى بين دعوة التوحيد وبين الجامعة الاسلامية، وتجمع في نفس الوقت بين الدعوة والحركة، وتربط بين التوحيد والتصوف، وقد انبعثت السنوسية كرد فعلٍ لاحتلال فرنسا للجزائر، وكان محمد بن علي السنوسي جزائري الأصل، فدفعته الصدمة المذهلة الى الطواف في العالم الاسلامي بحثاً وراء محاولة جماعية إسلامية للمقاومة، ثم استقر رأيه على العمل في الصحراء على دعامتين أساسيتين:

أولاً: بناء أجيال من شباب الاسلام بالتربية الاسلامية والعسكرية في نفس الوقت.

ثانياً: نشر الاسلام في افريقية.

ولما ولي محمد المهدي بعد وفاة والده ١٨٥٩ عَمَّق الدعوة ودعم نفوذها، فعلم السنوسيين استعمال الأسلحة التي كانت تهرب من ميناء طبرق، ومن هنا بدأ نفوذ السنوسيين يزعج الاستعمار الاوروبي ويهدد نفوذه في قلب افريقية، واتسع نطاق الحركة سياسياً فبلغ من الحدود المصرية شرقاً الى شواطىء

(١) اسم أحد المصلحين في الهند.

الاطلنطي غرباً من خلال ليبية وبرقة وطرابلس وفزان وصحراء الجزائر ومنطقة تشاد ، وكان للسنوسيين من بعد دور ضخم في مقاومة الاحتلال الايطالي عام ١٩١١ م.

الجامعة الاسلامية: ظهرت الجامعة الاسلامية كمرحلة متقدمة لدعوة التوحيد ، وطغت كمحاولة سياسية للتجمع لمواجهة الغزو الاستعماري ومقاومته كوحدة . وكان مفهوم جمال الدين الأفغاني للجامعة الإسلامية مفهوماً تقدمياً قائما على استخلاص أكبر قدر من الحضارة لمواجهة الاستعمار بنفس أسلحته . والاقبال على العلوم الاوروبية وأساليب الحكم العصرية . وتطهير الاسلام من الشوائب . وتضامن المسلمين وتوحيد كلمتهم ، والتضييق على استبداد الأمراء بالحكم الدستوري الشوري ، واستكمال أسباب القوة المادية ، ونبذ الخلافات الجنسية والمذهبية ، ولقد كانت دعوة جمال الدين الافغاني أقوى موجة من موجات اليقظة العربية الاسلامية ، وكان ايمان جمال الدين بأن الأمة العربية هي التي تستطيع أن تحمل لواء اليقظة هو ما دفعه الى أن يترك الافغان وهند وفارس وأن يختار مصر لبث دعوته ، وقد تابعه مجموعة ضخمة من المفكرين الذين برزوا في أوائل القرن الرابع عشر ، محمد عبده ، ورشيد رضا ، ومصطفى الغلاييني ، وشكيب أرسلان ، وقد مثل صوت جمال الدين الافغاني مفهومه لايقاظ الاسلام في عبارات واضحة صريحة حين قال : (العالم النصراني على اختلاف أممه وشعوبه عرقاً وجنسية هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم ، والاسلام على الخصوص . . . فجميع الدول النصرانية متحدة معاً على دك الممالك الإسلامية ما استطاعت الى ذلك سبيلاً ؛ أن الروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدور النصارى كمون النار في الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية مختلجة في قلوبهم حتى اليوم كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل .

محمد عبده: الذي تبلور ايمانه في حقيقة واحدة في أن التربية والتعليم هي المجال الوحيد لليقظة ومقاومة الاستعمار.

الكواكبي: قام مفهومه على أساس ان العرب هم القوة الوحيدة لجمع الكلمة، وأن يقظة الاسلام انبعثت أساساً من الأمة العربية[1]. وقد هاجم الكواكبي التصوف الزائف الذي حمله بعض دعاة الجبرية ممن كانوا يبثون روح الاستسلام والاستكانة للحاكم المستبد وللغزو الغربي، وحمل على الأمراء المستبدين والعلماء المدلسين والجهلة المتصوفين.

الحركة السلفية: وكان أول من تصدى لنشر دعوة اليقظة والاصلاح. وهي ما يطلق عليها في المغرب الدعوة السلفية ـ الشيخ عبدالله السنوسي، وقد كان للعروة الوثقى التي أصدرها الافغاني ومحمد عبده في باريس ثم المنار أثره البعيد المدى في تأريث مفاهيم تحرير العقيدة وارتباط ذلك بمقاومة النفوذ الأجنبي. وقد اتخذت الحركة السلفية في المغرب خطوات أشد حسماً وعنفاً عندما استغل الفرنسيون بعض مشايخ الطرق، مما أدى الى الحكم على رئيس الزاوية الكتانية بالاعدام وتنفيذه. واستطاعت هذه الحركة من بعده على الزمن أن تحل محل التصوف ممثلة قوة الاسلام وسلامة مفاهيمه.

اليقظة في عالم الاسلام: في الهند: كانت حركة ـ شاه ولي الله ـ المتوفى في سنة ١٧٦٠ م تمثلا لمفاهيم حركة التوحيد التي حمل لواءها محمد بن عبدالوهاب. ثم ظهر أحمد عبدالرحيم الدهلوي الذي دعا الى تصحيح مفهوم الاسلام والاتصال المباشر بالكتاب والسنة، ثم ظهر الامام احمد بن عرفان الشهيد وبدأ

---

(١) لا نوافق أستاذنا الجندي على تقييمه لرأي الكواكبي. فلقد كان تصور الكواكبي للأمة الاسلامية كاملة، بحيث يحمل كل شعب من شعوب هذه الأمة جانباً من جوانب البناء الذي نبغ فيه، فقيادة الجيش للأتراك، والحكمة للهند والخلافة الدينية للعرب، وغير ذلك... أنظر كتاب ـ أم القرى ـ.

دعوته سنة ١٢٢٦ هـ . وقد دعا الناس الى الدين الخالص والتوحيد، واتباع السنة ومحاربة البدعة، واستطاع أصحابه انشاء الدولة في بشاور، وطبقوا فيها نظام الاسلام. وجمعوا بين العبادة والجهاد واستشهد عام ١٢٤٩ هـ . وقد كان لهذه الحركات أثرها في ثورة الهنود المسلمين على الانجليز عام ١٨٥٧ م. هذه الثورة التي حارب فيها المسلمون النفوذ البريطاني. وكان لهذا الحادث أثره البعيد المدى في نفوس المسلمين بعد استكمال السيطرة البريطانية على الهند. وتكوين الامبراطورية البريطانية، هذه السيطرة التي أبعدت المسلمين من حكام الهند حتى هذه الفترة عن مكان القيادة. وعزلتهم تماماً عن الحكم والتعليم. وكان من أبرز مفاهيم حركة اليقظة الاسلامية في الهند ان الأمة العربية هي وعاء الاسلام ولسانه، وأنها لقادرة على حمل رسالة العمل الاسلامي في هذه المرحلة بعد ضعف الدولة العثمانية.

الاسلام والغرب

حين كانت أوروبا تمر بأقسى مراحل التأخر. كان عالم الاسلام يزخر بحضارة واسعة، وقد التقى الغرب بحضارة الإسلام في معارك الصليبيين. فكان ذلك مقدمة لإقامة الجسور الكبرى التي نقلت حضارة وقيم الفكر الإسلامي الى مجتمع حضارة الغرب وثقافته. وقد اتصل هذا التأثير وبلغ غايته حين انضم مجتمع الأندلس بجامعاته العلمية وبخزائن كتبه وآثار حضارته وثقافته الى الغرب انضماماً نهائياً. وإن مفهوم الاسلام للحرية والكرامة الانسانية والمساواة كان بعيد الأثر في كل كتابات الفلسفة أمثال روسو، وفي الحركات السياسية كالثورة الفرنسية وغيرها. وكانت دعوة الفكر الاسلامي الى تحرير العقل بعيدة المدى في انهيار نفوذ الكنيسة والحد من سيطرتها على الحياة. بل ان حركة لوثر وكالفن كانت أثراً من آثار الفكر الاسلامي. وكان للقرآن بعد أن تُرجم بالغ الأثر في صيحة لوثر بعد أن قرأ ما كتبه ابن رشد وابن سينا والفارابي عن نبي

الاسلام مما دفعه ان يقول عن المسلمين أن نشاطهم الديني مثل يحتذى ، وكذلك حكومتهم الرشيدة وقوانينهم وصدق اخلاصهم ، وهم يتركون الناس يعتنقون الدين الذي يميلون اليه ولا يكرهون أحداً . وقد أشار كثير من الباحثين الى أن دعوة الاصلاح في أوروبا لم تبعد عن الاسلام الا قليلا ، وفي مقدمة هذا الأثر الغاء وساطة الكنيسة بين الله والناس ، والثورة على الأصنام والصور وتحطيمها . وحتى ليصل بعض المؤرخين في هذا المجال الى القول بأن الصراع بين الكنيسة والحرية العقلية في القرون الوسطى ، كانت صراعاً بين الكنيسة والفلسفة الاسلامية بأسرها .

الغرب والاسلام : ذلك كان دور الاسلام في أوروبا . فماذا كان دور أوروبا في الاسلام ، والحق انه كان دوراً مليئاً بالعقوق والكراهية والتعصب . وكان البرتغاليون والاسبانيون أبعد الناس تأثراً بالفكر والثقافة العربية والاسلامية ، وهم حملة لواء العقاب لعالم الاسلام . . . وقد غفل الكتاب الباحثون والمؤرخون طويلاً في آثارهم ومؤلفاتهم التي عرضت لحركة الكشوف الجغرافية حول شاطىء العالم الاسلامي . أو في قلب افريقية من بعد . غفلوا عن أنها حركة استعمارية وليست علمية . وانها كانت تستهدف السيطرة على عالم الاسلام . يقول جورج كهرل (لقد كان هدف هنري الملاح هو استقرار الصليبيين بواسطة التغلب على عالم الاسلام حربياً وتجارياً . . .) . غير أن هذه الحركة لم تصل الى ما كانت تطمع فيه . فقد أوقفتها القوة الاسلامية العثمانية النامية التي استطاعت ان تقضي عليها . ويقول باركر مؤرخ الحروب الصليبية (كانت البعثات التبشيرية التي أرسلت الى بلاد المغول ترجو من وراء رحلتها أن تحقق أمل الصليبيين وتستعيد بيت المقدس الى الابد . بيد أن هذا الحلم الخادع قد تهدم عن آخره . نعم تلاشى ذلك الحلم الخادع الذي كان يرسم لأصحابه في الخيال صورة آسيا وأوروبا المسيحية تحصران الاسلام بينهما . فلا

يصبح بعد ذلك الا عقيدة متضائلة محصورة في فئة قليلة من الناس في ركن إسبانيا وفي جانب من شرق البحر الابيض. وذلك ان خانات فارس دخلوا الاسلام ١٣١٦ م. وأسلم أهل وسط آسيا في منتصف القرن الرابع عشر (الثامن الهجري)، وتربعت على عرش الصين أسرة ميخ الشهيرة بين سنتي ١٣٦٨ - ١٣٧٠ م. وأقفلت أبواب الصينيين في وجه التجارة الاجنبية. فكانت النتيجة ان انقطعت السبيل بالمسيحية. واتساعاً بعيداً في رقعة الاسلام الذي أدرك شأواً بعيداً من الاتساع بظهور الاتراك العثمانيين. لكن أملاً جديداً تراءى للغرب الذي لا ييأس. وكان هذا الأمل الجديد سبباً في أكبر انقلاب عرفه التاريخ، وتساءل الاوروبيون: إذا كان طريق البر قد أقفل. فلم لا تسلك أوروبا طريق البحر، ولماذا لا تبحر الى الشرق، وتهاجم الاسلام من الخلف، وبذلك تستعيد بيت المقدس، وكان هذا أمل الملايين الذين حملوا الصليب على صدورهم، واعتقدوا أنهم برحلتهم الى بحار الهند يعملون لتخليص الأراضي المقدسة... وهكذا كان مفهوم الغرب للغزو الجديد وللمرحلة الجديدة، وللحروب الصليبية التي أطلق عليها اسم الاستعمار الحديث.

لم يلبث الغرب أن ركز ثقله على تمزيق قاعدة الاسلام (الامبراطورية العثمانية) وقد ظل هذا العمل مستمراً من ١٦٨٤ الى ١٨١٨م خلال مائة وأربعة وثلاثون عاماً، وتنافست في ذلك فرنسا وروسية وبريطانية... وكان من أبرز الحركات الاستعمارية الجديدة ما اتجه اليه الغرب من العمل على شق قناة تربط البحر الابيض بالبحر الاحمر. يقول الدكتور مصطفى الحفناوي: (كانت قد رفعت الى ملك فرنسا عام ١٢٤٩ م وثيقة تطالب بشق قناة في برزخ السويس تكون ملكاً للعالم الغربي كجزء من خطة الحروب الصليبية، ثم توالت المشروعات التي تستهدف انشاء طريق في برزخ السويس وفي ١٥ مارس ١٧٩٢ م رفع الفيلسوف ليبنز الى لويس الرابع عشر مذكرة قال فيها (أريد ان اتحدث في

مشروع غزو مصر ، ولا يوجد بين أجزاء الأرض بلد غير مصر يمكن السيطرة منها على العالم كله . وعلى تجارة الدنيا بأسرها . انكم حين تغزون مصر ستقضون على الامبراطورية التركية القضاء المبرم ، اذا غزوتم مصر ستنظرون بعين الارتياح والرضا لهجومكم على المسلمين) .

انتشار الاسلام

سجل الاسلام على طول تاريخه كله هذه الظاهرة من التحدي ورد الفعل بحيث كلما تظهر قوة تحاول أن تقضي عليه يظهر الإسلام وهو يكسب أرضاً جديدة . وحيث تظهر علامة الضعف والانهيار في وحدة من وحداته تظهر علامات البعث واليقظة في وحدة اخرى فلا يسقط اللواء أبداً . فإذا ضعفت اليد التي تحمله ، امتدت يد أخرى فأبقته مرفوعاً . . . وتبدو صورة التوسع الاسلامي في أواخر القرن الثالث عشر ، وأوائل القرن الرابع عشر الهجري يرسمها كابتن بتلر في تقريره الذي ألقاه في مؤتمر الكنيسة الانجليزية عام ١٨٧٧ م والذي نشرته التايمز في ٧/١٠/١٨٧٧ يقول :

ان الاسلام اليوم يمتد من مراكش الى يافا . ومن زنجبار الى الصين ، ويخطو في داخل افريقية خطوات كبيرة ، وتعتنقه أمم كثيرة ، وقد خطى بنفسه وثبت أقدامه في الكونغو وزائيري ، وأصبحت أوغندا أقوى البلاد السودانية وأشدها بأساً اسلامية بأجمعها . أما في الهند فإن التمدن الغربي الذي يهدم أركان الوثنية يمهد الطريق للدين الاسلامي لا غير . وسكان افريقية بأجمعهم أكثر من النصف منهم مسلمون ، وليس هذا بأول تقدم للاسلام يلزم بيانه . . . والبحث عن سرعة انتشاره . . . بل هو عدم الخلط والخبط في أصوله ، الامر الذي جعل له مكاناً ثابتاً في قلوب أهله ، وكل من يدين به ، أجل فقد اعتنق الاسلام أمة بحذافيرها في أفريقية صفقة واحدة ، ولم ترتد الى الوثنية قط . والاسلام أفاد التمدن أكثر

من أي دين آخر ، فقد نشر راية المساواة والاخوة وهذه الأدلة نذكرها نقلاً عن تقارير الموظفين من الانجليز ، هذه النتائج التي تنتج عن الاسلام. فإنه عندما تدين به أمة من الأمم السودانية الافريقية تختفي من بينها في الحال عبادة الاوثان ، وتحرم أكل لحم الانسان ، وقتل الأولاد ووأد الاطفال. وتضرب عن الكهانة ، وتأخذ أهلها بأسباب الاصلاح وحب الطهارة ، ويصبح عندهم قري الضيف من الواجبات الدينية ، وشرب الخمر من الامور الممنوعة. ولعب الميسر والأزلام محرمة ، والرقص القبيح ومخالطة النساء اختلاطاً دون تمييز منعدمة ، وتصبح عفة المرأة عندهم من الفضائل. فالاسلام هو الذي يعمم النظامات ويقمع النفس عن الهوى ، ويحرم اراقة الدماء ، والاعتدال في تعدد الزوجات ، والعدل في الاسترقاق ، وزيادة عن ذلك فالاسلام غني بالكلية عن الشركات الدينية التجارية. والتجارة الاوروبية تمهد وسائل المسكرات ، وتسوم الشعوب خسفاً وإذلالاً ، والاسلام ينشر لواء المدنية القائلة بالاحتشام في الملبس ، والنظافة والاستقامة وعفة النفس.

بين العرب والترك

بدأت حركة اليقظة بعلامتين كبيرتين:

تقدم العلماء مرة أخرى لحمل لواء المناصحة للحكام والأمراء ، وقيادة الحركات المطالبة بالاصلاح والعدل الاجتماعي. وكانت أبرز هذه الصور قد انبعثت من الأزهر في القاهرة ، وفي نفس الوقت كانت الدعوة إلى التوحيد التي حملها محمد بن عبد الوهاب في قلب الجزيرة العربية دعوة إلى التحرر من مفهوم العبودية السياسية والروحية والاجتماعية كافة. ومن هنا بدأ الصدام بين هذه القوة الجديدة الشابة ، وبين الدولة العثمانية التي كانت خاضعة لنفوذ الصوفية الجبرية. غير أن قوة جديدة في مجال السياسة لم تلبث أن ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر بقيادة محمد علي في مصر. وكانت تحمل طابع القوة

العسكرية.. ولما كان الاستعمار المتصارع على مناطق النفوذ متفقاً في القضاء على الدولة العثمانية وتمزيق ممتلكاتها، وتقسيمها فيما بينه. فقد استطاع أن يوعز إلى الدولة العثمانية أن تضرب القوتين بعضهما ببعض. وقد حدث فاستعان السلطان بقوة مصر العسكرية الحديثة في القضاء على قوة الجزيرة العربية، ثم استطاع الاستعمار من بعد أن يقضي على قوة مصر، وبذلك انفسح أمامه الطريق مرة أخرى لتحقيق غايته في السيطرة على العالم الإسلامي وتقسيمه إلى مناطق نفوذ له.

الحرب الصليبية الجديدة:

يمكن أن توصف الفترة التي بدأت بإعلان التوحيد (١١٥٣ هـ - ١٧٤٠ م) إلى نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ م بأنها مرحلة متكاملة في مجال اليقظة الإسلامية، فقد تطورت فيها حركة اليقظة وتبلورت وتداخلت في عديد من الموجات والدعوات التي حمل لواءها محمد بن عبد الوهاب والشوكاني والسنوسي والمهدي والسرهندي والدهلوي وجمال الدين ومحمد عبده والكواكبي ورشيد رضا، كما تمثلت في ثورات متوالية على الانجليز في الهند (١٨٥٧) وعلى الفرنسيين في الجزائر (١٨٣٠) وعلى الانجليز في مصر (١٨٨٢) وعلى الروس في القوقاز، وعلى الانجليز في فارس. وبالنسبة للعالم الإسلامي كله يمكن القول أن الحرب الصليبية لم تتوقف وإنما دخلت في دور جديد من ثلاث مراحل:

١) مرحلة تطويق عالم الإسلام. وقد امتدت هذه المرحلة حتى عام ١٧٩٨.

٢) ثم بدأت مرحلة الاحتلال العسكري بحملة نابليون. وانتهت هذه المرحلة عام ١٩١٨. ويمكن القول انه بانتهاء الحرب العالمية الأولى كان العالم الإسلامي كله قد سقط في قبضة الاستعمار الغربي ما عدا إيران وأفغانستان.

وإن كان للاستعمار معهما معاهدات.

٣) وفيما بعد الحرب العالمية الأولى بدأت مرحلة ما تزال محتدة هي مرحلة الاستعمار الفكري الاقتصادي لعالم الإسلام.

وقد سعى الاستعمار إلى ذلك بعدة وسائل اتخذ لها خططاً حاسمة:

أولاً تجميد اللغة العربية في العالم الإسلامي ومحاولة إحياء اللغات القومية، ونقلت لغة المستعمر، ودفع اللغات القومية إلى كتابتها بالحروف اللاتينية كما في تركياوإندونيسية.

ثانياً: فرض المدارس الأجنبية، ومدارس الإرساليات بمناهجها ولغاتها مع فرض تاريخ الغرب وأبطاله ومذاهبه وثقافته.

ثالثاً: التبشير بالديانات التي تمثلها ثقافة المحتل.

رابعاً: تغيير العقائد والأنظمة الاجتماعية والقوانين، وتجميد الشريعة الإسلامية وأحكامها وأنظمتها وإحلال القوانين الأوربية المستمدة من بيئات الغرب وأديانه وحاجاته محل القيم الإسلامية.

خامساً: فرض مظاهر الحضارة الحديثة في الفنون والمجتمع وأدوات اللهو والقصص المكشوف والمسرحيات ذات الطوابع المنحلة. وذلك بهدف القضاء على مقومات المجتمع أخلاقياً وبث روح الانحلال بين الشباب.

سادساً: إذاعة الدعوات التخريبية المنحرفة والمذاهب الهدامة، وضرب الفكر الإسلامي بقضايا وأفكار وآراء تقوم على الإلحاد والإباحة، وبما يقضي على مقومات الإسلام والفكر الإسلامي وأخلاقياته.

سابعاً: ضرب العروبة بالإسلام، ومحاولة دفع تيار العروبة إلى منهج منفصل من مقومات الفكر العربي الأساسية في اللغة والتاريخ والتراث.

ثامناً: إقامة قواعد عسكرية تكون عاملاً أساسياً في ضرب حركات التحرر.

تاسعاً: إثارة الشبهات المضللة حول الإسلام.

الإسلام والغزو الاستعماري الحديث:

وتتسم هذه المرحلة بسمات واضحة:

١ - أبرز الإسلام في هذه المرحلة قادة فكر وقادة عمل - واستطاعت حركات المقاومة أن تستمد وقودها من الكلمات المضيئة التي جهر بها قادة الفكر واستمدوها من القرآن والسنة أصلاً

٢ - برزت في هذه المرحلة قوى مقاومة عسكرية قادرة لا تقل في إيمانها بالإسلام والدفاع عنه. وقد تجلت هذه القوى في الجزائر بقيادة عبدالقادر الجزائري والقوقازيين بقيادة شامل، والمصريين بقيادة عمر مكرم وأحمد عرابي، والسودانيين بقيادة المهدي والتعايشي، والهنود في ثورة عام ١٨٥٧ م وغيرها، والعمانيين والسواحليين بمواجهة البرتغال والإسبان والإنجليز، وكذلك السنوسيين بقيادة أحمد الشريف، وشن المغاربة حملة على شاطىء المتوسط، وبين الفرنجة قاوم الجاويون هولندة... وقد كتب المسلمون في هذه المرحلة صفحة مشرقة لا تقل كفاءة عن صفحات مراحل الغزو الخارجي الذي سبق عصر الدعوة الإسلامية العثمانية.

الفصل التاسع عشر

معالم أساسية في تاريخ الإسلام

من خلال تاريخ الإسلام تبدو حركة الإسلام في محورين:

١ - محور الأعماق على مشارف العالم كله بالانتشار الذاتي.

٢ - محور الأبعاد على مدار التاريخ من خلال النفس الإنسانية مع دورة الحضارة

وقد حقق تاريخ الإسلام من خلال المحورين عملاً ضخماً متصلاً. حيث هناك معالم أساسية تواتر عملها خلال التاريخ. كان من الضروري متابعة تطورها للكشف عما استطاعت تحقيقه خلال أربعة عشر قرناً من عمر الإسلام.

السنة والشيعة

يرى الأستاذ الجندي أن (الفروق المذهبية بين الجعفرية[١] والمذاهب

---

(١) إضافة إلى مذهب الجعفرية - من مذاهب الشيعة - فهناك الزيدية، وهم أقرب مذاهب الشيعة إلى أهل السنة. وهم يقرون بإمامة المفضول. فيقرون بإمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وصحة خلافتهما وإن كانوا يرون فضل عليٍّ رضي الله عنه عليهما.

الأربعة السنية لا تكاد تذكر وهي تتمثل في مسائل فرعية[1] دعا إليها الاجتهاد في الرأي.

ومن جهة أخرى فإن حب آل البيت والرسول الكريم إنما يمثل حقيقة سنية وشيعية واحدة وربما كان الخلاف في الدرجة)[2]. كما يسوق قول أحد علماء الشيعة الذي يتحدث عن موقف الشيعة من الغلاة والفئات الباطنية. فيقول:

(ويصور العلاّمة جواد مغنية موقف الشيعة من الغلاة فيقول:

« الغلاة هم المتظاهرون بالإسلام الذين نسبوا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والأئمة من ذريته إلى الألوهية والنبوة، ووصفوهم بما تجاوزوا فيه الحدود، وخرجوا عن القصد فهم ضلال كبار. ».)[3]

العرب مادة الإسلام

منذ بزغ الإسلام ارتبط بالأمة العربية[4] أوثق ارتباط، وقد كان التقاء الإسلام بالأمة العربية التقاء بعيد المدى في نمو الإسلام وتوسعاته، وفي بناء

---

(١) لا نوافق استاذنا الجندي على أن الخلاف بين السنة والشيعة لا يكاد يذكر. وأنه يتمثل في مسائل فرعية فالحق أن هناك قضية أساسية وجذرية في الخلاف بين السنة والشيعة هي موقف الشيعة من الحديث الشريف أو من تصحيحه بصورة أدق... إن أهل السنة يرون أن البخاري ومسلم فيما صححاه من حديث، وما وضعاه من قواعد للجرح والتعديل هم وأئمة الحديث بعدهم بهذا الشأن هي المعيار الذي نحكم به على صحة الحديث وبالتالي نستقي منه الأحكام، بينما ينفرد الشيعة في رأيهم بالحديث أن الحديث لا يصح إلا إذا كان مروياً عن أحدٍ من أهل البيت. وما لم تحل هذه المعضلة عند الشيعة، فسيبقى الشرخ كبيراً بيننا وبينهم.

(٢) ولا أدل على مصداق هذه الفكرة من قول الشافعي رضي الله عنه، أحد الأئمة الأربعة،

إن كان رفضاً حب آل محمدٍ ... فليشهد الثقلان أني رافضي

(٣) نستغرب تماماً أن يدخل الاستاذ الجندي بعض المذاهب الباطنية في الشيعة مثل العلوية والدرزية والاسماعيلية، في الوقت الذي يعتبرهم الشيعة كفّاراً، وليت شعري فمن يكون الغلاة إن لم يكن هؤلاء؟؟؟.

(٤) كان الأولى أن يقال أنه ارتبط بالعرب لا بالأمة العربية. فالأمة العربية قد صيغت من خلال الاسلام وتاريخه.

الأمة العربية ذاتها. فالأمة العربية هي التي حملت الإسلام إلى العالم أجمع. وكانت اللغة العربية ـ لغة القرآن ـ هي أداة فكره وثقافته وحضارته. والإسلام هو الذي نقل العرب إلى الطور النهائي من أطوار تكوين الأمم، إذ جعلها أمة ذات حضارة، وفي الوقت نفسه ذات رسالة إنسانية عالمية. وهكذا فإن تصور الإسلام منفصلاً عن العروبة، والعروبة منفصلة عن الإسلام هو تصور مبتور وناقص، وغير قادرٍ على إعطاء الحقيقة في بناء الإسلام، وفي كيان الأمة العربية، وفي مجالين كبيرين كاللغة والتاريخ لا يمكن فصل الإسلام عن العرب. فقد ظلت اللغة العربية هي قوام الثقافة الإسلامية حتى في فترات الضعف. وفي مراحل اتساع اللغتين الفارسية والتركية، وظل تاريخ الإسلام هو تاريخ العرب[1] في بطولاته ومواقفه وتوسعاته وآثاره البعيدة المدى. وقد اعتنق الإسلام أجناس كبيرة من غير العرب بوصفه إنساني النزعة، عالمي التركيب. وقد كان دور العرب فيه هو دور الطلائع القادرة على توسيع رقعته. وهو وإن صبغ قيم الفكر الإسلامي بصبغته العربية نتيجة لأنها قدمت للأمم والشعوب في وعاء اللغة العربية، غير أن موجة اللغة العربية وموجة الإسلام لم تلبثا أن انفصلتا. فتوقفت اللغة العربية عند حدود محدودة في الأمة العربية، وغلبت اللغات الإقليمية على الفرس والهند والترك فلم تستعرب هذه الأمم. وإن كتب بعضها بالحروف العربية. ولذلك فقد ظل الرباط الأوسع والأشمل هو الفكر الإسلامي المستمد من القرآن والسنة. بل لقد استطاع الإسلام أن يزيل العرب عن الحكم عندما سيطرت عليهم مفاهيم العصبية القبلية بدلاً من مفهوم المساواة الإسلامي.. وبالرغم من دور العرب الضخم في بناء الحضارة الإسلامية فإن من

---

(١) إن تاريخ الاسلام هو تاريخ العرب وغير العرب المسلمين الذين انطلقوا من الاسلام منهجاً وسلوكاً وعقيدة فالعرب يعتزون ببطولات طارق وصلاح الدين اعتزازهم ببطولات خالدٍ وأبي عبيدة.

الظلم أن ينكر دور الأجناس غير العربية التي شاركت في التاريخ والحضارة والثقافة والتراث، والحق أن الإسلام في مختلف دورات التاريخ قد احتضن الوحدة العربية بكل قوة ونماها، واتخذ منها منطلقاً له. وقد استطاع الإسلام القيام بهذه المهمة ولا يزال.

انتشار الإسلام ذاتياً

صوَّرَ هاملتون جب ـ حركة انتشار الإسلام على أنه تم بسلسلة من القفزات السريعة (ففي مدة لا تتجاوز القرن إلا بقليل بين عامي ـ ١٠ ـ ١٢٣ هـ استطاعت جيوش الخلافة أن توسع رقعة الحكم الإسلامي من أواسط آسيا شرقاً حتى مراكش واسبانيا في أقصى المغرب ـ وظل الإسلام محصوراً في هذه الرقعة إلى قرابة القرنين ونصف القرن. امتد بعدها حتى شمالي غربي أفريقية وآسيا الصغرى وآسيا الوسطى وشمالي الهند وكان ذلك بين عامي ـ ٤٠٠ ـ ٥٠٠ هـ. وبعد قرنين آخرين كانت هناك موجة أخرى من التوسع اندفعت صوب شبه جزيرة البلقان ومنحدرات روسيا وسيبريا وباقي أرجاء الهند إلى أندنوسيا وصقلية متغلغلة في بعض المناطق على نطاق ضيق لا سيا في أفريقية). ونستطيع أن نضيف إلى عرض ـ هاملتون جب ـ القول بأن الإسلام قد وسع رقعته وما يزال في أرخبيل الملايو وفي وسط أفريقية وغربها على نحوٍ هو موضع الغرابة من الباحثين والمعلقين الذين يتصورون أنه سيتضاعف قوة في خلال القرن الخامس عشر الهجري. والحق أن انتشار الإسلام في خلال موجاته المتتالية قد كشف مقدرة أشبه برد الفعل إزاء تحديات الغزو الخارجي. وحتى يكاد استمرار هذه الظاهرة وتواليها أن يكون أشبه بقانون علمي أو ناموس طبيعي. يقول توماس آرنولد: (عندما تضعضعت قوة الإسلام السياسية ظلت غزواته الروحية مستمرة دون انقطاع. وعندما ضربت جموع المغول

بغداد (٦٥٦ هـ). وعندما طرد ـ فرديناند ـ ملك قشتالة وليون المسلمين من قرطبة ١٢٣٦ م. في هذين الوقتين كان الإسلام قد استوت دعائمه وتوطدت أركانه في جزيرة سومطرة. وكان يشق طريقه في تقدم ناجح في جزيرة الملايو.) ويقدر جملة الذين أسلموا في البلاد التي كانت تحت سلطان القيادة السياسية الإسلامية بمائة مليون. بينما يبلغ الذين أسلموا بانتشار الإسلام ذاتياً أكثر من خمسمائة مليون. وهم من أسلم في الهند والصين وأرخبيل الملايو ووسط أفريقية. شارك في نشر الإسلام مختلف عناصر المسلمين: بربر وفرس وترك وزنوج وعلى مختلف مذاهبه سنة وشيعة. وليس هناك من سبب أصيل سوى أن الإسلام دين الفطرة، وأن بساطته وسماحته قد نقلت قلوب هذه الجماعات البدائية البسيطة من الوثنية إلى تقبله. وقد اعترف ـ هو يردشان ـ مؤلف كتاب الديانات في أفريقية السوداء (وكان حاكماً للمستعمرات الفرنسية) بأن انتشار الدعوة الإسلامية في غالب الظروف ـ على حد عبارته ـ لم يقم على القهر والتسلط، بل قام على الإقناع لأن الذين قاموا به كانوا شيوخاً متفرقين، ولا تحوطهم قوة، أو تحميهم دولة. وإنما كان الإخلاص هو دافعهم في إظهار محاسن الإسلام وسماحته. وقد يسر انتشار الإسلام ـ في تقدير المؤلف ـ أنه دين فطرة، سهل التناول، خال من التعقيد، وأنه لا يفرض على المسلم طقوساً مبهمة، بل لا يتطلب سوى النطق بالشهادتين. ولذلك كان التجار المسلمون يحملون بذور الدعوة في هدوء ويسر.

مفهوم البطولة في تاريخ الإسلام

وكل الأبطال الذين عرضهم القرآن أبطال مقاومة لا يستسلمون أمام الظلم ـ ولا يحنون رؤوسهم للعدوان. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم هو النموذج الإسلامي الأعلى للبطل، وفي تاريخ الاسلام تنكشف البطولة في ثلاثة أنحاء:

١) بطولة الحرب والمقاومة. ٢) بطولة الفكر وتصحيح المفاهيم ٣) بطولة بناة الدول في مجال الحضارة.

المرأة في تاريخ الإسلام

إن أدق وصف لموقف المرأة قبل الإسلام هو ما عبر عنه عمر بن الخطاب حين قال: (والله ما كنا في الجاهلية نعد النساء شيئاً حتى أنزل الله لهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم) هذا في قلب الجزيرة العربية. أما في أوربا فقد انعقد مجمع ماكون (٥٨٦ م) ليبحث هل المرأة إنسان؟ وكانت قرارات المجمع تتلخص في أن المرأة ليست إلا خادمة للرجل. في نفس هذا العصر قال رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم كلمته الخالدة:

إنما النساء شقائق الرجال

عوامل التأخر، ودوافع التقدم

لخص كثيرون عوامل التحلل والضعف في عالم الإسلام في ثمان نقاط:

١ - الخلافات السياسية والعصبية ٢ - الخلافات الدينية والمذهبية ٣ - الانغماس في ألوان الترف والنعيم ٤ - انتقال السلطة والرئاسة إلى غير العرب ٥ - إهمال العلوم العملية والمعارف الكونية ٦ - الغرور بسلطانهم والانخداع بقوتهم ٧ - الانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم والاعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم والاندفاع في تقليدهم. وقد ساق الأستاذ الجندي هذه الآراء بما نقله من كتابات الكواكبي وشكيب أرسلان. أما رأيه فهو:

(وعندنا أن أبرز عوامل التخلف إنما جاء من الانفصال عن القيم الأساسية للإسلام.).

فلسفة التاريخ الإسلامي

هذه رؤيا جديدة للإسلام من خلال التاريخ الإنساني. يتمثل خلالها تاريخ الإسلام في صورة مجرىً طويل ممتد. بدأ منبعه عند بحيرة واسعة هي الجزيرة العربية، ثم مدفروعه: أحدهما الى المشرق حتى بلغ الصين، والآخر إلى المغرب حتى بلغ الأندلس، والثالث إلى الجنوب حتى بلغ قلب أفريقية. وما زال هذا المجرى يعمق ويتسع حتى شمل القارتين آسيا وأفريقية - وأوغل في أوربا من طرفيها حتى بلغ نهر اللوار من ناحية الغرب، وأسوار فيينا من ناحية الشرق.

والإسلام يبدو من خلال تاريخه في صورة كائن حي له جناحان فكر وحضارة، متجدد الخلايا يمر بمراحل القوة والضعف، حركته الدائبة، وخطوه المتصل الدافع إلى الأمام وأبرز ظواهره: ظاهرة التجدد والتغير وتصحيح المفاهيم من خلال إطاره الجامع، ويتصل بذلك في كلي جناحيه: جناح الفكر يتجدد بظهور أعلام الفكر والرأي، وجناح الحضارة يتجدد بظهور بناة الدول وصناع الأحداث. المفكرون يجددون الجوانب العقلية، ويعدون صياغة المناهج، ويدحضون شبهات الانحراف. والقادة يبنون الجبهة الداخلية، ويردون القوى الخارجية. ومن أبرز **سنن التاريخ الإسلامي**: القدرة على الخروج من دائرة الضعف والتخلف بالتماس جوهر القيم الأساسية. **فكلما** ضعفت حياة المجتمع وانحرف ظهرت قوة شابة دافعة تحمل اللواء.

تكامل مفهوم التاريخ الإسلامي: وقد التفت كثير من كتاب الغرب إلى مفهوم تكامل التاريخ الإسلامي واستقلالية منطقه. يقول ولفرد كانتول سميث:

(إن المسلم يحس إحساساً خاصاً بالتاريخ على نحو يختلف عن فهم البوذي والمسيحي والماركسي. فالرجل الهندي لا يأبه بالتاريخ ولا يحس بوجوده، لأن

التاريخ هو ما سجله البشر من أعمال في عالم المادة وعالم الحس. والهندي مشغول أبداً بعالم الروح، عالم اللانهاية، ومن ثم فكل شيء في عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ولا وزن. والتاريخ بالنسبة إليه شيء ساقط من الحساب.

وأما المسيحي، فيعيش بشخصية مزدوجة أو في عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط. المثل الأعلى غير قابل للتطبيق، والواقع البشري المطبق في واقع الأرض منقطع عن المثل الأعلى المنشود. وهذان الخطان يسيران في نفسه متجاورين أو متباعدين ولكن على غير اتصال. والتاريخ في نظره هو نقطة ضعف البشر وهبوطه وانحرافه. أما الماركسي، فهو مؤمن بحتمية التاريخ، بمعنى أن كل خطوة تؤدي إلى الخطوة التالية بطريقة حتمية. ولكن لا يؤمن إلا بهذا العالم المحسوس. بل لا يؤمن في هذا العالم إلا بالمذهب الماركسي وحده، وكل شيء ما عداه باطل. والماركسي يتبع عجلة التاريخ ولكنه لا يوجهها، ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها.

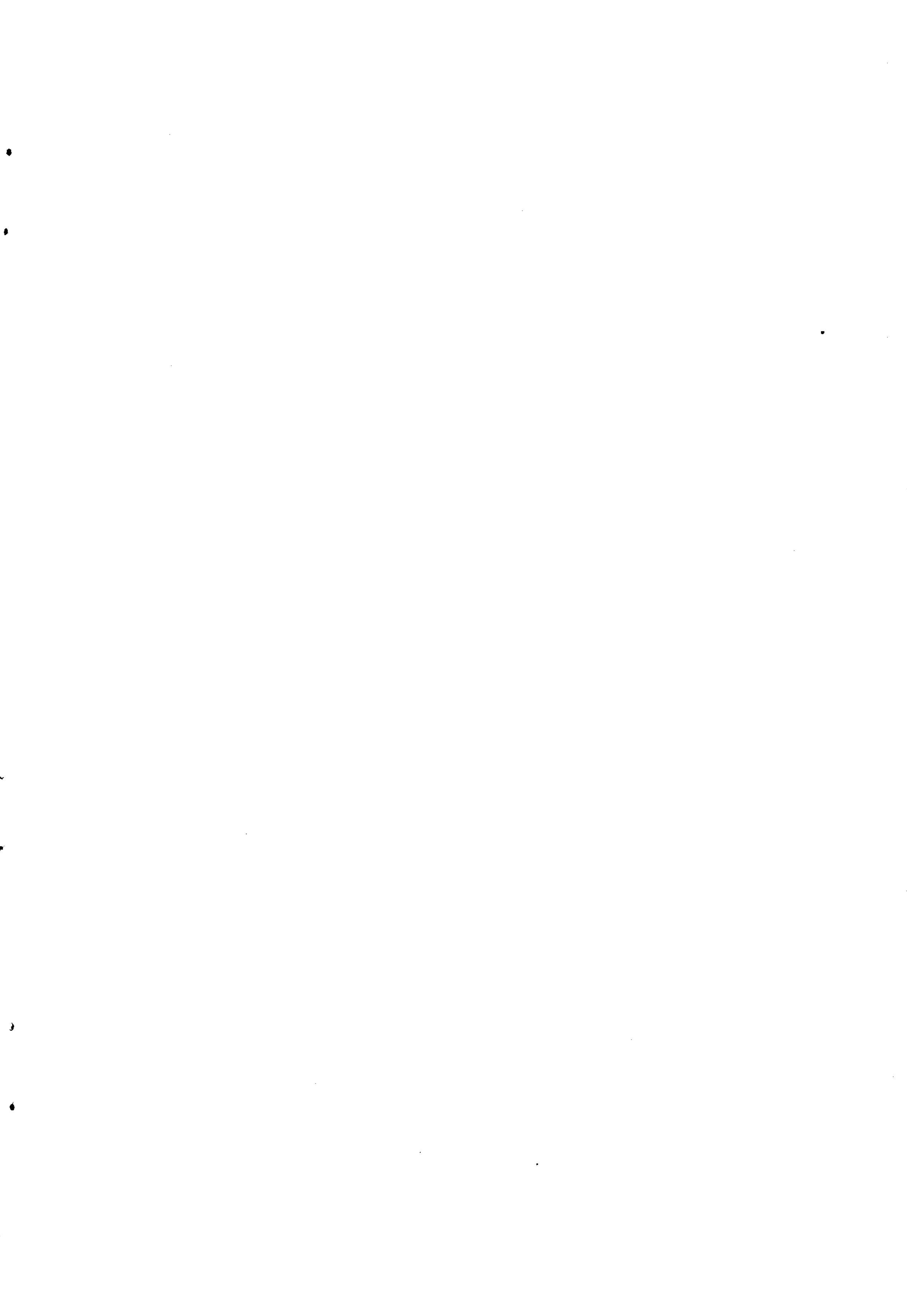
أما المسلم: فإنه يحس إحساساً جاداً بالتاريخ. إنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله في الأرض، يؤمن بأن الله وضع نظاماً عملياً واقعياً يسير البشر في الأرض على مقتضاه. ويحاولون دائماً أن يصوغوا واقع الأرض في إطاره. ومن ثم فهو دائماً يعيش كل عمل فردي أو جماعي، وكل شعور فردي أو جماعي بمقدار قربه أو بعده من ذلك النظام الذي وضعه الله، والذي ينبغي تحقيقه في عالم الأرض لأنه قابل للتحقيق. والتاريخ في نظر المسلم سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله في الأرض، ومن ثم فكل شعور فردياً كان أو جماعياً ذو أهمية بالغة. لأن الحاضر هو نتيجة الماضي. والمستقبل متوقف على الحاضر وما من دين استطاع أن يوحي إلى المتدين به شعوراً بالعزة كالشعور الذي يخامر المسلم من غير تكلف ولا اصطناع، وأن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على

اختلاف القومية واللغة. وكون الإنسان مسلماً باعثاً من بواعث الحمد تسمعه من جميع المسلمين. وأن الغربي لا يفهم الإسلام حق الفهم إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطناً. وليس مجرد أفكار أو عقائد يناقش بفكره.). وقد اتسم التاريخ الإسلامي بسمات جعلت له طابعه ومفهومه. ذلك أنه لما كان الإسلام هو دين فكر ومجتمع وحضارة، فإن التاريخ السياسي في الإسلام هو أقل هذه الجوانب أهمية وعظمة، حيث تبدو الجوانب الضخمة الحافلة بالأمجاد في تاريخ الإسلام الفكري والعملي والعقلي، وفي مجال الدراسات العقلية والفقهية والفلسفية والاجتماعية. وأبرز جوانب التاريخ الإسلامي تمثل في القادة والأعلام والمفكرين الذين بنوا القاعدة العريضة للفكر الإسلامي مستمدة من القرآن والسنة.

كبرى الأحداث الإسلامية منذ ١١٤ هـ

١)	١١٤ هـ	معركة بلاط الشهداء	٧٤١ م	توقف الزحف الإسلامي في أوربا
٢)	١٣٣ هـ	الدولة العباسية	٧٥٠ م	
٣)	١٣٩ هـ	الدولة الأموية في الأندلس	٧٥٥ م	عبد الرحمن الداخل
٤)	١٤٢ هـ	الأغالبة في تونس	٧٥٩ م	ابراهيم بن الأغلب
٥)	١٧٣ هـ	الأدارسة في مراكش	٧٩٠ م	ادريس بن عبد الله
٦)	١٧٠ هـ	هارون الرشيد	٧٨٧ م	
٧)	٢٠٤ هـ	الدولة الطاهرية في خراسان	٨١٩ م	طاهر بن الحسين
٨)	٢٥٥ هـ	الدولة الطولونية في مصر	٨٦٨ م	أحمد بن طولون
٩)	٢٩٨ هـ	الدولة الفاطمية	٩١٠ م	عبد الله المهدي
١٠)	٣٠٠ هـ	عبد الرحمن الناصر	٩١٢ م	
١١)	٣٣٣ هـ	الدولة الحمدانية في حلب	٩٤٤ م	سيف الدولة الحمداني
١٢)	٣٤٥ هـ	الدولة السلجوقية في بغداد	٩٥٦ م	علاء الدين السلجوقي
١٣)	٣٨٨ هـ	الغزنويون	٩٩٨ م	محمود الغزنوي
١٤)	٤١٤ هـ	بنو عباد بإشبيلية	١٠٢٣ م	المعتمد بن عباد
١٥)	٤٢٩ هـ	الدولة العثمانية في خراسان	١٠٣٧ م	طغرلبك
١٦)	٤٥٤ هـ	دولة المرابطين في مراكش	١٠٦٢ م	يوسف بن تاشفين
١٧)	٤٦٤ هـ	معركة ملاذ كرد	١٠٧١ م	انتصار ألب أرسلان ضد البيزنطيين

١٨)	٤٧٩ هـ	معركة الزلاقة على الفرنجة	١٠٨٦ م	انتصار يوسف بن تاشفين
١٩)	٤٨٩ هـ	الحملة الصليبية الأولى	١٠٩٦ م	
٢٠)	٥٨٣ هـ	معركة حطين	١١٨٧ م	انتصار صلاح الدين على الصليبيين
٢١)	٦١٦ هـ	ابتداء حملات التتار	١٢٤٩ م	
٢٢)	٦٥٦ هـ	سقوط بغداد	١٢٥٨ م	
٢٣)	٦٥٩ هـ	معركة عين جالوت	١٢٦٠ م	انتصار قطز على التتار
٢٤)	٨٥٨ هـ	فتح القسطنطينية	١٤٥٢ م	انتصار محمد الفاتح على الروم
٢٥)	١٠١٨ هـ	خروج المسلمين من الأندلس	١٦٠٩ م	
٢٦)	١٢١٣ هـ	ابتداء الغزو الاستعماري	١٧٩٨ م	





الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



مطابع الجمعية العلمية الملكية